3 1142 00319 1502

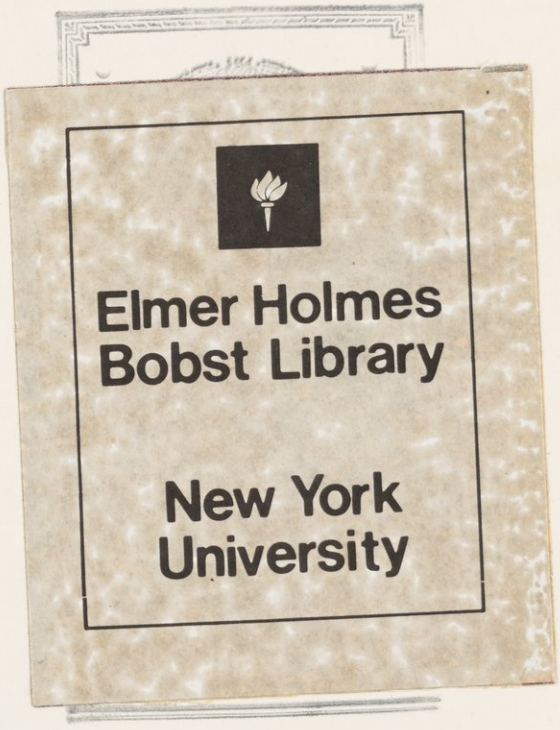

DATE DUE	DATE DUE

NEW YORK UNIVERSITY
BOBST LIBRARY
CIRC
JAN - 2 1991
CIRC
70 WASHINGTON SQ. S.
NEW YORK, N.Y. 10012

al-Maṭwī, Muḥammad al-ʿArūsī

محمد العروسي المطوي

al-Ḥurūb al-ṣalībīyah fī al-mashriq wa-al-maqhrib 32

الحروب الصليبية

في المشرق والمغرب

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

نشر دار الكتب الشرقية - تونس

Near East
D
158
.M26
c.1

الطبعة الاولى

١٣٧٤ هـ. - ١٩٥٤ م.

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الشيخ الأستاذ

محمد العربي الماجري

قد أطلعني العالم الفاضل المدرس بالجامعة الزيتونية أدام الله عمرانها الشيخ محمد العروسي المطوي على تأليفه الحروب الصليبية، فأمعنت النظر في جميعه فألفيته زهرة من زهرات الزيتونة المباركة . ترتيب فصوله في غاية الاحكام ، وعبارته واضحة الدلالة على المرام ، مما يدل على قوة تمكن المؤلف من سائر موضوعات تأليفه . وذلك دأب المحققين الذين لا تكتفي نفوسهم بظواهر النصوص حتى يغوصوا على معانيها فتنكشف لهم حقائقها واضحة لا شبهة فيها .

وهذا هو السر الذي دعا المؤلف الى عدم الاقتصار على النصوص العربية ، وإن كان في ذلك مشقة على النفس . ولكنها لذة جميلة عند ذوي النفوس العالية ، التي تبتغي الكمال في جميع اعمالها . وهذا ما اعرفه في الشيخ المؤلف . وهو ما يعنني لان اقترح عليه التأليف في هذا الموضوع عند اشتغاله بتدريسه، فكان عند حسن الظن به

وقد أحسن في تعرضه لاسباب تلك الحروب ، وبسط الحالة الاجتماعية التي عليها الفريقان بسطا يكاد القاريء لتأليفه ، بعد هذا الوصف ، يجزم بمعرفة الغالب من المغلوب ، وختمه كل موضوع منها بحديث ممتع عن الآثار العلمية والادبية والاخلاقية التي خلفتها تلك الحروب ، وتذييله كل فصل بخلاصة وافية تضم متفرقاته وتجمع مهماته . فجزى الله المؤلف خير الجزاء ، وأثابه على حسن صنيعه ونفع به وبتأليفه .

محمد العربي الماجري
استاذ التعليم العالي بالزيتونة

2272
.3258
.348

ما دعاني

ألحت علي الرغبة منذ عهد بالاقدام على تأليف كتاب يحقق رغبة في نفسي، ويسد حاجة عند غيري.

والواقع ان الضرورة تدعو الى تأليف هذا الكتاب (الحروب الصليبية في المشرق والمغرب) لان مضمونه يدرس بالصفوف الزيتونية . ولا يوجد كتاب يساير المنهج الدراسي ؛ فكان المدرس مضطرا الى التنقيب والبحث والجمع من مختلف المصادر حتى يقدم لتلامذته ما يمكن أن يفي بحاجتهم . وليس في الزيتونة نفسها تخريج أو اختصاص في مادة التاريخ، مما يجعل مهمة المدرس المنتدب لتدريس التاريخ شاقة عسيرة . يضاف إلى ذلك ان تدريس التاريخ بالمعاهد الزيتونية لم يكن منتظما من ناحية مراحله وشموله. وإذ كانت الحروب الصليبية لها أكبر الاتصال بالتاريخ العام ، سيما تاريخ اروبا ، كان من الواضح إدراك ما يفاجأ به التلاميذ عندما يدرسون تاريخ هذه الحروب واحوال الامم التي شاركت فيها . ودون ريب ، يصطدم التلاميذ بالهوة السحيقة التي تفصل بين معلوماتهم التاريخية الماضية وبين المنهج المقبلين على دراسته .

ولذلك كان العمل في هذا الكتاب وسطا بين كتاب التلميذ وكتاب الاستاذ ، او بين الكتاب المدرسي والكتاب العام ، حتى تمكن الافادة منه على مقدار أوسع . ولهذا اثبت المراجع واحلت عليها، وسجلت قائمة في أهم المصادر والمراجع التي وقع الرجوع إليها في التاليف، حتى يسهل الامر على من يريد زيادة في التوسع والاطلاع. وتضمن الكتاب خرائط تاريخية، وصورا أثرية ، ومختارات من الانقال تزوّد دارسه بمعلومات مفيدة في مختلف النواحي . وبذلك جاء الكتاب مسايرا لمناهج الدراسة الحديثة في بسطه وطريقة عرضه . وفضلت أن اسجل بعض الاعلام بلفظها الاجنبي ليمكن ضبطها والعثور عليها في مظانها الاصلية .

ولا منّ على قارىء بجهد ومشقة ؛ فذلك يعرفه كل من تصدى لعمل مركّز ودراسة متينة. وإنما الذي أقوله : هو ان هذا العمل لم يكن - في حد ذاته - إلا محاولة للنفع والافادة دعت إليهما الضرورة ، ودفعت إليهما الحاجة

إن الحروب الصليبية ، التي تمثل دورا هاما في تاريخ الشرق والغرب ، وصورا من الصراع بين الاسلام والمسيحية ، لم تلق اعتناء خاصا من كتاب العربية إلا في العصور الاخيرة ، إذ اتجهت اليها الانظار بالدراسة الخاصة التفصيلية ، ولعل لما جريات هذه العصور اثرا في هذا الالتفات الى صفحة هامة من صفحات التاريخ الاسلامي . هذا زيادة عن سير المناهج الجامعية في البحث والاختصاص في ناحيتي الدراسة والانتاج .

اما في الكتب القديمة فهي مبعثرة هنا وهناك تسجّل وتذكر تبعا للاحداث العامة ، أو هي مسجلة لبعض الفصول منها : في اختصاص التأليف بشخص أو دولة . ولم تكن تلك الكتب القديمة تسميها بهذا الاسم (الحروب الصليبية) ، إنما هذا إطلاق افرنجي لتلك الحروب راج في الشرق اخيرا بعد هذا الاتصال الجديد بين العالمين .

والكتب الحديثة دراسات متنوعة لصور مختلفة من صور هذه الحروب ، إمّا قصدت بالبحث رأسا او تبعا لدراسة بطل من ابطالها ، او اثر من آثارها . ولعل الكتاب الوحيد الجامع لها - فيما نعلم - هو كتاب « الاخبار السنية في الحروب الصليبية » للسيد علي الحريري . إلا ان هذا الكتاب لا يتماشى مع منهج الدراسة المتحدث عنه ، إذ الكتاب لا يتناول القسم الثاني من المنهج (الحروب الصليبية بالمغرب الاسلامي) . ولهذا أعملت الجهد لابراز كتاب يساير المنهج ويفي بالحاجة ، راجيا من الله ان يقع به النفع والاتعاظ ، وان يحقق الغاية من جمعه وتأليفه . إنه ولي التوفيق .

محمد العروسي المطوي
المدرس بالمعاهد الزيتونية - تونس

برنامج الدراسة المقرر من طرف المشيخة الزيتونية

تاريخ الحروب الصليبية :

(١) الحروب الصليبية في المشرق : إثارة اتساع الفتوح الاسلامية عاطفة الانتقام الديني - عظمة الحضارة الاسلامية في نظر مسيحيي اروبا - دعوة البابا عربانوس الثاني للحرب ، وابتداء الحملات الصليبية - اجتماع الفرسان في القسطنطينية وسيرهم الى بيت المقدس - حصار انطاكية واحتلال عسقلان - نهضة السلطان نور الدين للدفاع - النجدات الصليبية وهي الحملة الثانية - لويس السابع - ظهور السلطان صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس - الحملة الثالثة (فليب ملك فرنسا ريكاردوس ملك الانكليز) - حصار عكا والخيبة الصليبية - تأسيس السلطنة الصليبية في القسطنطينية - مهاجمة السواحل المصرية واحتلال دمياط - محاولة احتلال القاهرة وخيبة ذلك - هجمة لويز التاسع على مصر واستيلاؤه على دمياط وخيبته - حملة الفرنسيس على تونس وخيبتها - إنقاذ عكا والقضاء على آخر القوات الصليبية - نتائج الحروب الصليبية في تأثير الاسلام على تمدين اروبا .

(ب) الحروب الصليبية بالمغرب وابتداؤها منذ عهد الفتح - أدوار تاريخ الاسلام بالاندلس باختصار - الفنش الاكبر ومملكة ليون - ممالك برشلونة وارغونة وقشتالة - انقسام الخلافة الاموية الى ملوك طوائف .

تقوي صانشة والفنش صاحب قشتالة - سقوط طليطلة وسرقسطة - نجدة المرابطين وانتصار الزلاقة - ضعف المرابطين واستيلاء النرمان على السواحل الافريقية - نجدة الموحدين . تقهقر الدفاع وسقوط قرطبة - انحصار المسلمين وضيق مملكة غرناطة - استمرار المقاومة الى الجلاء الاخير - الهجمات النصرانية على السواحل الافريقية - نجدة الاتراك العثمانيين .

الفصل الأول

حالة المجتمع الاسلامي قبيل الحروب الصليبية

إن من يلقى نظرة على المجتمع الاسلامي قبل إعلان الحروب الصليبية (اي خلال القرن الخامس الهجري والحادي عشر المسيحي) يعرف الظروف التي اختارتها الامم النصرانية باروبا للقيام بالحملات الصليبية .

١) مصر الفاطمية

فمصر الفاطمية كانت تعاني مصيبة الدول التي تضعضع سلطانها وأشرفت على الانحلال والاضمحلال . فقد كانت مصر نهبا للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة . وكانت المجاعات والقحط والاوبئة تغشاها وتنهك من قواها . وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبر بأشكال مختلفة ومتنوعة .

استهل القرن الخامس الهجري على مصر الفاطمية وكان خليفتها الحاكم بأمر الله - تولى الخلافة ٢٥ سنة - لم تكن تسكن فيها الفتنة حتى تشب الاخرى . وكان شذوذه النفسي في غاية الفوضى والارتباك . وكانت مدة خلفه - الظاهر ابن الحاكم بأمر الله (٤١١ الى ٤٢٧ هـ) مدة فوضى أيضا . وحدثت فيها مجاعة كبرى فيما بين (٤١٥ و ٤١٧ هـ) واقتتل فيها المغاربة والاتراك ، وفشا الطاعون الذي لم ينج منه حتى الخليفة . أما مدة الخليفة المستنصر (٤٢٧ الى ٤٨٧ هـ) فقد كانت تمثل عهد اقتطاع أطراف الخلافة الفاطمية : فقد أعلنت تونس انفصالها من طرف المعز بن باديس سنة ٤٣٨ . وانتزع السلاجقة القدس وفلسطين ودمشق من سيادة الفاطميين سنة ٤٦٩ اما حالة مصر الداخلية فكانت غاية في الارتباك ، ولا أدل على ذلك من تقليد الوزارة مدة تسع سنوات لاربعين وزيرا . ثم حدثت مجاعة كبرى

استمرت من ٤٥٨ الى ٤٦٥ أكل فيها الناس لحوم البشر . ثم تولىّ المستعلي ابن المستنصر (٤٨٧ - ٤٩٥) الذي في عهده ظهرت الحروب الصليبية . وهذا الخليفة كان يمثل الضعف الحقيقي للخلفاء الفاطميين بمصر .

٢) الشرق الاوسط والخلافة العباسية

كانت الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري على حالة يرثى لها من الفوضى والانحلال . واذا كان امر بغداد قبل بني بويه يتنازعه استبداد الموالي الاتراك ، فانه منذ انتصب بنو بويه ببغداد (٣٣٤ هـ) ازدادت الحالة سوءا ، وأصبحت العداوة مستحكمة مابين بني بويه الشيعيين - وهم أصحاب النفوذ والسلطان - ومابين الخليفة وعامة الناس - وهم سنيون - فكانت الثورات والفتن المذهبية والحوادث تملا البلاد رعبا وهولا . ولما تولى الخلافة العباسية - القائم بأمر الله - (٤٢٢-٤٦٧) ازدادت الحالة سوءا وأصبح النهب والغصب جهارا . وشاع شغب الجند والغلمان والترك والديلم الى أن وقع احتلال بغداد من طرف السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ وأزالوا سلطنة آل بويه .

واذا كان للسلاجقة فضل فهو في جمعهم لما تفرق وتشتت من المشرق الاسلامي تحت رأيتهم ؛ فامتدت سلطنة بني سلجوق امتدادا عظيما في عهد عظماء سلاطينها (طغرل بك - ألب أرسلان - ملكشاه) وقد اشتهر السلطان ألب أرسلان السلجوقي بفتوحاته في آسيا الصغرى وانتصاره على امبراطور الروم (١) رومانوس ديوجونيس في معركة ملازكرد (Mantzikert) (٤٦٣ - ١٠٧١م) شمالي بحيرة « وان » ، خلصت له بعدها ارمينيا وغالب بلاد الاناضول الى شواطيء بحر مرمرة فاصبحت القسطنطينية مهددة بخطر احتلالها . ولكن هذه العظمة السلجوقية لم تدم طويلا ، فما ان مات السلطان ملكشاه السلجوقي سنة ٤٨٥ هـ حتى انقسم البيت السلجوقي على نفسه ، وانفرط عقد السلطنة السلجوقية التي كانت تمتد من

(١) هو الامبراطور (Romanus Diogènes) وقد أسر هذا الامبراطور ثم اطلق سراحه بعد

بلاد الصين الى سواحل الشام شرقا وغربا ومن بلاد القوقاز الى اليمن شمالا وجنوبا . وهكذا ما حان موعد الحروب الصليبية حتى كان المشرق الاسلامي في غاية الفوضى والارتباك والتنازع .

٣) حالة البلاد الشامية في القرن الخامس الهجري

في مطلع القرن الخامس كانت سورية في الفوضى التي احدثها الحاكم بامرالله الفاطمي . وفي أول عهد سلفه - الخليفة الظاهر - كانت سورية تكاد تكون خارجة عن نفوذه فقد استولى صالح بن مرداس (٤١٥ هـ - ١٠٢٥ م) على حلب وما إليها . واغار حسان بن جراح الطائي على اكثر بلاد الشام وفلسطين . وتكررت الحوادث سنة ٤٢٩ هـ . واستمر الاضطراب في بلاد الشام حتى افتكها السلاجقة من القاطميين، ولم تسلم في عهدهم من القتال والنزاع والخصام من أجلها . وقبيل اندلاع الحروب الصليبية كانت بلاد الشام موزعة على الامراء والسلاجقة المتنازعين، فأنطاكيه كانت تحت امارة باغيسيان التركماني . ودمشق كانت لرضوان ابن تتش ابن ألب أرسلان . وبيت المقدس كانت قد اقطعت للامير سقمان بن أرتق التركماني

٤) الحالة بافريقية وصقلية والاندلس

في أوائل القرن الخامس الهجري تولى المعز بن باديس الصنهاجي على افريقية (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ) فكانت مدته مليئة بالحوادث والاضطراب ، فثورة دموية ما بين الشيعة والسنيين، وثورة حربية من طرف عمه حماد بالمغرب، وثورة انفصالية من زناته بطرابلس الغرب . ثم كان إعلان المعز الصنهاجي لقطع الخطبة والتبعية للفاطميين بمصر أعقبه خروج غالب البلاد عنه وزحف الاعراب من بني هلال ، فعم كامل البلاد الفوضى والتخريب والاضطراب من برقة الى القيروان . أما خلفه تميم بن المعز (٤٥٣ - ٥٠١ هـ) فكانت مدته أشد اضطرابا وأكثر فتنة ويعتبر عصره بافريقية عصر ملوك طوائف فقد ثارت ضده مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس والجريد . وتكونت فيها إمارات مستقلة . وثار عليه مالك ابن

علي الصخري حتى هاجم المهدية وحاصرها وهاجم الجنويز والبيزان (Pizanes) المهدية وزويلة فسلبوا ونهبوا . وكانت نكبة المجاعة بالوباء قد عمت البلاد (٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م)

أما صقلية فقد لاقت من الثورات والمعارك والاضطرابات الداخلية ما جعلها فريسة سائغة لهجمات النرمان (Normand) فاندفعوا اليها وهاجموها بينما أبناؤها يتقاتلون ويتنافسون ويعربدون . وما كانت سنة ٤٨٤ هـ ١٠٩١م حتى سقطت صقلية نهائيا في أيدي النرمان، ومحيت من خريطة البلاد الاسلامية، فكانت الشهيدة الاولى التي ذهبت ضحية الاهمال والتخاذل . وكانت حالة المسلمين السيئة بصقلية من التضعضع والتقهقر أمام جيوش النرمان قد أغرت هؤلاء الغزاة على الاقدام واقتحام الشواطيء الاسلامية بافريقية من بجاية الى طرابلس الغرب .

(١) اما في الاندلس (الفردوس المفقود ، والشهيدة الثانية) فقد كان القرن الخامس فيها قرنا حاسما لما بين عهدها الزاهر السابق وما بين عهد تراجعها واضمحلالها فمنذ سنة ٣٩٩ بدأ الاضطراب بالاندلس بجعل ولاية العهد لعبدالرحمان بن منصور الحاجب، فاشتدت الفتنة وعم الفساد. وكانت سنة ٤٠٧ مبدأ التفرق والتمزق، فكان عصر ملوك الطوائف الذين تكالبوا على الفتك ببعضهم واستنجادهم بملوك النصارى ضد بعضهم بعضا . وانتهز النصارى الفرصة السانحة التي ينتظرونها منذ فتح الاندلس على يد طارق بن زياد، وأخذت النتائج الايجابية تظهر لفائدة النصارى.

وجاء دور طليطلة فانتزعها الاذفونش السادس (Alphonse) (٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م) وكان انتزاعها مبدأ التفوق الحقيقي للنصارى على المسلمين بالاندلس حتى ان نجدة يوسف بن تاشفين لاهالي الاندلس وانتصاره على الاذفونش في معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م) لم تكن إلا إيقافا مؤقتا للزحف النصراني ، فانه رغم انهزام النصارى في هذه المعركة فان المسلمين لم يستطيعوا استرجاع مدينة طليطلة العظيمة وبالجملة تلك هي حالة المجتمع الاسلامي قبيل نشوب الحروب الصليبية .

---

(١) سياتي لهذا مزيد بيان اثناء الكلام عن الحروب الصليبية بالمغرب

وانها لحالة مغرية للنصارى بالاقدام على أخذ الثأر ورد الفعل . وقد طال انتظار الامم النصرانية لهذا الامر ، فمنذ ان التقت القوات الاسلامية بالقوات البيزنطية المسيحية في فلسطين سنة ١٣ هجرية وانتصار المسلمين عليهم في معارك اليرموك واجنادين ، منذ ذلك الوقت والاسلام يهاجم النصارى ويفتح اراضيهم، فبقي النصارى يترقبون الفرصة المتيحة والزمن المناسب فكانت أواخر القرن الخامس الهجري أحسن الفرص للانتهاز ، بعد ان عجموا عوده وذاقوا حلاوة الانتصار عليه وافتكاك بعض اراضيه واسترجاعها الى نفوذهم . لقد ذاقوا حلاوة الانتصار بأطراف مملكته الواسعة فليهاجموه بعقر داره بعد ان هاجموه باطرافه.

مُلحقات الفصل الأوّل

الخلاصة

كان المجتمع الاسلامي قبيل الحروب الصليبية على حالة من الاضطراب والتفكك تسمح لاعدائه بمهاجمته والنيل منه .

فمصر كانت نهبا للمجاعة والثورات والانقلابات وعدم الاستقرار . وبلاد العراق والخلافة العباسية ما ان شملهما نفوذ السلاجقة حتى عادا الى ماكانا عليه زمان بني بويه من الخلافات والحوادث . والبلاد الشامية كانت مسرحا لحروب بين الفاطميين والسلاجقة ، وما بين السلاجقة انفسهم .

ولم تكن حالة المغرب الاسلامي احسن حظا من المشرق : فتونس عمتها الفوضى والاضطرابات ونالها التقسيم وفقدان الوحدة السياسية . وصقلية انتهت منها آخر مقاومة إسلامية واستولى عليها النرمان . اما الاندلس فقد بدأ فيها عهد التراجع ورجحان كفة النصارى ، وبدأوا يحتلون المدن الاسلامية الواحدة بعد الاخرى . ولم تكن نجدة ابن تاشفين الا إيقافا وقتيا لعهد التفوق المسيحي بالاندلس . وهكذا كان العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبية في حالة مغرية على مهاجمته واكتساحه .

الحروب الصليبية - خريطة عدد (١)

٢) ارقام تاريخية

سنة ٣٣٤ هـ ـ استيلاء بني بويه على بغداد
سنة ٤٤٧ هـ ـ استيلاء السلاجقة على بغداد
سنة ٤٦٣ هـ ـ موقعة ملازكرد انتصر فيها ألب ارسلان على الدولة البيزنطية
سنة ٤٨٤ هـ ـ سقوط صقلية نهائيا في ايدي النرمان
سنة ٤٨٥ هـ ـ موت السلطان ملك شاه السلجوقي

٣) فرق الاسماعلية

كان يصحب حالة التضعضع السياسي في المشرق الاسلامي ـ قبل نشوب الحروب الصليبية ـ حالة اخرى من التشتت والاختلاف ما بين الطوائف والمذاهب الاسلامية من سنيين وشيعة . وكان الاسماعيليون اشد عداء على جماعة المسلمين ، يعملون على النيل منهم والفتك بهم ، ولو كان ذلك على حساب صالح المجموع .

والاسماعيليون ينسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق العلوي ، الذي اختارته جماعته دون اخيه موسى الكاظم (إمام الاثني عشرية) . كان هؤلاء الاسماعيليون من غلاة الشيعة ، يرون عصمة الامام مهما اتى بما يخالف ظاهر الدين ، لانه يعلم باطنه وتأويله . ومن اشهر فرق الاسماعيلية : ١) القرامطة ٢) الفاطميون ٣) الحشاشون .

اما القرامطة فانهم ـ منذ اواخر القرن الثالث ـ كانوا يبثون الرعب والفزع ، وكانت اعتداءاتهم دون حصر ؛ فكانوا يبيحون سفك الدماء ، ويغيرون على الآمنين في الجزيرة العربية والعراق والشام . وكانوا بعملهم هذا من اشد المعاول تهديما لكيان الخلافة العباسية والمجتمع الاسلامي .

ولئن تمكن الفاطميون من الاستيلاء على الشام بعد نهاية القرامطة ، فان عداءهم للسلاجقة السنيين جعلهم ينتهزون فرصة الهجوم الصليبي ليكيدوا للسلاجقة .

ولكن الاخطر من كل ذلك هي فرقة الاسماعيلية التي اشتهرت ايضا باسم

« الحشاشون » والتي كانت اخطر جمعية ارهابية عرفها المشرق الاسلامي: تعاونت هذه الفرقة مع الصليبيين وفتكت بالكثير من قادة المسلمين ورجالاتهم.

وقبيل الحروب الصليبية (٤٨٣هـ ١٠٩٠م) تركزت هذه الفرقة الخطرة بزعامة الحسن بن الصباح ، واعتصمت في الشمال الغربي من ايران بقلعة «ألموت» ومنذ ذلك الحين اخذ الحسن بن الصباح يبث اتباعه للاغارة والاغتيال . وكان له صنف من الاتباع يقال لهم « الفدائيون » يناط بعهدتهم اغتيال الاشخاص الذين يعينون لهم . نعم حاول السلطان ملكشاه السلجوقي إبادتهم ، ولكنه لم يفلح لاستماتتهم في الدفاع ومناعة مراكزهم. وبدأت سلسلة اغتيالاتهم منذ سنة (٤٨٥) بقتلهم نظام الملك ، اعظم وزير في الدولة السلجوقية. وسنة (٤٩٠هـ) قتلوا عبد الرحمان السميرمي ، وأرغش النظامي ، والامير يوسف اول شحنة سلجوقية في بغداد (١) وفي سنة (٤٩٥) لما جمع جناح الدولة (صاحب حمص) عسكره لمهاجمة صنجيل الصليبي وعلم بعزمه على فتح حصن الاكراد ، وثب عليه باطني وقتله بالجامع مما مكّن صنجيل من الاستيلاء على الحصن .

وفي سنة (٤٩٨) هجموا على قافلة حجيج واردة من خراسان فقتلوا جميع من بها واخذوا اموالهم ، وقتلوا أبا جعفر المشاط ، من شيوخ الشافعية (٢) كما انهم هجموا على الخليفة المسترشد في خيمته وقتلوه (٥٢٩هـ) وكان المسترشد شجاعا عظيم النفس عزم على الاستقلال بأمره وإزاحة نفوذ السلاجقة وضبط امور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب (٣)

وفي سنة (٥٢٥هـ) وثبوا على تاج الملك بوري بن طغتكين (صاحب دمشق) وجرحوه جراحات مات من جرائها بعد مدة . وقبل ذلك حاول ابو الوفاء

---

١) ابن الاثير - ج - ٨ - ص ١٨٥

٢) المصدر نفسه ص ٢٢٨

٣) الروضتين ج. ٢. ص ٣١ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٣١

الباطني تسليم دمشق الى الصليبيين . اما اسماعيل الباطني فسلم اليهم حصن بانياس وسار معهم (١)

وفي سنة (٥٧١هـ) وثبت جماعة منهم على صلاح الدين (الايوبي) ولم يمنعه من سيوفهم سوى دروعه المنيعة التي حالت دون اغتيالهم لاعظم بطل إسلامي في الحروب الصليبية .

وحتى مع الصليبيين كثيرا ما قلبوا لهم ظهر المجن واغتالوا البعض من رجالاتهم . ولكن عداءهم لابطال وقادة المسلمين كان اشد واخطر .

هذا قليل من اعمال هذه الفرقة الارهابية التي زادت من سوء الحالة الاجتماعية واضطرابها بالمشرق الاسلامي اثناء الحروب الصليبية . وقد استمر إرهاب الاسماعيليين عديدَ السنين ، الى ان قضى عليهم بإيران هولاكو المغولي (٦٥٤هـ ١٢٥٦م) خوفا من غدرهم وفتكاتهم . ثم قضى على من اجتمع منهم بجبال لبنان الملك الظاهر بيبرس (٦٧٢هـ ١٢٧٣م) فشتت شملهم واراح الناس منهم .

تمرينات

١) ماذا كان يسود المجتمع الاسلامي قبل اندلاع نيران الحروب الصليبية ؟
٢) ما الذي ساعد النرمان على افتكاك صقلية من ايدي المسلمين ؟
٣) ما الذي كان يحصل لو لم تتشتت الامبراطورية السلجوقية ؟
٤) معركة ملازكرد ونتيجتها في الصراع بين الاسلام والنصرانية .
٥) اثر فرق الاسماعلية على المجتمع الاسلامي .

---

(١) تتمة المختصر لابن الوردي - ج ٢٠ - ص ٣٤ - ٣٥

الفصل الثاني

مَاهِية الحُروب الصَّليبيَّة

١ - الحروب الصليبية

لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع الا فترة زمنية ولونا خاصا من ذلك الصراع الدائم ما بين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذي اختلفت تسميته باختلاف الازمان والمقاصد ؛ فاذا كان هذا الصراع يتمثل في العصور القديمة ما بين الفرس من جهة واليونان والرومان والروم من جهة اخرى متخذا صبغة الغزو والاكتساح في سبيل تكوين السلطنات العظمى والامبراطوريات العالمية ، فانه في العصور الوسطى اتخذ الصبغة الدينية من الجهاد الاسلامي والحروب الصليبية الاروبية . اما في العصور الحديثة فان صبغة هذا النزاع كانت هذا الاستعمارَ الذي ران على الشرق عموما والاسلام خصوصا في اشكال متباينة واوضاع مختلفة اعتمد فيها الغرب - اكثر ما اعتمد - على الحيل والدسائس .

ويبتديء دور الاسلام في هذا الصراع ما بين الشرق والغرب منذ ان بدأ الاسلام يتجاوز حدود الجزيرة العربية ، فوقعة القادسية - ١٦ هـ - كانت معركة حاسمة لاخضاع البلاد الفارسية التي كانت تتزعم الشرق في مصارعة الغرب

وبذلك تقلد العرب المسلمون هذه الزعامة في الصراع العالمي . واصبح النزاع ماثلا ما بين الاسلام في الشرق والامم النصرانية في الغرب .

اما بدء الصراع ما بين الاسلام والنصرانية فقد كان في فلسطين . وكانت وقائع اجنادين - ١٣ هـ - واليرموك - ١٥ هـ - معارك فاصلة لازالة النفوذ البيزنطي عن كامل بلاد الشام ، ودخول بيت المقدس - ١٥ هـ - تحت حماية الاسلام وسيادته . وتتابعت الفتوحات الاسلامية فشملت مصر وبرقة وافريقية والمغرب وكانت خاضعة للروم البيزنطيين .

ثم تتجاوز الفتوحات الاسلامية ذلك فتعبر المضيق بقيادة طارق بن زياد الى الاندلس ، وتزيل النفوذ القوطي (١) المسيحي عنها . وتتقدم الفتوحات الاسلامية وراء جبال البرانس (Pyrénées) وتصل الى اواسط فرنسا (Poitiers) وازدادت الفتوحات الاسلامية عظمة واتساعا بالاستيلاء على معظم جزر البحر الابيض المتوسط ، من رودس الى صقلية وجنوب شبه جزيرة ايطاليا . بل حاول بعض الغزاة المسلمين محاصرة مدينة روما وفتحها . كما حاول المسلمون فتح القسطنطينية عدة مرات ولكن الامكانيات لمّا تسعفهم بذلك في تلك الازمنة الاولى .

ومحاولة المسلمين فتح رومة والقسطنطينية معناه محاولتهم لفتح مواطن السيادة النصرانية في عاصمتيها الغربية والشرقية . ومن ناحية اخرى فان خسارة الامبراطورية البيزنطيه بسبب الفتوحات الاسلاميه كانت خسارة بالغة ، اذ انتزعت منها غالب ممتلكاتها ولم يبق الا جزء ضئيل من املاكها الواسعة ، فانحصرت دائرتها في شبه جزيرة البلقان والاناضول وجزء من جنوب ايطاليا . الا ان القوة الاسلاميه وإن استطاعت فتح بلاد الشام وما في شمالها الشرقي الى ارمينية وجبال القوقاز فان ما كان في الشمال الغربي لبلاد الشام بقى عند البيزنطيين وهو بلاد الاناضول (آسيا الصغرى) التي تعتبر المسلك الوحيد لاحتلال القسطنطينية من طرف أيّة قوة شرقية . كما اصبحت المناطق الممتدة طول خط (طرسوس - زبطرة - ملطية - ارض روم) مناطق ثغور وحدود ما بين السيادة الاسلامية والسيادة البيزنطية . وان اخطر اندفاع وراء هذا الخط واكبر توغل في بلاد الاناضول إنما يتمثل في غزوة المعتصم لعموريـة سنة (٢٢٣ هـ - ٨٣٧ م) ثم تراجع الى الثغور ، فكانت مناطق الثغور مجالا للكر والفر طيلة قرون ما بين القوات الاسلامية والقوات البيزنطية .

---

(١) القوط (Goths) شعب جرماني هاجر الى اسبانيا وجنوب فرنسا وعرفوا بالقوط الغربيين (Wisighots) اما الذين استقروا بايطاليا وشمال بحر الادرياتيك فهم القوط الشرقيون (Ostrogoths)

وكان البيزنطيون يجزمون ببعد الخطر عن القسطنطينية مادامت بلاد الاناضول تحت نفوذهم وسيادتهم . ولهذا ما ان اكتسح السلاجقة بلاد الاناضول - فيما بعد - واقتربوا من بحر مرمرة حتى هال البيزنطيين الامر ، واخذوا يستنجدون بامم اروبا واعلنوا ان القسنطيطينيه في خطر وان هذا الخطر لا يهدد القسطنطينية وحدها بل يهدد اروبا بتمامها .

لقد كانت عظمة الفتوحات الاسلامية تحز في نفوس النصارى ، وكان اثر هذه الفتوحات يحملهم على الحقد والبغض للاسلام اكثر مما يحملهم على الاعجاب والخوف منه ، ولهذا فانهم كانوا يتحرقون شوقا الى اليوم الذي يستطيعون فيه رد الفعل والاخذ بالثأر وارجاع النفوذ في مناطق غنية بخيراتها المادية والروحية . واذ كانت النهضة الاسلامية في عنفوانها فلا سبيل الى الاقدام على مهاجمتها ، وانما ينبغي الانتظار للفرصة المتيحة والوقت المناسب .

٢) الاسباب التي حملت اروبا على الحروب الصليبية

لكل حادث تاريخي اسبابه وموجباته . وقد ينتاب تلك الاسباب شيء من الاختلاط والاضطراب والغموض والخفاء ، ولكنها كلها ترجع الى نقطة معينة هي تلك الدوافع التي اظهرت ذلك الحادث وابرزته الى الوجود . وما الحروب الصليبية الا حادث تاريخي عظيم زادمن اختلاط اسبابه وغموضها كثرة الشعوب التي اشتركت فيها وكثرة الانظار والافكار التي توجهت اليها .

ولهذا اختلف المؤرخون في تعداد هذه الاسباب وتنويعها . ولكن مهما كان هذا الاختلاف ، فان الاسباب التي حملت اروبا على اعلان الحروب الصليبية ترجع كلها الى غرضين اساسيين هما : ١) رد الفعل النصراني المشبع بالحقد ضد العالم الاسلامي - ٢) دافع الطمع والكسب الذي اختلفت انواعه واشكاله .

وسترى - بعد سرد غالب اسباب الحروب الصليبية - انها ترجع كلها الى الغرضين الاساسيين اللذين ذكرناهما آنفا .

أ - السبب الاول : تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاجقة . واستنجاد امبراطور بيزنطة بالبابا والامم النصرانية .

يعتبر تأسيس مدينة القسطنطينية مبنيا من اول امره على الاعتبار الديني ، زيادة عن الاعتبار السياسي ؛ فان قسطنطين الاكبر (١) ما اسس القسطنطينية الا لما رأى ان رومة كانت مبنية على شكل وثني لا يتناسب مع العقائد المسيحية. ومنذذلك الوقت اصبحت القسطنطينية عاصمة دينية وعاصمة سياسية. واستمرت في عظمتها واعتبارها الى مبدإ العصور الحديثة حينما فتحها العثمانيون سنة (٨٥٧هـ ١٤٥٣م)

وقد كانت القسطنطينية طيلة صمودها للاسلام منذ سنة ١٣هـ تمثل العدو اللدود والخصم العنيد للاسلام ما بين مدافعة ومهاجمة ؛ ولهذا فان اي خطر يهدد هذه المدينة بالاحتلال فان معناه انهيار خط الدفاع المسيحي (٢) وفتح الباب على مصراعيه ليكتسح المسلمون القارة الاروبية. ان هذا الشعور هو الذي جعل اروبا النصرانية تصغي الى نداء الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين(٣) Alexis-Comnène بعد ان اطرد السلاجقة البيزنطيين من غالب آسيا الصغرى ومن شمالي بلاد الشام. وبعد ان جُعلت مدينة نيقية احدى عواصم السلاجقة وهي مدينة مشرفة على بحر مرمرة من ضفته الشرقية بينما القسطنطينية تقابلها في ضفته الغربية . فاستنجاد امبراطور بيزنطة بالامم المسيحية ان هو الا نداء لانقاذ مركز المقاومة الاول المسيحي الصامد امام القوات الاسلامية منذ عدة قرون .

ب - زوّار بيت المقدس النصارى وادعاؤهم مضايقة المسلمين لهم ، وانتهاكهم لحرمات الاماكن النصرانية المقدسة .

---

١) قسطنطين الاكبر اعلن ٣١٣م ان المسيحية اصبحت الدين الرسمي للدولة وكانت قبل ذلك غير معترف بها من قبل الدولة الرومانية بل طالما طاردت اصحابها وعذبتهم وانتهى من بناء القسطنطينية سنة ٣٣٠م

٢) ان ما قدره الغربيون هو ما تحقق فيما بعد لما افتتح العثمانيون القسطنطينية وتوغلوا في اروبا وبلاد البلقان .

٣) تولى الامبراطورية من (١٠٨١م) الى (١١١٨م)

يعتبر الدين الاسلامي اول من اعلن التسامح في العقائد ، واوصى برعاية اهل الذمة واحترام حقوقهم وعوائدهم ومعابدهم؛ فالقرآن الكريم يقول : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى » . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ظلم ذميا فأنا خصمه يوم القيامة. وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لما توجه الى بيت المقدس سنه ١٥ هـ - لعقد صلحها وأدركته الصلاة وهو في كنيسة القيامة ابى ان يصلي فيها مخافة ان يدعى المسلمون الكنيسة بعده ، وهارون الرشيد - الخليفة العباسى - بعث بمفاتيح كنيسة القيامة الى الامبراطور شارلمان تشريفا له من ناحية واظهار احترام الاسلام لاصحاب العقائد المخالفة من ناحية اخرى .

هذه هي وجهة النظر الاسلامية الى الاديان المخالفة ، وخصوصا لاصحابها الذين استظلوا بحماية الاسلام واستقروا تحت نفوذه . وهذا هو المبدأ العملي الاسلامي تجاه النصرانية وغيرها . وإن اي سلوك يخالف هذا المبدأ دون - مبرر شرعي - لا يمكن ان يتمشى مع أصول الاسلام ومبادئه .

نعم قد جاءت فترات ضغط على اهل الذمة ولكنها تنقضي بانقضاء اصحاب ذلك الضغط كعهد الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ) الذي لم يقتصر على تمييز اهل الذمة بزي خاص والتنفير منهم بل كان شديدا ايضا على شيعة الامام علي فنال منهم وهدم قبر الحسين وضغط على الافكار فأبطل الجدل والنظر والمباحثات مما كان يجرى في عهود الواثق والمعتصم والمأمون . وكعهد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (٣٧٥ - ٤١٠ هـ) الذي كان عهده عهد الاضطراب والتناقض ، حتى « قال اهل التاريخ إنه لم يل مصر بعد فرعون شر من الحاكم رام ان يدعي الالوهية ... وكان كثير التلون هدم الكنائس ثم اعادها ، واسلم لذلك اناس من اهل الذمة ثم اذن لمن اسلم ان يعود الى دينه. وبنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها (١) »

وكانت اعمال الحاكم هذه قريبة العهد - نسبيا - بحوادث الحروب الصليبية

---

(١) عن نزهة الناظرين (نسخة خطية بالمكتبة الصادقية بالجامع الاعظم تحت عدد ٤٤٤٦)

ولكن الاقرب من ذلك هو استيلاء السلاجقة على بيت المقدس وانتزاعها من أيدي الفاطميين كما انتزعوا انطاكية وآسيا الصغرى من ايدي البيزنطيين . وانتابت البلاد الشامية - بما في ضمنها بيت المقدس - احداث حربية مهولة لانها اصبحت ميدان كر وفر ما بين القوات المصرية الشيعية وما بين قوات السلاجقة السنية ، وكانت بلاد الشام في النصف الاخير من القرن الخامس الهجري تعيش في ظروف حربية استثنائية مما لا يبعد - في هذه الحالة - ان يجد الزوار الاجانب والوافدون على البلاد الشامية والفلسطينية مضايقة وعنتا . ولكن ذلك لا يصل - مهما بلغ الامر - الى مبالغات النصاري - زوار بيت المقدس - الذين اخذوا يهولون الامر في اوربا ويصِمون المسلمين بالتعصب واضطهاد المسيحيين وانتهاك حرمة اماكنهم المقدسة.

وهذا بطرس الناسك أشهر شخصية من زوار بيت المقدس ، واعظم داع للحروب الصليبية وتهييج الجماهير المسيحية ، هذا الزائر المسيحي لم يمنعه وجود السلاجقة ببيت المقدس من زيارة القدس وكنيسة القيامة ورجوعه الى اروبا داعيا للحرب ، مثيرا للحماس ، مستفزا للعواطف . والحرية التي مكنته من الذهاب الى بيت المقدس ورجوعه سالما الى وطنه بدون اذى كل ذلك يخفف - على الاقل - من تلك الادعاءات التي اخذ يروجها في مدن اروبا وبخاصة في فرنسا لاثارة الحروب الصليبية .

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن حالة الاضطراب والانحلال التي استولت على الشرق الادنى قبيل الحروب الصليبية ، كانت تضايق بعض زوار بيت المقدس وتلحقهم نوعا من العنت والارهاق من أناس ركبوا رؤسهم ولم يتشبعوا بروح التسامح الاسلامي . وقد تكاثر زوار بيت المقدس في تلك الازمنة كثرة مهولة(١)

ومهما كان الامر فقد كان ادعاء اضطهاد النصارى وانتهاك حرمة الاماكن النصرانية المقدسة من طرف المسلمين - اذ ذاك - كان هذا الادعاء من ابرز

---

(١) مما دعا الى كثرة الزوار في القرن الحادي عشر المسيحي ووفودهم على بيت المقدس بتزايد عظيم ، اعتقاد ان العالم مقبل على نهايته وفنائه بنهاية القرن .

الاسباب التي اتخذت وسيلة لاثارة العواطف والقيام بالحرب الصليبية خصوصا لدى الطبقات الشعبية المسيحية باروبا .

ج - الحياة الاجتماعية وسوؤها بأروبا : كثيرا ما تكون الظروف الاجتماعية والاقتصادية مثيرة لحوادث وانقلابات يتغير بها وجه تاريخ الامم والشعوب، او تكون مهيئة لاعتناق فكرة وانتشار نحلة او تلبية دعوة . وهكذا كان الامر بالنسبة للمجتمع الاروبي في عصر الحروب الصليبية ، فالطبقة الشعبية كانت في الدرك الاسفل من الانحطاط والفاقة والاحتياج ، وكانت تلاقي الامرّين من الضرائب والتسخير والظلم والارهاق، زيادة عن المجاعة التي عمت انحاء اروبا زمن الحروب الصليبية ، والتي انثابت هذه الطبقة البائسة اكثر من أي طبقة اخرى ، فكيف لاتلبي هذه نداء ترى فيه منقذا لها من حالتها السيئة ومرسلا بها الى الانعتاق والحرية . اما طبقة الاشراف والاقطاعيين فقد كانت تسودها فكرة تكوين الممالك والامارات اذ النظام الاقطاعي الذي نفقت سوقه في القرون الوسطى - خصوصا بعد انحلال الامبراطورية الرومانية المقدسة - (١) كان هذا النظام يدفع بالسادة الى اقتطاع الاراضي وتكوين الممالك والامارات . وهذا ما حدا بالكثير من هؤلاء الى تكوين الحملات الصليبية وتعبئة الجيوش والتوجه بها الى المشرق حيث يتمكنون من تحقيق مطامحهم واغراضهم .

وكان لنظام الفروسية السائد اذ ذاك اثر واضح في تشجيع غريزة حب الاطلاع والمخاطرات والمغامرات واظهار الشجاعة والمهارة مما احكمت نظامه تقاليد الفروسية واوضاعها في تلك العصور.

واذا اضفنا الى ذلك طمع الارباح التجارية الذي كان يتمثل في الجمهوريات الايطالية (جنوة - بيزة - البندقيه) والذي كان له ابعد الاثر في تركّز الصليبيين

---

١) الامبراطورية الرومانية المقدسة هي التي اسسها شارلمان (معاصر هرون الرشيد) واستمرت من بعد منتقله من عائلة الى اخرى ومن قطر الى آخر.

ببلاد الشام امكن لنا ان نعتبر هذا الطمع حالة مسيطرة على قسم من اهالي اروبا كانت تدفع بهم الى المساهمة في الحروب الصليبية .

د ـ الغرض الديني في الحروب الصليبية

وليس معنى تعداد المظاهر السابقة ان الشعور الديني المحض لم يكم موجودا بل كان كثير (١) ممن شاركوا في الصليبيات تدفعهم عاطفة دينية حياشة . ولكن هذا لم يكن الا كسائر المظاهر الاخرى يشمل طائفة من الناس ، كما شملت المظاهر الاخرى بقية الطوائف المشاركة. ولم تكن خطب البابا اوربان الثاني Urbain II اقل اهمية من الحالات الاجتماعية التي سردناها ، فقد استعمل البابا جميع وسائل الاغراء لاثارة الحمية في الصدور ؛ فزيادة عن إعلانه غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية ، وزيادة عن اعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف المدنية ، فان خطبته التي ألقاها بمجمع كلارمون Clermont Ferrand في نوفمبر (١٠٩٥م-٤٨٨هـ) يمكن ان تعتبر تلخيصا موجزا لجميع ما ذكرناه . ولقد كان في خطبه يضرب على الوتر الحساس كمثل قوله : « وليست (هذه الحرب) لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي اقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ، فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الاراضي المقدسة من ايدي المختلسين . وانتم املكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا (٢) »

واستخلاص بيت المقدس وإنقاذ (قبر المسيح عليه السلام) وحماية الصليب هي اللحاف الذي غطيت به وجمعت فيه جميع الاغراض الاخرى التي اختلف امرها باختلاف هوى كل واحد. وبذلك يظهر ان الانتفاع الشخصي كان هو السائد ، وان يكن خفيا لاول وهلة . وحالة الصليبيين التي ذكرناها ينطبق عليها قول احد المؤرخين الغربيين ـ « ان رؤساء الحرب الصليبية كانت افكارهم تشتغل

---

١) قال الراهب انكتيل في تاريخه - قليل من الصليبيين كانت لهم غاية دينية حقيقية - الحبة الادبية ص ٧٠

٢(الاخبار السنية ص ١٢

بمصالحهم الخصوصية اكثر من اشتغالهم بأورشليم(١) وان المنازع الدينية كانت دائما متأخرة لديهم عن مصالح تجارتهم (٢) . على ان هذه المظاهر الانتفاعية ، وهذا البعد عن الروح الديني المحض سنراه يتجلى بصفة عملية واقعية في سيرة هؤلاء الصليبيين في حملاتهم المختلفة .

هـ - موقف الفاطميين بمصر

يذكر الكثير من المؤرخين المسلمين من القدماء والمحدثين ان من اسباب هجوم الصليبيين على الشرق الاسلامي هو (٣) مراسلة الفاطميين لامم الافرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة لان هؤلاء الاخيرين تغلبوا على الفاطميين وافتكوا منهم البلاد الشامية، زيادة عن الخلافات المذهبية ما بين اهل السنة والشيعة ، وكانت على اشدها في تلك الازمنة . ولقد كان الفاطميون يعلقون آمالا كبيرة على مهاجمة الافرنج للقوات السلجوقية، فاذا استطاع الافرنج زحزحة السلاجقة عن مركزهم، واضعفوا من شأنهم فان هذا يمكن الفاطميين من إرجاع الاراضي التي اغتصبها منهم السلاجقة منذ زمن ليس بالبعيد . كما تذكر بعض المصادر ان اتفاقا سريا وقع بين الخليفة الفاطمي والامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة (٤)

ومهما كان موقف الفاطميين بمصر فانه كان اقرب الى اسباب نجاح الحملة الصليبية الاولى؛ لان موقفهم في هذه الحملة وتقاعسهم عن انجاد السلاجقة بل وانتهازهم الفرصة لاحتلال بيت المقدس زمن حصار انطاكية من طرف الصليبيين، ثم تقهقرهم السريع لمّا هاجمتهم القوات الصليبية ، كل ذلك يجعل الفاطميين متحملين لقسط وافر من المسؤولية في اسباب الحرب الصليبية او في اسباب نجاحها .

---

١) اورشليم هي بيت المقدس
٢) الاخبار السنية ص ٧
٣) ابن الاثير ج ٨ ص ١٨٦ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٢٧
٤) حسن حبشي ص ٧٠ - اعتمادا على Chalandon و R. Grousset

مُلحقات الفصل الثاني

- ١ - خلاصة الفصل

الحروب الصليبية عبارة عن الحملات العسكرية التى قامت بها اروبا المسيحية خلال قرنين من الزمن قصد استخلاص بيت المقدس من ايدي المسلمين، او للمحافظة على الامارات الصليبية التي تكونت في البلاد الشامية . والحروب الصليبية تمثل دورا هاما من ادوار الصراع المستمر منذ الزمن القديم ما بين الشرق والغرب. وقد كان لهذه الحروب اسباب ودواع كثيرة من اهمها :

١) ما يحمله المسيحيون من حقد ضد الاسلام نتيجة استيلائه على بيت المقدس وفتحه لكثير من المناطق في آسيا وافريقية واروبا كانت قبل تحت النفوذ المسيحي .

٢) تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاجقة بعد ان اصبحوا على مقربة منها وجعلت نيقية (قرب بحر مرمرة) عاصمة من عواصمهم الاقليمية فاستنجد الامبراطور الكسيس كومنين العالم المسيحي ضد المسلمين .

٣) حجاج بيت المقدس من النصارى الذين كانوا اذا رجعوا الى اروبا يهولون ما يلاقيه المسيحيون من ظلم وارهاق . وكان من ألمع هؤلاء الحجاج ذكرا الراهب الفرنسي بطرس الناسك .

٤) الحالة الاجتماعية بأوروبا وسوء نظام الطبقات والظلم والاضطهاد المسلط على عامة الشعب كان يدفع به الى الانعتاق والحرية. كما كانت طبقات الامراء والاقطاعيين يدفعها حب تكوين الممالك والامارات فكان لهذا وذاك أثر - قد يبدو غير مباشر - في اثارة الحروب الصليبية .

٥) الحماس الديني : من الرغبة في انقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وغفران الخطايا والذنوب .

وكانت المجامع الكنسية وخطب الاساقفة والرهبان والبابا من أفعل الوسائل لاثارة ذلك الحماس الديني واستغلاله

٦) ميل الفاطميين بمصر الى محالفة البيزنطيين ضد السلاجقة حتى يتمكنوا من استرداد ما افتكه منهم السلاجقة .

٢ - ارقام تاريخية

١٣هـ - معركة اجنادين

١٥هـ - معركة اليرموك وصلح بيت المقدس

٢٢٣هـ - غزوة عمورية وتوغل المعتصم في بلاد الاناضول

٤٨٨هـ - ١٠٩٥م - مجمع كليومون بفرنسا الذي قررت فيه الحرب الصليبية

١ - رأيان في دواعي الحروب الصليبية

(أ) نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حمية، وكان كل نصراني في أروبا يطمع، فضلا عن ملكوت السماوات، في إصلاح حاله في هذه الحياة الدنيا فكان العبيد يطمعون في فك رقابهم، وكان ابناء العائلات الذين حرموا الميراث بسبب نظام البكرية والامراء الاقطاعيون الذين كانت قسمتهم ضيزى يطمعون في الاغتناء. وكان الرهبان الذين اضنتهم حياة الاديار، وكان جميع المحرومين طيب العيشة، وقد كان عددهم كبيرا، يشيدون قصورا من الخيال ويعللون انفسهم باطيب الاماني .

(حضارة العرب لقوساطاف لبون (١) ص٣٤٩ ترجمة عادل زعيتر)

(ب) اجل، عدت الحروب الصليبية احيانا ، رد فعل ضد آسيا وانتقاما من العرب لما كان من غزوهم لاروبة الا ان الحروب الصليبية نشأت في الحقيقة عن الحماسة التي اشعلها بابوات رومه في نفوس العالم الكاثوليكي فلم يكن إنقاذ القسطنطينية التي كان يهددها الاتراك السلجوقيون الا امرا ثانويا لدى الصليبيين الاولين. والصليبيون قد ذكر لهم تدنيس اناس من الهمج لقبر يسوع المخلص وذكر لهم وجوب حفظ مهد دينهم من التنجيس فلبت الالوف تلك الدعوة التي رفعت باسم رب النصارى

(تاريخ العرب - سيديو - ص ٢٥٩ - ترجمة عادل زعيتر)

---

١) (Gustave le Bon) عالم اجتماعي فرنسي عاش ما بين (١٨٤١-١٩٣١) من اشهر كتبه حضارة العرب ، حضارة الهند ، روح الاشتراكية والاراء والمعتقدات وقد قام بنقل غالب كتبه الى العربية السيد عادل زعيتر

تمرينات

١) متى بدأ الصراع بين الاسلام والنصرانية . وضح ذلك ؟

٢) اذكر المناطق التي انتزعها المسلمون من السيادة المسيحية . حاول ان ترسم خريطة لتلك المناطق.

٣) لماذا لم يطل الصراع الاسلامي مع الفرس مثلما طال مع المسيحيين ؟

٤) اذكر اشهر الاسباب في اثارة الحروب الصليبية وما هو اهمها في نظرك.

٥) كيف كانت الحياة الاجتماعية في أروبا مساعدة على استجابة الدعوة الى الحروب الصليبية

٦) تحدث عن موقف الفاطميين من الحرب الصليبية الاولى .

٧) قارن بين رأي لوبون ورأي سيديو .

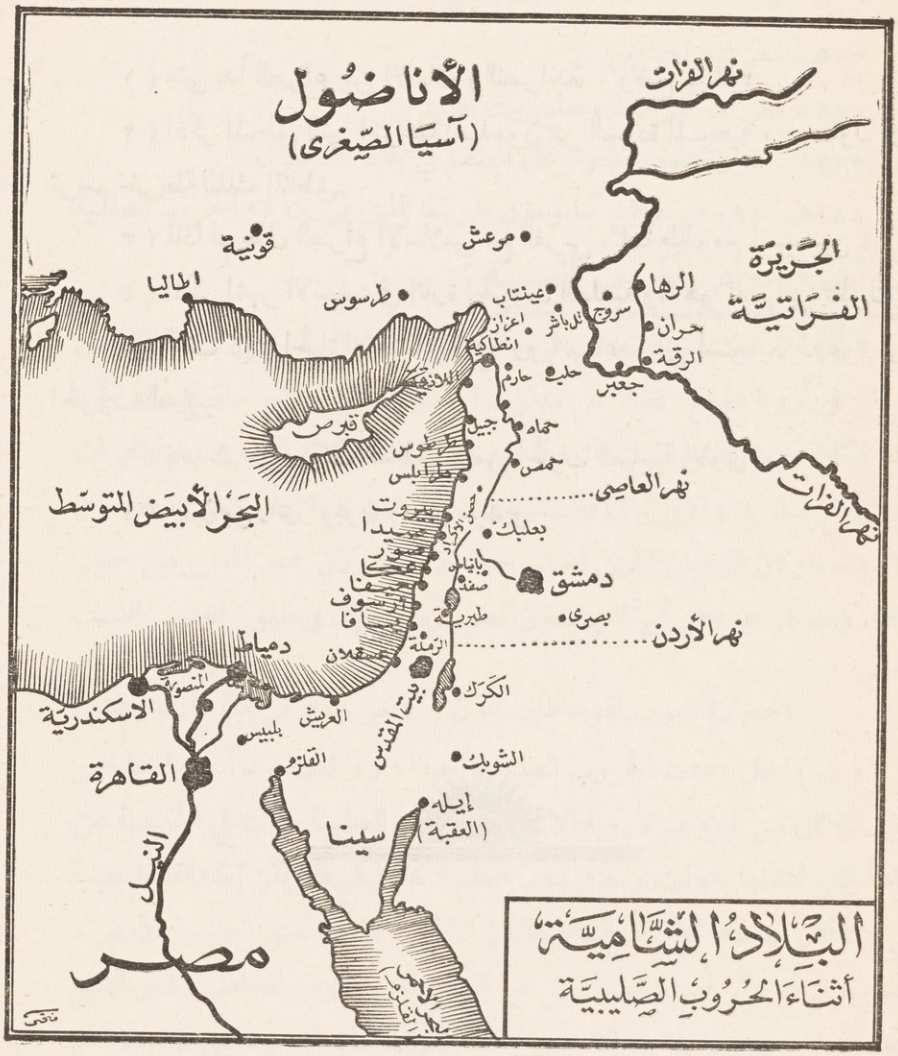

الحروب الصلبية ـ خريطة عدد (٢)

الحروب الصليبية
بالمشرق الإسلامي

صلاح الدين الايوبي

بطل المشرق الاسلامي في الحروب الصليبية

الفصل الثالث

الحرب الصليبية الأولى

١) الاستعداد للحرب والدعاية لها
٢) مسير حملات الصليبية الاولى
٣) من وصول الصليبيين الى القسطنطينية الى احتلال أنطاكية
٤) احتلال بيت المقدس وتكوين الامارات الصليبية

١) الاستعداد للحرب والدعاية لها

في سنة ٤٨٦ هـ - ١٠٩٣ م - قدم الى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى بطرس الناسك (Pierre l'Ermite) للحج والزيارة . ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الاسلامية على فلسطين والاماكن النصرانية المقدسة ، فعزم على دعوة المسيحيين لانقاذ الاماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين ، فكرّ راجعا الى وطنه (فرنسا) وعرّج على رومة حيث يوجد البابا أروبان الثاني (Urbain II) .

والبابا ، باعتباره الرئيس الاعلى للمسيحيين ، كان يعمل على تنفيذ فكرة انقاذ الاماكن المقدسة النصرانية من ايدي المسلمين . وكان سلفه البابا قريقوار السابع (Grégoire VII) قد فكر في هذا الامر استجابة لدعوة امبراطور بيزنطي سابق (١) . كما كانت له مشاركة وتأييد في محاربة المسلمين بالاندلس (٢) . وقد اتخذ البابا من بطرس الناسك اداة للدعاية ونشر الفكرة في المجامع العامة، والمحافل الشعبية ليهيىء الافكار ، ويثير الحماس الشعبي للعمل على انقاذ بيت المقدس ،

---

١) فيشر ص ١٧٤

٢) (Collection « Que Sais-je ? » - Les Croisades - R. Grousset)

وكنيسة القيامة (Saint-Sépulcre) (١) . وسار بطرس الناسك متجولا في ايطاليا وفرنسا ، راكبا بغلة ، معتنقا صليبا ، مهيجا للافكار مثيرا للحماس . وكان له تأثير كبير على العامة والرعاع .

المجامع الكنسية

اما البابا اروبان فانه عمل على عقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية ، وتخليص بيت المقدس من ايدي المسلمين .

وكان المجمع الكنسي الاول بمدينة بليزانس (Plaisance) بشمالي ايطاليا ، حضره الكثير من الرهبان والاساقفة والعلماء والسياسيين . وكان انعقاد المجمع في مارس ١٠٩٥ م (٤٨٨ هـ) واتفق المجمع على فكرة تخليص الاماكن المقدسة . ولكن هذا المجمع لم يظهر له مفعول ، لانه بمجرد ما تفرق الناس قلّ حماسهم لذلك . وكان من جملة الاسباب التى جعلت نتيجة هذا المجمع سلبية الخلاف المستحكم اذ ذاك ما بين البابا وامبراطور المانيا .

ولما احس البابا بخيبة مجمع بليزانس عزم على اختيار مكان اصلح لعقد مجمع ثان ، فاختار البلاد الفرنسية (موطنه الاصلي) (٢) حيث انعقد مجمع كلارمون فران (نوفمبر ١٠٩٥ م - ٤٨٨ هـ) ولبّى الدعوة كثير من الامراء ورؤساء الكنائس والفرسان ووفود الملوك ، زيادة عن العامة والطغام . ورغم شدة البرد فقد عقد المجمع عدة جلسات . وكانت خطب البابا اثناءها تضرب على الوتر الحساس : من اثارة الحماس الديني ، الى تزيين الاستشهاد في سبيل المسيح ، الى الاغراء بمباهج الشرق وخيراته ، الى التشويق نحو امتلاك الاراضي وتكوين

---

١) في الكتب القديمة (كنيسة قمامة) اشهر الكنائس المسيحية على الاطلاق ويعتقد النصارى ان قيامة المسيح عليه السلام تكون منها وقد بنت هذه الكنيسة والدة قسطنطين الاكبر باني مدينة القسطنطينية وقد تم بناء الكنيسة ٣٣٥ م

٢) اوربان الثاني فرنسي الاصل وقد كان راهبا «ربيطا بمدينة كلوني بفرنسا

الامارات . وقد اعلن البابا اعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف ، مظهرا أسفه من أن الظروف لم تساعده على المشاركة بنفسه في هذه الحرب المقدسة . ثم سلّم (صليب الخلاص) الى اسقف مدينة بوي (Puy) (١) ، وجعله نائبا عنه في الزعامة الروحية للحرب الصليبية (٢)

- موعد السفر -

اتفق مجمع كلارمون على أن يكون موعد السفر في ١٥ اوت ١٠٩٦ م (٤٨٩) وان يكون اللقاء بمدينة القسطنطينية . وكان هذا الاجل الطويل ما بين انعقاد المجمع ، وموعد السفر لغرضين : ١) ترقب زمن الصيف ، ٢) التهيؤ للتعبئة ، وزيادة الدعاية للحملة الصليبية .

٢ - مسير حملات الصليبية الاولى

وقبل الموعد المضروب للسفر (٣) ، تكونت كتائب صليبية شعبية على غاية من الفوضى والاضطراب ، لا تخضع لقيادة منظمة ولا هي بمستوفية لشروط القتال ، وأكثرها عزل أو مشاة معهم عيالهم من نساء وأطفال . وكانت هذه الحملة الشعبية بقيادة بطرس الناسك ، فسارت في اضطراب وفوضى ، مخترقة أروبا الوسطى تسلب وتنهب . وقد اشتبكت مع أهالي المدن التي مرت عليها ، خصوصا في بلاد المجر ، ومات منها الكثير . ثم وصلت بقايا هذه الحملة الى القسطنطينية في جويلية ١٠٩٦م ٤٨٩هـ وهال الامبراطور البيزنطي ما عليه هؤلاء الصليبيون من الفوضى والاضطراب ، وخشي منهم على عاصمته فأسرع بنقلهم على المراكب الى الضفة الشرقية للبسفور وبحر مرمرة . وما ان علم السلطان قليج ارسلان السلجوقي

---

١) مدينة فرنسية باعلى نهر لالواو

٢) نظر لاتخاذ الصليب شعارا في هذه الحروب حيث رسمه الصليبيون على اعلامهم وملابسهم فقد دعيت هذه الحروب بالحروب الصليبية

٣) سافرت هذه الحملة في شهر افريل ١٠٩٦م(٤٨٦هـ) .

بنزول هؤلاء الصليبيين بآسيا الصغرى حتى هب لقتالهم قرب مدينة نيقية ـ عاصمته ـ وابادهم عن آخرهم (١)

وبينما كانت جيوش بطرس الناسك تلاقي حتفها قرب نيقية تحت ضربات السلطان السلجوقي كانت حركة التجهيز الصليبي على قدم وساق في فرنسا وايطاليا من جانب الاقطاعيين ، والامراء . والاشراف، ولما تم التجهيز وحان الموعد سارت الجيوش الصليبية على النظام التالي :

١) حملة من جنوب فرنسا تحت قيادة ريموند دي صنجيل (Raymond de Saint-Gilles) سلكت طريقها من شمال ايطاليا ثم المانيا وكرواطيا وبلغاريا الى القسطنطينية .

٢) حملة من شمال فرنسا تحت قيادة روبارت كورت هوز Robert Courte-Heuse) وروبارت الثاني كونت فلاندر (Robert II, Comte de Flandre) سلكت طريق شمالي ايطاليا ثم سايرت ساحلها الشرقي وأبحرت من برنديسي (٢) (Brindisi) الى ألبانيا ثم مقدونيا الى القسطنطينية .

٣) حملة من أعالي فرانسا (من برابنت Brabant في بلاد الباجيك الحالية) بقيادة قودوفروادي بويون (Codefroi de Bouillon) واخيه بودوين دي بولوني (Baudouin de Boulogne) واخترقت هذه الحملة بلاد المانيا ثم المجر الى القسطنطينية.

٤) حملة من جنوب ايطاليا قام بها النرمان الذين استقروا بجنوب ايطاليا ؛ وأزالوا حكم البيزنطيين منها بقيادة تنكريد (Tancrède) وبوهيموند (Bohémond) ، أمير تارنت . وأبحرت هذه الحملة من مرسى برندسي الى سواحل البانيا . ثم اخترقت ولاية مقدونية الى القسطنطينية . وكانت الجيوش الصليبية كلما مرت بناحية انضم اليها المتطوعون لحماية الصليب ، خصوصا جيش ـ قودوفروا ـ الذي اخترق اروبا الوسطى . فقد انضم اليه الكثير من ألمانيا

---

١) سافرت هذه الحملة في شهر افريل (١٠٩٦م ٤٨٩هـ)

٢) يذكر بعض المؤرخين أن بطرس الناسك مات في هذه المعركة . والبعض يذكر انه لما رأى اضطراب هؤلاء الصليبيين وفوضاهم تركهم ورجع الى القسطنطينية حتى قدمت الحملات الاخرى وسار معها الى انطاكية

والنمسا والمجر ، فتكوّن من مجموع هذه الجيوش الاربعة جمع عظيم العدد ، يشمل مئات الآلاف ، حتى نعته بعضهم بقوله «كانت الجيوش الصليبية عبارة عن شعب كامل يسيرُ» وقالت في شانهم ابنة الامبراطور الكسيس كومنين « يخيل ان أوروبا اقتلعت من أصولها »

لم يصل الصليبيون الى القسطنطينية دفعة واحدة ، وانما وصلوا في فترات متعاقبة نظرا لاختلاف طرقهم طولا وصعوبة .

٣ - من وصول الصليبيين الى القسطنطينية الى احتلال انطاكية

قبل ان يجتمع الصليبيون بالقسطنطينية وقعت لهم عدة احداث مع الامبراطور البيزنطي ؛ فقد كان ألكسيس كومنين يتوجس خيفة من هذا الجيش العرمرم الذي ربما تسول له نفسه الاستيلاء على القسطنطينية نفسها (١) هذا زيادة عن الاحقاد المذهبية التي يحملها نصارى غرب اوروبا ضد نصارى الشرق ولعاصمتهم القسطنطينية باعتبار كنيستها منشقة عن كنيسة رومة . (٢)

كما ان الكسيس كومنين - إذ رأى حملة النرمان من جنوب ايطاليا - لم ينس انه في سنوات (١٠٨٠ - ١٠٨٥م) حاول بوهيمند قائد الحملة إزالة الحكم البيزنطي عن مقدونية مع والده روبير قيسكارد Robert Guiscard . لكل هذا ارتاع الامبراطور البيزنطي وساورته المخاوف وحاول اخذ كبراء الصليبيين رهنا وتوثقة. وكادت الحرب تندلع بين الامبراطور والصليبيين . وبعد مخابرات ومفاهمات انتهى الامر على ان يتعهد الصليبيون للامبراطور - بعد ان اقسموا له يمين الولاء - بارجاع املاكه في آسيا التي افتكها منه السلاجقة ، وهو في مقابلة ذلك يعينهم على قضاء مهمتهم بوسائل النقل والادلاء والجيش .

وكان مما يحزّ في نفوس الصليبيين تلك التعهدات التي ألزمهم بها الامبراطور

---

١) ان ما توجسه الكسيس كومنين قد تحقق في الصليبية الرابعة كما سياتي

٢) من مظاهر الخلاف بين الكنيستين ان البيزنطيين (نصارى الشرق) يحتجون على اللاتين (نصارى الغرب) أنهم أضافوا الى نص العقيدة المسيحية الفاظا تجعل روح القدس صادرا من الاله الاب ، وانهم استعملوا الخبز الفطير في القداس ، وأنهم عكفوا على صيام السبوت وأباحوا لقساوستهم حلق اللحي - فيشر ص ١٧٥

البيزنطي بشأن ارجاع ممتلكاته بآسيا ، لان هذا يخالف رغبات الكثير من زعماء الصليبيين ، الذين كانت تدفعهم الى اقتحام المعارك والاخطار مطامعهم في تكوين الممالك والامارات بالمشرق . ولهذا لم يكن الاتفاق بين الكسيس كومنين والصليبيين الا اتفاقا ظاهريا .

- مسير الصليبية الاولى في آسيا الصغرى

وحسب هذا الاتفاق الظاهري عبرت القوات الصليبية البوسفور ومرمرة . ونزلت بأرض آسيا الصغرى ، وتوجهت الى مدينة نيقية التي كان سلطانها قليج ارسلان (ملك سلاجقة الروم) (١) خارج المدينة في مهمة . وما ان علم قليج ارسلان بتوجه الصليبيين اليها ، ومحاصرتهم لها حتى جمع جيشه وتوجه اليهم وصمد لقتالهم . وامتد حصار نيقية نحو خمسين يوما . ثم انتهى بانتصار الصليبيين ، واحتلال المدينة من طرف القوات البيزنطية التي تفاوضت سريا مع القوات الاسلامية المحصورة ، واستسلمت لها دون علم او مشاورة القوات الصليبية اللاتينية . ولهذا فوجىء الصليبيون بالاعلام البيزنطية ترفرف على اسوار نيقية (جمادي الثانية (٤٩١هـ - ٣٦ جوان ١٠٩٧م) فاغتاظوا لذلك ، واعتبروها خيانة من الامبراطور البيزنطي ، واسروها في انفسهم .

وحسب العهد المقطوع تركت مدينة نيقية وما جاورها للبيزنطيين . وتقدمت الجيوش الصليبية نحو الشرق مخترقة بلاد الاناضول . ودارت بينهم وبين قليج ارسلان معركة كبرى قرب مدينة « دوريلي » (اسكيهشر الحالية) انهزم فيها قليج ارسلان لكثرة عدد الصليبيين . ومن هناك اخذ قليج ارسلان يمثل امام اعدائه (حرب الارض المحترقة) حتى لاقى الصليبيون عناء عظيما من العطش والتعب والجوع ، ومات الكثير منهم ومن دوابهم . وكثيرا ما كان يتخذ البعض منهم الكلاب والخنازير والمعزى لحمل الامتعة والاذباش .

---

١) سلاجقة الروم هم الذين استقروا بآسيا الصغرى واستقلوا بعد انحلال الامبراطورية السلجوقية العظمى وكانت عاصمتهم الاولى نيقية وبعد الصليبية الاولى اصبحت عاصمتهم قونية وهذه السلطنة هي اطول دول السلاجقة المنفصلة عمرا اذ بقيت قائمة الذات الى سنة ٦٩٩ هـ وعلى انقاض هذه الدولة انبعثت الدولة العثمانية في بلاد الاناضول

وتابع الصليبيون طريقهم في اتجاه مدينة قونية ثم اخترقوا سلسلة جبال طوروس الوعرة . ولما وصلوا الى ارمينية الصغرى (ولاية اطنة الحالية) وجدوا مساعدات كبرى من طرف الارمن حيث فتحوا لهم ابواب المدن (١) واصبحوا لهم اعوانا . ومن هنالك توجهوا الى انطاكية وناصبوها الحصار .

حصار انطاكية واحتلالها

كانت مدينة أنطاكية وماجاورها تحت حكم ياغيسيان السلجوقي ، الذي ما ان علم بوصول الصليبيين حتى استعد لذلك وتحصن . وكانت مدينة انطاكية ذات ابراج وحصون كثيرة ومنيعة .

وصل الصليبيون الى انطاكية (٢٠ اكتوبر ١٠٩٧ م - ٤٩١ هـ) وشرعوا في محاصرتها ، ولاقوا أثناء هذا الحصار كل هول وتعب ؛ لان الحصار استمر من أكتوبر سنة ١٠٩٧ م الى جوان ١٠٩٨ م . وأظهر الصليبيون اثناء هذا الحصار كل انواع الرذائل، ونالهم البرد والجوع والتعب ، وفتكت بهم الامراض حتى مل الكثير منهم الحصار ، وضعفت عزائمهم .

وحاول المسلمون نجدة انطاكية ، وفك حصارها ولكن دون نتيجة : حاول ذلك الامير رضوان صاحب حلب كما حاول قبله دقاق امير دمشق . وجاءت نجدة من سلطان إيران السلجوقي ولكن بعد فوات الوقت .

أما الفاطميون بمصر ، فقد جعلوا من هذا الحصار ، واشتغال أمراء السلاجقة به ، فرصة ينتهزونها لافتكاك بيت المقدس من ايدي السلاجقة . وبعث الخليفة الفاطمي - المستعلي بالله - وفدا الى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة ، وتأمين اماكنهم المقدسة وحماية الحجاج النصارى الى بيت المقدس ؛ ولكن الصليبيين لم يجيبوه الى ذلك ، واستمروا في محاصرتهم لانطاكية بدون ان يتمكنوا من احتلالها ، الى أن وقعت خيانة من أحد حراس الابراج الاسلامية (هو فيروز الارمني (٢) فدخل الصليبيون انطاكية وعاثوا فيها فسادا وأباحوها أياما . ثم جاء عماد الدين كربوغا صاحب الموصل الى انطاكية بعد احتلالها وحاصر الصليبيين . واجتمع معه عدد من أمراء السلاجقة . واشتد الضيق على المحصورين وكادوا يستسلمون الا ان سوء سيرة كربوغا مع بقية القواد السلاجقة، وعدم تبادل الثقة بينهم جعل

---

١) مثل مدن ليكاونيا - هيرقله - قيسارية - تيانا - فوزقون - مرعش

٢) كان فيروز الارمني حارسا لبرج الاختين فتفاوض سريا مع بوهيمند وسلم اليه البرج . وكانت هذه الخيانة الكبرى هي السبب في نجاح الصليبيين .

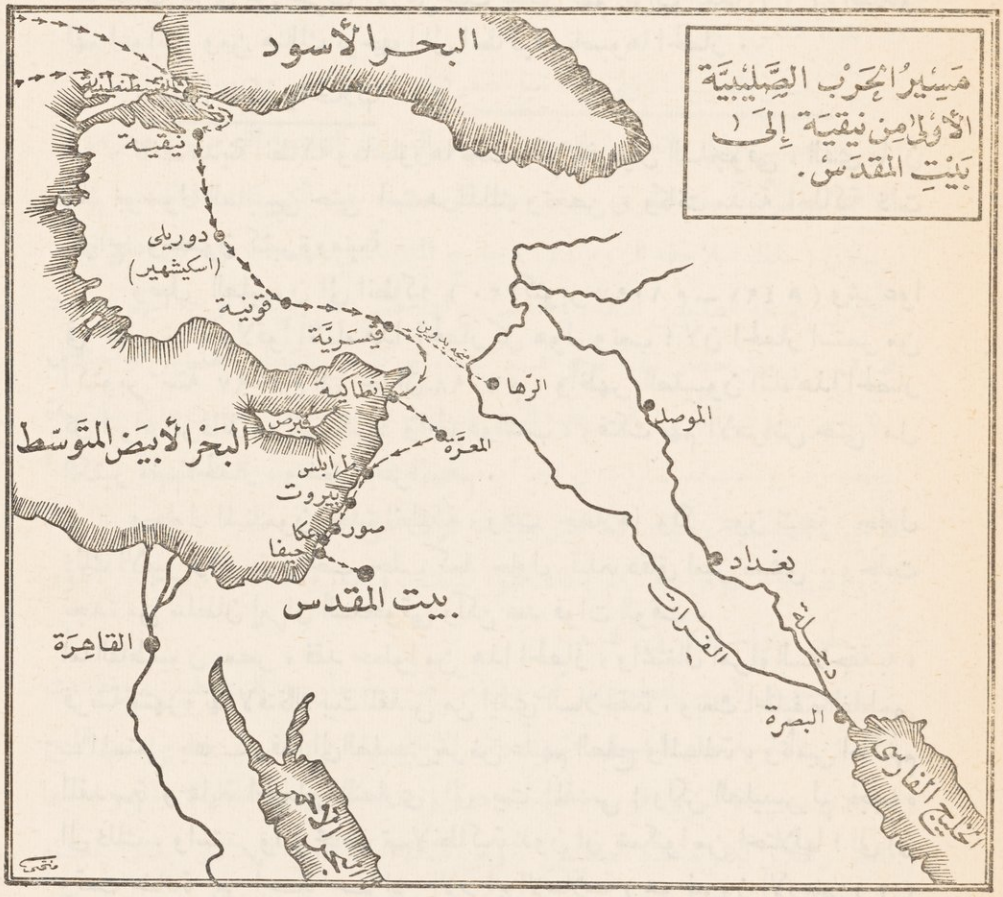

الحروب الصليبية خريطة عدد (٣)

النجدة تبوء بالفشل ؛ فتقهقرت القوات الاسلامية وفـكّ الحصار عن انطاكية وبذلك استقرت انطاكية للصليبيين . وانتصب بوهيموند النرماني اميرا عليها .

اما بقية الصليبيين فانهم اتجهوا الى بيت المقدس بعد ان استراحوا واستجمعوا قواهم .

٤) احتلال بيت المقدس وتكوين الامارات الصليبيـة

توجه الصليبيون نحو بيت المقدس في شهر جانفي ١٠٩٩ م ، وفي منتصف جوان وصلوا اليها وناصبوها الحصار . وكانت مدينة القدس قد أصبحت تحت سلطة الفاطميين كما تقدم. وكان واليها الفاطمي هو افتخار الدولة ، الذي فاجأته القوات الصليبية بزعـامة قودفـروا دي بويـون . وكان لضعف الخلافة الفاطميه ، وتضعضع معنويات جيوشها اكبر الاثر في الاسراع بسقوط بيت المقدس واحتلالها من طرف الصليبيين . اذ بعد شهر واحد من بدء الحصار (في الخامس عشر من شهر جويلية وشعبان ١٠٩٩ م ٤٩٢ هـ) تمكـن الصليبيون من اقتحـام الاسـوار واحتلال المدينة، مرتكبين اشنع الاعمال وافظعها. وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفا ، كما أن اليهود نالهم التقتيل والاحراق والتعذيب (١)

وباحتلال بيت المقدس حقق الصليبيون غرضهم العام من هذه الحرب ألا وهو استخلاص بيت المقدس، وافتكاكها من ايدي المسلمين، وقد تكبدوا في سبيل ذلك الخسائرَ الباهضة من الانفس ، بلغت عدة مئات من الالاف .

وبقدر ما فرح الصليبيون بهذا النصر بقدر ما استاء المجتمع الاسلامي وشعوبه. اما ملوكه وامراؤه فقد الهتهم الخلافات والانقسامات واصمّت آذانهم عما يقع بعقر الديار الاسلامية وقبلتهم الاولى .

---

١) كان احتلال الصليبيين لبيت المقدس يوم الجمعة بعد الزوال ، فاستبشروا بذلك خيرا اذ صادف نفس الساعة ونفس اليوم الذي رفع فيه السيد المسيح عليه السلام

ويصف لنا ابن الاثير مظهر استياء المجتمع الاسلامي قائلا : « وورد المستنفرون من الشام في رمضان الى بغداد صحبة القاضي ابى سعد الهروي ، فاوردوا في الديوان كلاما ابكى العيون واوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا مادهم المسلمين من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال فلشدة ما اصابهم افطروا » . وتأثر الخليفة العباسي -المستظهر- كما تأثر عامة الشعب ، ولم يكن له حول ولا طول . إنما الامر بيد ملوك السلاجقة المتنازعين المتحاربين واكتفى الخليفة

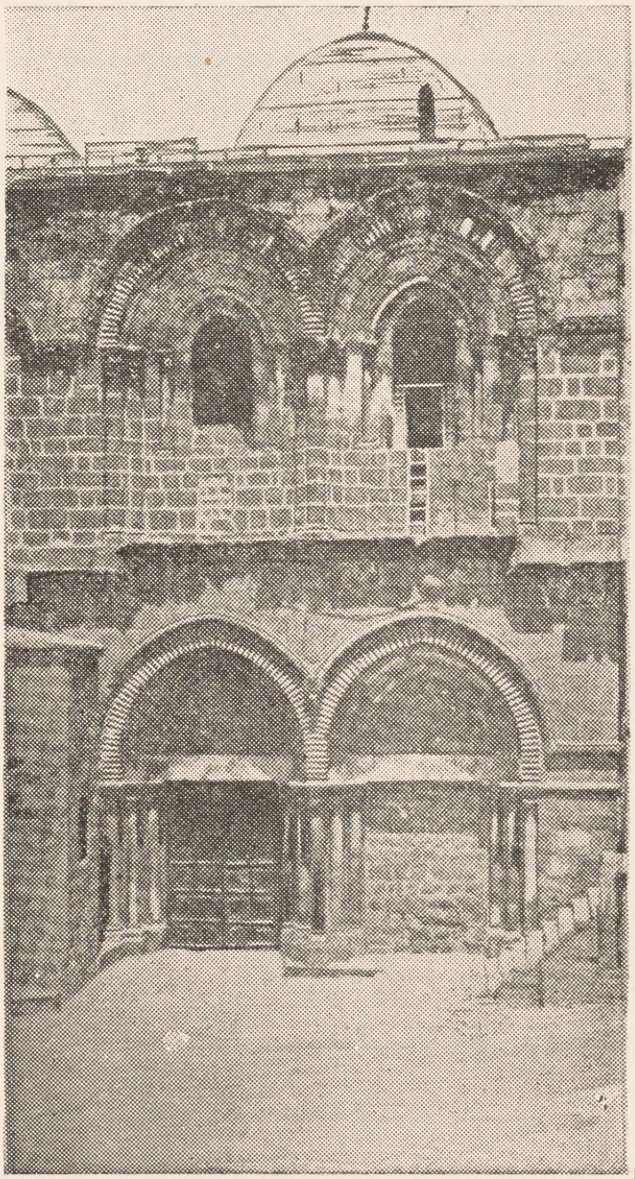

(كنيسة القيامة بالقدس)

العباسي بارسال وفد الى امراء السلاجقة يستنفرهم ، فرجع الوفد خائبا حسيرا.

وحاول الفاطميون برئاسة الافضل امير الجيوش مهاجمة الصليبيين ببيت المقدس ، ولكنّ الصليبيين استعدوا لذلك ، وبادروهم بالقتال - قرب عسقلان - فانهزم الجيش الفاطمي ، وعاد الافضل الى مصر. وتقدم الصليبيون الى عسقلان وحاصروها. ثم رفعوا عنها الحصار بعد ان بُذل لهم مال كثير .

وبانهزام المصريين ايقن الصليبيون بضعف القوات الاسلامية المشتتة . ولهذا قرر كثير منهم الرجوع الى اوطانهم بعد ان استقر الرأي على تكوين مملكة لاتينية ببيت المقدس. واختير لرئاستها قودوفروا (Godefroi) الا انه ابى ان يلقّب بلقب ملك . واكتفى بلقب (حامي قبر المسيح)

ومنذ احتلال بيت المقدس ، واستقرار الصليبيين فيها ، اخذت الامدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها ، ولاتمام احتلال بقية السواحل الشامية.

كيف تكونت الامارات الصليبية :

بعد ان تمكن الصليبيون من النجاح في مأموريتهم ، امكن لهم احتلال جميع السواحل الشامية من بعد. واصبحت لهم عدة امارات ، هي التي عرفت بالامارات اللاتينية او الممالك الصليبية وهي هذه :

أ) امارة الرها

كونها بودوين دوبولونى (١) سنة (٤٩٢هـ ١٠٩٨م) وكانت كيفية تكوينها ان صاحب الرها الارمنى بعث الى الصليبيين مستنصرا بهم ، فلبى دعوته بودوين المذكور. ثم غدر به هذا الاخير إذ كون مؤامرة ضده حتى قُتل. وانتصب بودوين ملكا على الرها وما حولها . واستمرت هذه الامارة الى ان ازالها آل زنكي (٥٣٩هـ ١١٤٤م)

---

١) في ١٨ جويلية ١١٠٠ م توفي قودوفروا فوقع الاتفاق ببيت المقدس على ان يدعى اخوه بودوين هذا فغادر الرها وانتصب ملكا على مملكة المقدس تحت اسم بودوين الاول . ويذكر في المصادر العربية القديمة باسم « بلدوين او بغدوين »

ب) امـارة انـطـاكيـة

كـوّن هذه الامارة الامير النرمانى بوهيموند واستقل بها ، مستندا على ان احتلالها إنما وقع على يديه نتيجةً للمؤامرات التى دبرها مع فيروز الارمنى . وقد استمرت هذه الامارات قائمة الذات الى سنة (٦٦٧هـ ١٢٦٨م)

ج) مملكة بيت المقدس

كانت مملكة بيت المقدس هى اعظم الامارات الصليبية . ولهذا كان متوليها يلقب بلقب ملك اما بقية الامارات فهى تتبع مملكة بيت المقدس، وان كانت تبعية لا اثر لها في الواقع . وكانت هذه المملكة اعظمها شأنـا ، واوسعهـا رقعة ، اذ امتدت حدودها في اقصى اتساعها من شمال بيروت الى جنـوب عسقلان . كما كانت تشمل جميع الاراضى المحصورة بين نهر الاردن والبحر الابيض المتوسط . كما شمل نفوذها الضفة الشرقية للاردن والبحر الميت ووصلت الى خليج العقبة . وكانت هذه المنطقة الواقعة شرقى الاردن تعرف بامـارة الكرك، ومن حصونهـا الكَـرَك والشَـوْبَك . واستمرت مملكة بيت المقدس في اتساعها الى ان جاء صلاح الدين الايوبى فانكمشت على ساحل البحر في مساحة صغيرة ، متخذة من مدينة « عكـا » عاصمة لها .

د) امارة طرابلـس

تكونت سنة (٤٩٦هـ ١١٠٢م) واستمرت الى (٦٨٨هـ ١٢٨٩م)

ـ موقع الامارات الصليبية ومـدى استقرارهـا .

لم تكن هذه الامارات اللاتينية مستقرّة الحـال ، ولا هي قويـة العـدد والعُدة . ولم يمنع من الاسراع بازالتها إلا تضعضع القوات الاسلامية ، وتفرقها ، وانحلالها ، فالصليبيون ـ وان استطاعوا احتلال جميع السواحل الشامية ـ الا انهم لم يستطيعوا التوغل والتقدم داخل البلاد الشامية. وبقيت القوات الاسلامية تحيط

بها من الشمال (سلاجقة قونية) ومن الشرق (قوات السلاجقة والاتابكة في دمشق - حمص - حماه - حلب - الموصل) ومن الجنوب الدولة الفاطمية .

ولم يكن للصليبيين جهة خالية من القوات الاسلامية الا الجهة الغربية (سواحل البحر الابيض المتوسط) ولذا كان الصليبيون يتوجسون خيفة من هذا الوضع الحرج ، ويتوقعون إلقاءهم في البحر يوما مّا متى انبعثت نهضة اسلامية فتية . وكان صحيحا ما قدره الصليبيون ، فقد استمروا متحَدّين للمجتمع الاسلامي ، مدخلين عليه الرعب والفزع ، منتهزين ضعفه وانحلاله ، الى ان انبعثت نهضة آل زنكي وآل ايوب فبدأ رد الفعل الاسلامي ، وبدأت كفة المسلمين ترجح على كفة الصليبيين .

مُلحقات الفصل الثالث

١) الخلاصة

في سنة ٤٨٦هـ زار بيت المقدس الراهب الفرنسي - بطرس الناسك - ولما رجع اجتمع بالبابا ، واتفق معه على ان يكون داعية للحروب الصليبية ، اما البابا فانه عقد اولا مجمع بليزانس بشمالي ايطاليا. ثم عقد مجمع كليرمون بفرنسا وهو الذي قررت فيه الحرب الصليبية .

واتفق الصليبيون على ان يكون لقاؤهم بمدينة القسطنطينية . وسارت حملة أُولى في غاية الفوضى والاضطراب . ولما عبرت الى آسيا الصغرى التقى بها قليج ارسلان السلجوقي قرب مدينة نيقية فابادها عن آخرها . ثم قدمت الجيوش الصليبية الاخرى التي نظمها الاقطاعيون والامراء : جاءت من جنوب فرنسا وشماليها واعاليها (بلجيكا اليوم) ومن جنوب ايطاليا . واجتمعوا كلهم في القسطنطينية . ولما عبروا الى آسيا الصغرى اعترضهم قليج ارسلان فجرت له معهم معارك كبرى . ثم تقدموا الى انطاكية . وبعد حصار دام اكثر من ثمانية اشهر استولوا عليها . ثم سار الصليبيون في اتجاههم الى بيت المقدس ، واحتلوها بعد

شهر من حصارها (١٠٩٩م - ٤٩٢هـ) وفعلوا فيها ما تأباه الاديان والانسانية. وبذلك استقر الصليبيون في البلاد الشامية . واسسوا على السواحل الشامية عدة امارات ، امتدت من خليج الاسكندرونة الى عسقلان . ومن خليج العقبة الى شمالي الرها .

٢) أرقام تاريخية

٤٨٨هـ - ١٠٩٥م - انعقد مجمع كليرمون المسيحي ، وقررت فيه الحرب الصليبية
٤٩١هـ - ١٠٩٧م محاصرة انطاكية من طرف الصليبيين .
٤٩٢هـ - ١٠٩٩م - احتلال بيت المقدس من طرف الصليبيين .

٣ - من أسباب نجاح الصليبية الاولى

كان من اهم اسباب نجاح الصليبيين في احتلالهم للبلاد الشامية ما كان عليه المجتمع الاسلامي ورؤساؤه من الانحلال والتدابر ، فقد كان النزاع سائدا في مجموع المشرق الاسلامي ، اذ كان فاقدا للزعيم الذي يقوده لصد اي عدو يهاجمه وقد سجلت المصادر الادبية والتاريخية صورا محزنة من التدابر والتخاذل كان يتخبط فيها المشرق الاسلامي ، بينما العدو ينتزع المدينة بعد الاخرى . ولهذا نرى كثيرا من مؤرخي تلك العصور يشيرون الى تلك الحالة بين حين وآخر بمثل هذه الفقرات :

١) بينما الافرنج يحاصرون ويحتلون القدس كان محمد بن ملكشاه يحارب اخاه لابيه بركياروق .

٢) ملك الافرنج عكا من واليها العلوي ..... هذا وملوك الشام مشتغلون بقتال بعضهم بعضا.

٣) توجه فخر الملك ابو علي بن عمار من طرابلس الى بغداد مستنفرا لما حل بطرابلس وبالشام من الافرنج . واجتمع بالخليفة المستظهر وبالسلطان محمود ، فلم يحصل منهما غرض ..... وتم للافرنج الاستيلاء عليها .

٤) - بعد حديث عن القدس - .. ووصل المستنفرون الى بغداد في رمضان فاجتمع اهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا ، حتى انهم افطروا من عظم ما جرى عليهم . ووقع الخلاف بين السلاطين السلجوقية فتمكن الفرنج من البلاد

- « النقول عن ابن الاثير - ابي الفداء - ابن الوردي »

ولعل من ابلغ ما يصور اهتزاز المجتمع الاسلامي ، وتقمته على ملوكه ورؤسائه ، تلك القصيدة الطويلة التي قالها الابيوردي (١) بعد احتلال القدس من طرف الصليبيين . وهذه ابيات منها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... ولم يبق منا عرضة للمحارم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل امن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم !
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات ايقظت كل نائم ؟
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي ، او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان ، وانتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
ارى امتي لا يشرعون الى العدى ... رماحهم ، والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى ... ويغضى على ذل كماة الاعاجم ؟
فليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة (بالمحارم)
وان زهدوا في الاجر إذ حمس الوغى ... فهلا أتوه رغبة في الغنائم ؟
دعوناكم ، والحرب ترنو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان انتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا الى اعدائنا بالجرائم

(ابن الاثير باختصار - ج ٨ - ص ١٨٩ - مطبعة الاستقامة)

تمرينات

١) ما هي الخطوات التي خطتها البابوية حتى نجحت في إعلان الحروب الصليبية ؟
٢) ما الذي جعل مجمع بليزانس يبوء بالفشل ؟ ٣) كيف كانت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين ؟ ٤) موقف القوات الاسلامية في حصار انطاكية
٥) عدد أهم أسباب نجاح الصليبية الاولى ٦) ما الذي تستفيده من قصيدة الابيوردي ؟
٧) لماذا كانت الامارات الصليبية في موقع حرج ؟ ٨) ارسم خريطة الامارات الصليبية

---

١) ابو المظفر محمد بن أحمد ، ينتهي نسبه الى بني أمية - توفي بأصبهان سنة ٥٠٧ هـ وولد بأبيورد فنسب اليها ، له تآليف وشعر (وفيات الاعيان - ج ٤ ص ٧١)

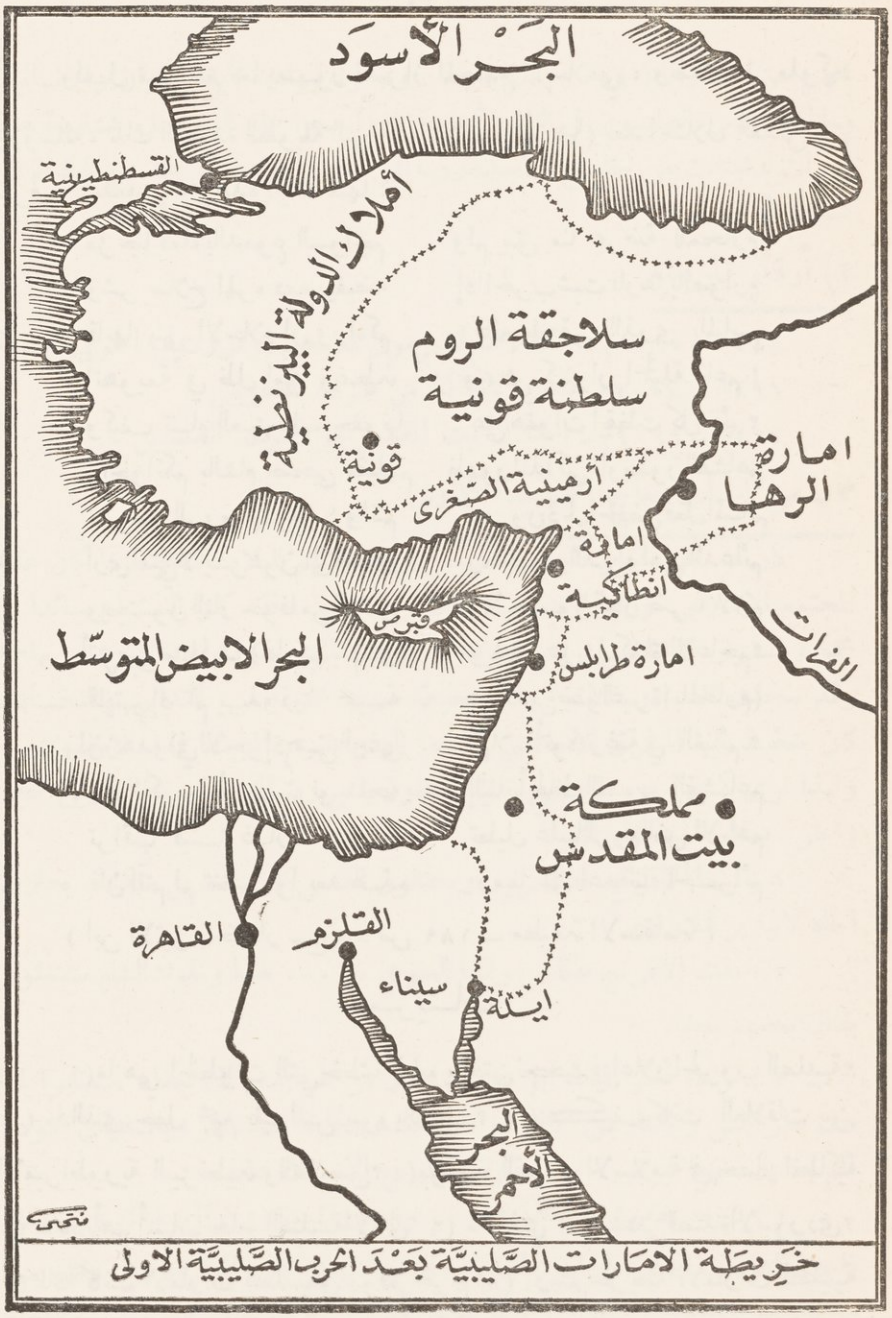

خريطة الامارات الصليبية بعد الحرب الصليبية الاولى

الحروب الصليبية خريطة عدد (٤)

الفصل الرابع

نهضة آل زنكي - الصليبية الثانية

١) نهضة آل زنكي
٢) الحرب الصليبية الثانية
٣) النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين

١ - نهضة آل زنكي

كانت الحالة الاجتماعية والسياسية بالمشرق الاسلامي من أعظم الاسباب التي ساعدت الصليبيين على نجاحهم في الحملة الصليبية الاولى ، وتكوين الامارات اللاتينية . وكانت المنافسات الداخلية في الامبراطورية السلجوقية ، والمنازعات والقتال بين ورثة هذا الملك العظيم اكبر معين على استقرار الصليبيين بالبلاد الشامية ، وتطاولهم على الممالك الاسلامية ، وادخالهم الرعب والفزع على المجتمع الاسلامي بينما الملوك والامراء والقواد يتحاسدون ، ويقتتلون ، ويخذل بعضهم بعضا ؛ فكانت هذه الحال السيئة : من فقد الوازع الديني ، ومن التفسخ الاخلاقي ، والانحلال الاجتماعي ، تتطلب نهضة صالحة ، وقائدا منقذا يتبعه الامن الاجتماعي ، والضرب على ايدي الظلمة والمفسدين . ثم محو هذا العار الذي التصق بالجموع الاسلامية ، عار استقرار الصليبيين بعقر ديار الاسلام .

واستمرت هذه الحالة السيئة الى ما بعد استقرار الصليبيين ، حتى قيض الله رجالا مصلحين عملوا على إزالة تلك العلل قدر المستطاع ، وقد بدأت هذه الحركة الاصلاحية بنهضة آل زنكي ، التي تمخضت عن نهضة آل ايوب .

بيت آل زنكي

آل زنكي عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان ملكشاه السلجوقي .

وهو قسيم (١) الدولة آقسنقر. كان من مماليك واصحاب « ملكشاه »وتربّى معه منذ الصغر ، فلما تولى ملكشاه السلطنة اتخذ آقسنقر من قواده وأمرائه ، اذ كانت تبدو عليه علامات الكفاءة والقيادة والاستقامة. وباشارة من الوزير نظام الملك ولي آقسنقر مدينة حلب من قبل السلطان ملكشاه . فاستمر واليا عليها الى ان جرت بينه وبين تاج الدولة ، تتش بن ألب أرسلان ، معارك انتهت بقتله سنة ٤٨٧هـ ولم يترك آقسنقر الا ولدا صغيرا له من العمر عشر سنوات (عماد الدين)

- عماد الدين زنكي - الاتابك (٢)

قضى الطفل عماد الدين زنكي حياته الاولى تحت اوصيائه واصدقاء ابيه . ومن ابرز هؤلاء عماد الدين كربوغا صاحب الموصل . وشارك - وهو شاب - في بعض المعارك والمناوشات التي كانت تثار ضد الامارات الصليبية، فكانت تبدو منه البراعة والشجاعة . واسترعى انتباه السلاجقة والخليفة العباسي فأقطع سنة ٥١٦هـ مدينة واسط وشحنكية البصرة(٣). وفي سنة ٥١٩هـ اعطيت له شحنكية بغداد والعراق. وفي سنة ٥٢١هـ نال الولاية على الموصل . وهنا أُفسح المجال امام هذا البطل ليظهر نبوغه ، ويقوم بنهضته الاصلاحية.

كان عماد الدين زنكي ذا همة عالية ، لا مطمع له الا تكوين مملكة إسلامية موحدة تقوى على مجابهة الصليبيين ، وإبعاد خطرهم ، وإزالة نفوذهم . وكانت سياسته مبنية على بث الامن والعدالة الاجتماعية داخليا ، وعلى توسيع مملكته وتنظيمها خارجيا . وكان من عدله ونظامه ان شاع ذكره ، واشتهر صيته . وبعثت اليه المدن تستنجد به ضد ظلم حكامها وسوء سيرتهم. وصادف ذلك هوى في نفس عماد الدين ، فاخذ يحتل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية وديار بكر

---

١) عرفه صاحب وفيات الاعيان بقوله : ابو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب ؛ جد البيت الاتابكي اصحاب الموصل ج ١ ص ٢٧١

٢) اتابك لفظ يطلق على مربي اولاد الملوك وعماد الدين زنكي نال هذا اللقب لان السلطان محمود السلجوقي سلم اليه ولديه (الب ارسلان وفروخ شاه) لتربيتهما فاستحق هذا اللقب (عن وفيات الاعيان لابن خلكان). وقد شاعت هذه الكلمة في هذا العصر وكون اصحابها دولا وامارات عرفت بدول الاتابكة

٣) صاحب شرطتها

وغربي الفرات . ولم يمض زمن حتى اصبحت دولته تشمل الجزيرة الفراتية واعالي الفرات وحمص وحماة وحلب وبعلبك ومعرة النعمان . كما افتك عدة حصون من الصليبيين، اذ اصبح يتاخمهم في كثير من الجهات ولم يبق خارجا عنه من البلاد الشامية الا دمشق وما حولها ، والممتلكات الصليبية ، فكانت مملكة دمشق والممالك الصليبية هي الاعداء الرئيسية لعماد الدين زنكي.

فتح الرها (١)

واعظم ما سجله عماد الدين زنكي هو فتحه لمدينة الرها ، وانتصاره على اميرها جوسلين الثاني سنة (٥٣٩ هـ - ١١٤٤) ، فأزال بذلك اول إمارة صليبية من حيث تكوينها ، ومن حيث امتدادها بالمشرق الاسلامي . وكان للرها ما يقرب مما لبيت المقدس من القداسة في اخيلة العالم المسيحي ، ولانها تمت بأصولها الى المسيحية الاولى وهي أول الدول الصليبية وترس الصليبيين من ناحية الشرق (٢)

واستمر عماد الدين زنكي في اعماله الجهادية والاصلاحية الى سنة (٥٤١ هـ - ١١٤٦ م) - فعندما ذهب الى محاصرة قلعة جعبر (٣) (على الضفة اليسرى من الفرات الاوسط) ، وبينما كان محاصرا لهذه القلعة ، اغتاله - وهو نائم - جماعة من مماليكه بتحريض من اعدائه؛ فاثخنوه جراحا مات بعدها بقليل.

وهكذا انتهت حياة هذا البطل الشهيد بعد « ان سار العدل في أيامه ، واطمأن الناس الى سلامتهم الشخصية بعد ان اتى على تلك البلاد حين من الدهر عدم فيه الناس الثقة والامن » (٤) هذا زيادة عن محبته للعلم والعلماء ، وإجرائه المصالح العامة وتامن السبل وترفيه العيش والتيسير على الناس في الضرائب .

---

١) الرها او الاديسة هي مدينة اورفا الحالية بشرق تركية شرقي الفرات سمت خليج الاسكندرونة ولها حرمة عند النصارى لكثرة ما فيها من الاديرة والكنائس ويقال ان بكنيستها العظمى منديل المسيح عليه السلام . كما بها معالم اسلامية جليلة منها جامع ينسب للخليل عليه السلام ومقام لايوب الصديق واضرحة لجابر الانصاري وابي عبيدة بن الجراح - وبديع الزمان الهمذاني - انظر عنها معجم البلدان ودائرة المعارف الاسلامية

٢) فيشر ص ١٨٥ (تاريخ اوربا في العصور الوسطى) قسم ١

٣) كانت قلعة جعبر بحوز بني عقيل

٤) بروكلمان ج ٢ ص ٢١٩ الترجمة العربية (تاريخ الشعوب الاسلامية)

نور الدين محمود زنكي

لما توفي عماد الدين زنكي ترك عدة ابناء اكبرهم سيف الدين غازي ونور الدين محمود ، فاقتسم الاخوان المملكة بينهما : القسم الشرقي لسيف الدين غازي ، عاصمته الموصل ، والقسم الغربي لنور الدين محمود ، عاصمته حلب . وكانت مملكة نور الدين محمود بهذا الوضع هي المتاخمة للممالك الصليبية ، مما جعل نور الدين محمود يقوم معهم بصراع عنيف دام طول حياته ؛ فقدر له بذلك ان يكون من اعظم ابطال الاسلام مقاومة للصليبيين .

ولقد كان حُسْن النية ما بين الاخوين (سيف الدين غازي ونور الدين محمود) خير ضمان لعدم الشقاق بينهما . فلم تؤثر عليهما الاغراض والمنافسات كما اثرت على غيرهما من ورثة الممالك والامارات .

وكان اعداء عماد الدين زنكي قد انتهزوا فرصة موته فانقض جوسلين الثاني على مدينة الرها واسترجعها وعاث فيها ، وانقض صاحب دمشق على بعلبك وكان الوالي عليها اذذاك ، من قبل عماد الدين زنكي ، القائد ايوب بن شاذي ، فالتحق بصاحب دمشق واصبح من قواده .

كانت حركة هذا الانقضاض خير ما عجم به عود نور الدين محمود بعد موت ابيه . ولهذا فما ان سمع بتوجه جوسلين الثاني الى الرها حتى توجه اليه من حلب في عشرة الاف فارس واسترجعها منه . وفر جوسلين بعد ان مكث فيها نحو اسبوع فقط (٥٤١ هـ في جمادى الثانية - وفي نوفمبر ١١٤٦م) وادب نور الدين اهل الرها المنتقضين . ثم اخذ يوسع مملكته على حساب الصليبيين ، ففتح عدة حصون ومعاقل من اهمها حصون : ارتاح - باراة - بصرفوت - كفرلاثا . وبينما كان نور الدين محمود في عمله هذا كانت الاخبار قد وصلت الى اوربا مستنجدة مستصرخة ، فأخذت اوربا المسيحية تستعد لحرب صليبية اخرى .

٢) الحرب الصليبية الثانية

يرجع سبب إثارة الحرب الصليبية الثانية الى احتلال الرها من طرف عماد الدين

زنكي ، ثم الى استرجاعها مرة ثانية من طرف ابنه نور الدين محمود ومعاقبته لاهلها، فقد كان هذا هو السبب الاصلي للحرب الصليبية، نظرا لما لهذه المدينة من الحرمة والقداسة عند المسيحيين ؛ ونظرا لهذه الوثبة الاسلامية الجديدة ، التى جعلت الامارات الصليبية تستهدف لخطر داهم .

وكان الداعى المحرض لهذه الصليبية راهبا فرنسيا اسمه سان برنارد (Saint Bernard de Clairvaux) وكان البابا اذ ذاك اوجان الثالث (١) (Eugène III) وعُقِدَ مجمع كنسي في مدينة فيزولاي (٢) (Vézelay) (مارس ١١٤٦ - ٥٤٠هـ) واستجاب لذلك ملك فرنسا لويز السابع (Louis VII) وامبراطور المانيا كونراد الثالث (Conrad III) وسارت الجيوش الصليبية سالكة اروبا الوسطى حتى وصلت القسطنطينية (اكتوبر - نوفمبر ١١٤٧ م - ٥٤٢هـ) . ولم تكن علاقات الصليبيين مع الامبراطور البيزنطى (عمانويل) (Emmanuel) حسنة . ولهذا سرعان ما توجه الصليبيون الى آسيا الصغرى .

اما كنراد الثالث فقد سلك الطريق الذي سلكته الحرب الصليبية الاولى ، فاصطدم مع سلاجقة قونية قرب إسكيشهر ، واجبروه على التراجع الى نيقية ومنها الى القسطنطينية حيث امتطى سفنا نقلته الى بيت المقدس على طريق البحر . واما لويز السابع - ملك فرنسا - فقد سلك الطريق الساحلي لبلاد الاناضول تجنبا لملاقاة السلاجقة . ولكن رغم ذلك فقد التقت به الجيوش الاسلامية السلجوقية وفتكت به (جانفى ١١٤٨ م - ٥٤٢هـ) في جهة بيسدي (٣) Pisidie . ولما وصل الى ميناء اطالية (٤) اكترى من واليها البيزنطي مراكب نقلته مع حاشيته والبعض من جيشه الى انطاكية . وهنالك اجتمع بصاحب انطاكية ريموند (Raymond de Poitiers) (٥) وكان من رأي هذا الاخير ان تقع محاربة نور الدين محمود ؛ لانه يمثل الخطر الحقيقي ضد الامارات الصليبيه . ولكن لويز السابع امتنع من ذلك ، مفضلا زيارة

---

١) تولى البابوية مدة «١١٤٥م ١١٥٣م» ٢) مدينة فرنسية في مقاطعة آفالون Avallon الحالية ٣) الجانب الغربي من ولاية قونية اليوم ٤) اهم مدن خليج اطالية Adalia ٥) كان صاحب انطاكية ابن اخي زوجة لويز السابع .

المقدس قبل كل شيء . واحتدم الخلاف بينهما حتى خرج لويز السابع مغاضبا متجها الى بيت المقدس ، حيث كان ينتظره امبراطور المانيا . وفي بيت المقدس تداول الراي : امبراطور المانيا ولويز السابع وملك بيت المقدس ، فاستقر امرهم على ان يتوجهوا الى مدينة دمشق ويحتلوها ، رغم ان صاحبها يعتبر حليفا للصليبيين ، ومن انصارهم ضد آل زنكي . وعلى هذا القرار سارت القوات الصليبية الى دمشق وناصبتها الحصار . ولكن هذا الحصار لم يستمر إلا نحو خمسة ايام إذ دب الخلاف بين القادة الصليبيين ، وهُدِدُوا بقدوم سيف الدين غازي ونور الدين محمود . كما ان الدماشقة ساوموا مملكة بيت المقدس بتسليم حصن بانياس اذا رُفع الحصار عن دمشق . وهكذا انتهى الامر برفع الحصار عن دمشق (٥٤٣هـ ١١٤٨م) وانتهت الحرب الصليبية الثانية بهذا الفشل الذريع والخيبة المرة ، مما انعش المجتمع الاسلامي ، وقوى من معنوياته . وقد كان من اهم اسباب هذه الخيبة تلك الغلطة السياسية التي ارتكبها الصليبيون عند ما توجهوا الى حليفتهم دمشق ، وناصبوها الحصار .

بقية اعمال نور الدين محمود

كان نور الدين محمود متبعا لخطة ابيه (عماد الدين زنكي)، عاملا على ايجاد وحدة اسلامية قوية ، يستطيع بها التغلب على الصليبيين . وما فتىء نور الدين يحارب اعداءه ويوسع دائرة ملكه على حساب هؤلاء الاعداء من صليبيين ودماشقة؛ فاخذ يفتح الحصون والقلاع وتغلب على صاحب انطاكية (ريموند) وقتله (جويلية ١١٤٩م صفر ٥٤٤هـ) . كما تغلب على جوسلين الثاني ، واحتل الكثير من حصونه وقلاعه الواقعة شمالي حلب ، منها عين تاب - عزاز - حصن البارة - تل خالد - كفرلاثا - كفرسوب - دلوك - مرعش - نهر الجوز - برج الرصاص (١) وهكذا لم يمض قليل حتى اصبحت املاك إمارة الرها وغالب املاك انطاكية ، خصوصا ما كان منها شرقي نهر العاصي (٢) خاضعة لسيادة نور الدين محمود .

---

١) عن كتاب الروضتين

٢) هو نهر عيسى ، وتسميه الافرنج نهر L'Orante

احتلال الصليبيين لعسقلان ، واحتلال نورالدين محمود لدمشق :

كانت المملكة المصرية في هذا الزمن على غاية من الفوضى والاضطراب . وأمام هذه الحالة السيئة اتجهت إليها أنظار الصليبيين ، خصوصا مملكة بيت المقدس التي استغلت هذا الضعف والفوضى ، فتوجهت جيوشها الى مدينة عسقلان واحتلتها سنة (٥٤٨هـ - ١١٥٣م). وكانت عسقلان هي آخر ما بقي للفواطم بالبلاد الشامية. أما نور الدين محمود فقد أخذ منه هذا الامر مأخذا عظيما ، سيما وهو لايستطيع إنجاد عسقلان ما دامت مملكة (١) دمشق تحول بينه وبينها ، ولما كانت تظْهِرُه هذه المملكة من التقرب الى الصليبيين والخضوع لهم . لهذا وغيره عزم نورالدين محمود على فتح دمشق واحتلالها قبل أن يحتلها الصليبيون . وقد ساعده على هذا العزم وجود حزب يناصره في دمشق يتزعمه القائد أيوب بن شاذي ، وسار نور الدين إلى دمشق ، وسرعان ما استسلمت اليه المدينة وفتحت أبوابها (في صفر ٥٤٩هـ - ١١٥٤م) وبذلك ضم نور الدين جميع البلاد الشامية الاسلامية. ثم عيّن نور الدين محمود القائد أيوب بن شاذي حاكما على مدينة دمشق ، وعين أخاه شِيركوه بن شاذي حاكما على ولايتها .

٣) النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين :

أشرنا سابقا الى أن مصر كانت في غاية الفوضى والاضطراب ، وذلك بسبب الثورات الداخلية التى تثار من أجل التحصيل على منصب الوزارة ، فالخليفة الفاطمي أصبح لا يمثل شيئا ، إنما الامر بيد المتغلبين من الوزراء والقواد . وكم جرت من مذابح ومعارك من أجل الوزارة للخلافة الفاطمية . ولم تستقر الحالة إلا بتولية طلائع بن رُزِّيك للوزارة سنة ٥٤٩ ، ولكنه ما ان قتل (٥٥٨هـ - ١١٦٣م) وتولى بعده ابنه رزيك بن طلائع حتى عادت الفوضى .

---

١) هذه المملكة هي من دول الاتابكة استولى عليها آل طغتكين من ٤٩٧ -الى- ٥٤٩- وكان آخر ملوكها مجير الدين أبق بن محمد، وهو الذي استسلم الى نور الدين وقضى بقية حياته في بغداد (ابن الاثير).

وكان كلٌّ من نور الدين محمود، وملك بيت المقدس (أموري Amaury I)(١) ينظر الى مصر نظرة خاصة، ويود ضمها إليه لتعزيز جانبه. ولا يمنع كلاً منهما عن احتلالها إلا خوفه من الآخر. وكانت الخلافات الداخلية من أجل الوزارة الفاطمية موجبة لتداخل كلٍ من نور الدين وأموري في السياسة المصرية، وباعثة بهما الى النزاع من أجل مصر.

ثورة شاور السعدي:

عند ما انتصب رُزَيك بن طلائع وزيرا للخلافة الفاطمية، ثار ضده شاور (٢) بن مجير السعدي الوالي على مصر العليا، واستطاع أن يتغلب على رزيك ويقتله، وأن ينتصب وزيرا للخليفة الفاطمي (العاضد) في المحرم سنة (٥٥٨هـ ١١٦٢م)

وأساء شاور السعدي وأبناؤه السيرة مما جعل احد القواد (ضرغام بن عامر اللخمي) يتواطأ مع الخليفة الفاطمي ضد الوزير شاور؛ فثار عليه وألجاه الى الفرار وانتصب ضرغام على كرسي الوزارة، فتوجه شاور السعدي إلى دمشق مستنجدا بنور الدين محمود، متعهدا له بنفقات الحملة. وغرامة سنوية قدرها ثلث ايراد البلاد المصرية. ولكن نور الدين محمود تلكأ وتردد في إجابة طلب شاور السعدي إلى ان حدث ما أباد هذا التردد؛ فقد جاءت الاخبار معلمة بأن أموري (ملك بيت المقدس) هجم على مصر وتغلب على ضرغام، فحالفه وأقرّ له بالجزية خوفا من تحالف شاور السعدي مع نور الدين محمود. هنا اضطر نور الدين الى إجابة طلب شاور السعدي؛ فبعث معه قائده أسد الدين شيركوه. وكان من ضمن رجاله صلاح الدين الايوبي. وهو ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي. وسرعان ما انتصر أسد الدين شيركوه على ضرغام. وانتصب شاور السعدي على الوزارة من جديد، إلا انه لم يَفِ بما تعهد لنور الدين محمود، بل حالف مملكة

---

١) تولى بعد بودوين الثالث مدة (١١٦٢-١١٧٤) وتطلق عليه المصادر العربية القديمة (أملريك) أو مري

٢) ابو شجاع شاور بن مجير السعدي ينهي ابن خلكان نسبه الى ابي ذؤيب عبدالله والد حليمة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم

بيت المقدس سريا ؛ فاضطر أسد الدين لمحاربته بمساعدة صلاح الدين ابن اخيه ، واستنجد شاور السعدي بملك بيت المقدس ؛ واستطاعت الجيوش الشامية ان تصمد للجيوش المصرية والصليبية في بلبيس (١) من رمضان الى ذي الحجة (٥٥٩هـ ١١٦٤م) وانتهز نور الدين محمود اشتغال أموري بحرب مصر ، فتوجه الى حصن حارم وحصن بانياس وفتحهما ؛ فخشي اموري على مملكته واخذ يفاوض اسد الدين شيركوه في عقد هدنة بينهما ، وتمت الهدنة على شرط انسحابهما عن مصر وتركها لاصحابها . وعلى هذه النتيجة انتهت الجولة الاولى من النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين.

الدور الثاني من النزاع على مصر:

استفاد أسد الدين شيركوه من ذهابه الاول إلى مصر ، اذ سبر أغوار المملكة المصرية وعرف ما فيها ، وأيقن بضرورة الاستيلاء عليها للتغلب على الصليبيين ، لهذا أخذ يهون أمرها على نور الدين ، ويطلب منه الاذن في احتلالها ، وأذعن نور الدين أخيرا لرأي قائده فَجُرّدت حملة ثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ - ١١٦٧ م - بقيادة أسد الدين شيركوه . وما ان سمع الوزير شاور بتوجه الجيوش النورية الى مصر حتى بعث الى احلافه الصليبيين فأسرع الى نجدته اموري ملك بيت المقدس . وتقابل الجيشان في صعيد مصر قرب « المُنْيَة » فانتصرت الجيوش النورية ٥٦٣ هـ ١١٦٧ م - انتصارا باهرا . واظهر الشاب صلاح الدين الايوبي براعة وثباتا . ثم سارت الجيوش الشامية شمالا الى الاسكندرية فدخلتها دون مقاومة تذكر . وعمل القائد شيركوه على اتمام فتح البلاد المصرية (الفسطاط والقاهرة) فترك نصف جيشه بالاسكندرية ، موكلا قيادته وأمره الى صلاح الدين الايوبي . وكانت هذه المرة الاولى التي تولى فيها صلاح الدين القيادة وتحمل المسؤولية ، وكأنّ القدر قد هيأ له المجال لاظهار بطولته وعبقريته ؛ فانه ما ان توجه عمه اسد الدين شيركوه الى الفسطاط والقاهرة حتى هاجم الصليبيون الاسكندرية وحاصروها برا وبحرا بمساعدة الاسطول البيزنطي . واشتد الضيق على المحصورين بالاسكندرية

---

١) انظر موقعها بالخريطة عدد ٢

وكادوا يستسلمون ، ولكن صلاح الدين (القائد الشاب) اظهر الجلد والمقاومة ، ودافع احسن دفاع إلى أن ادركه عمه شيركوه . ومثل المرة الاولى انتهى الدور الثاني من النزاع على مصر بعقد هدنة التزم فيها الطرفان بالانسحاب عن مصر ، وتركها لاصحابها .

الدور الثالث والاخير من النزاع على مصر:

لم يكن اموري (ملك بيت المقدس) مخلص النية في الهدنة السابقة ، إذ لم يسحب كامل جيشه عن مصر ؛ لانه كان ينوي الاستيلاء عليها متى ابتعدت الجيوش الشامية عنها . وما ان اطمأنّ لهذا حتى جرد حملة على البلاد المصرية واستولى على بلبيس ، وفتكت جيوشه بالسكان وذبحوا الكثير منهم . واغراهم هذا الانتصار فتقدموا الى الفسطاط (١) . وخاف الوزير شاور من استيلاء الصليبيين عليها ، فأشعل فيها النيران التي استمرت (٥٤) يوما اتت عليها تماما . وتقدم الصليبيون الى القاهرة وناصبوها الحصار . واجرى شاور السعدي مفاوضات مع الصليبيين ، واحكم التمطيط لهذه المفاوضات ريثما تصل الجيوش النورية التي بعث يستنجد بها.

وإذ كان نور الدين محمود عازما على الاستيلاء على مصر فقد انتهز الفرصة مرة اخرى ، وارسل للمرة الثالثة قائده شيركوه بمعية صلاح الدين (ابن اخيه) . وما ان وصلت الجيوش الشامية وانضم إليها الجيش المصري حتى بادر الصليبيون بالانسحاب ، وفك الحصار دون إقدام على قتال .

ودخل شيركوه الى القاهرة دخول القائد المنقذ ، هلل له الناس واستبشروا به ، وقربه الخليفة العاضد منه وخلع عليه . ثم دُبّرت مؤامرة ضد شاور السعدي فقتل (٥٦٤ - ١١٦٩) وانتصب اسد الدين شيركوه وزيرا للخلافة الفاطمية . ولكن لم تدم وزارته اكثر من شهرين فتوفي في جمادى الثانية ٥٦٤ (مارس ١١٦٩م)

---

١) كانت مدينة الفسطاط هي العاصمة الاولى لمصر الاسلامية منذ عهد عمرو بن العاص ومازالت أطلال هذه المدينة المحترقة تشاهد الى اليوم قرب مصر القديمة الحالية .

مُلحقات الفصل الرابع

١) الخلاصة

كانت الحالة السيئة بالمجتمع الاسلامي من اهم اسباب نجاح الصليبيين في حملتهم الاولى . ولم تكن هناك وسيلة للتغلب على الصليبيين إلا نهضة إسلامية توحد المشرق الاسلامي ، او تكوّن فيه قوة صالحة تستطيع رد الفعل . وقد بدأ ردالفعل الاسلامي يتحقق بنهضة آل زنكي بالموصل حينما كوّن عماد الدين زنكي دولة قوية تمتد من الموصل الى معرة النعمان . واخذ يكيل الضربات للصليبيين ، الواحدة بعد الاخرى ، كان من اعظمها استيلاؤه على الرها وإزالة إمارتها . وكان لعمل عماد الدين وجهاده الاثر الاكبر في إثارة الحرب الصليبية الثانية ، التي شارك فيها لويز السابع ملك فرنسا ، وكنراد الثالث امبراطور المانيا. وعوض ان تتجه هذه الصليبية الى اكبر خطر يهدد الصليبيين : نور الدين محمود، فان الصليبيين توجهوا الى دمشق وحاصروها مدة قصيرة ثم رجعوا من حيث اتوا . ولم تقم الصليبية الثانية إلا بهذا الحصار الذي لم يأت بأدنى فائدة.

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر على غاية من الضعف والفوضى ، وقد اتجهت اليها انظار مملكة بيت المقدس ، وانظار نور الدين محمود ؛ فعمل كل واحد منهما على ضمها اليه . ولهذا دخلا في نزاع وحروب من اجل المملكة المصرية. وجرت بين الطرفين معارك على ثلاث دفعات كانت الجولة الاخيرة لنور الدين محمود بتغلب قائده اسد الدين شيركوه على الصليبيين ، وانتصابه وزيرا للخليفة الفاطمي . وبذلك اصبحت السيادة على مصر لنور الدين محمود بواسطة قائده أسد الدين شيركوه. ولكن هذا القائد لم يطل به الامد فقد توفي بعد شهرين من توليه الوزارة .

٢) ارقام تاريخية :

٥٢١ هـ - ولاية عماد الدين زنكي على الموصل .

٥٣٩ هـ - استيلاء عماد الدين زنكي على الرها .

٥٤١ هـ - موت عماد الدين زنكي محاصرا لقلعة جعبر

٥٤٣ هـ - حصار الصليبية الثانية لدمشق .

٥٥٩ هـ - بدء النزاع على مصر بين نور الدين محمود ومملكة بيت المقدس.

٥٦٤ هـ - ضم المملكة المصرية الى نور الدين محمود بانتصاب قائده شيركوه وزيرا عليها .

٣) لله درك نور الدين من ملك

قال العماد الاصبهاني (١) يمدح نور الدين محمود لما ضمّ إليه المملكة المصرية:

لله درّك - نور الدين - من ملك ... بالعزم مفتتح ، بالنصر مختتم

آثار عزمك في الاسلام واضحة ... وسرّه لك باد غير مكتتم

بما من العدل والاحسان تنشره ... تخاف ربك خوف المذنب الاثم

أوردت مصر خيول النصر عادمة ... ثني الاعنة اقداما على اللجم

فأقبلت في سحاب من ذوابلها ... وقضبها بدماء الهام منسجم

تمكّن الرعب في قلب العدوّ بها ... تمكّن النار بالاحراق في الفحم

❀ ❀ ❀

لله درّك نور الدين من ملك ... عدل لحفظ أمور الدين، ملتزم

كانت ولاية مصر قبل عزتها ... بكشف دولتها لحما على وَضَم

فالنيل ملتطم ، جار على خجل ... جارا لبحر نوال منك ملتطم

---

١) عماد الدين محمد بن محمد الاصبهاني عاش من ٥١٩ الى ٥٩٧ ولد باصبهان وقدم الى بغداد ثم الشام حيث اتصل بنور الدين محمود ثم اصبح بعد من خاصة صلاح الدين الايوبي - له تآليف كثيرة في الادب والتاريخ ، وديوان شعر. من اشهر تآليفه الفتح القسي في الفتح القدسي ، وخريدة القصر وجريدة العصر .

اغز الفرنج، فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب
على البغاث وثوب الاجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الاسلام منتظم
محمود الملك الغازي يسوسهما بالفضل والعدل والافضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا محمود الملك، محمود بكل فم
فأشكِ مصر، وأظهر عز سنتها كم تعتفي، والى كم تشتكي وكم،

(كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٥)

تمرينات

١) ما الذي حققه آل زنكي من اهداف اجتماعية وحربية؟
٢) الحرب الصليبية الثانية ودواعيها.
٣) إن من خطإ الصليبية الثانية توجهها الى دمشق؛ وضح هذا.
٤) ما الذي أوجب دخول نور الدين والصليبيين في صراع من أجل مصر؟
٥) اذكر قصة هذا الصراع.
٦) هل تنطبق صفات المدح التي ذكرها العماد الاصبهاني على نور الدين محمود؟
٧) باستيلاء نور الدين محمود على مصر ازداد الحرج على الصليبيين؛ بين ذلك.
٨) ماذا تفهم من قول العماد: (واظهر عز سنتها)؟

الفصل الخامس

سلطنة صلاح الدين الأيوبي
الصليبية الثالثة

١) سلطنة صلاح الدين الايوبي
٢) استرجاع بيت المقدس من طرف صلاح الدين .
٣) صلح الرملة ونهاية صلاح الدين الايوبي

١ - سلطنة صلاح الدين الايوبي

وزارة صلاح الدين والغاء الخلافة الفاطمية

فكر الخليفة (العاضد) الفاطمي في اختيار وزير له بعد وفاة اسد الدين شيركوه، فقرّ قراره على اتخاذ يوسف صلاح الدين خلفا لعمه شيركوه رغم صغر سنه، ورغم وجود كبار القواد والرجال ضمن الجيش الشامي المرابط بمصر، فان الخليفة العاضد اختار صلاح الدين لهذا المنصب الخطير (١)واذ كانت الخلافة الفاطمية شيعية ومناوئة للخلافة العباسية فقد عمل صلاح الدين الايوبي على إزالتها وإلغائها . واخذ يمهد لهذا الالغاء ويجس نبض رد الفعل ، فأمر بعض (٢) المساجد بقطع الخطبة عن العاضد الفاطمي ، والدعاء للمستضيء العباسي . واذ لم يظهر غضب لهذه البادرة فانه عَمَّمَ هذا القطع في بقية المساجد . وفي هذا الوقت كان الخليفة العاضد على فراش الموت . ولم يمض قليل حتى توفي بدون ان يعلم بهذا الحادث التاريخي الهام. (مات العاضد يوم عاشوراء ٥٦٧ هـ - ١١٧١ م)

---

١) يرجع بعض المؤرخين أسباب هذا الاختيار الى ان الخليفة العاضد كان يرجو التغلب على صلاح الدين نظرا لصغر سنه (٣١ سنة) ولكن الاقدار كان لها غير هذا .
٢) بدىء القطع من ثاني جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ .

وبموت العاضد انقرضت الخلافة الفاطمية التي استمرت في مصر من سنة ٣٦٢ الى سنة ٥٦٧ (٣)

سلطنة صلاح الدين الايوبي:

بموت الخليفة العاضد خلا الجو للملك الناصر (صلاح الدين يوسف ابن أيوب) وأصبح المتصرف في مصر وصاحب السيادة فيها . وبقي تابعا - سياسيا - لسيده نور الدين محمود ، إلا انها تبعية اسمية فقط .

وما ان اصبح صلاح الدين مستقلا بمصر حتى اخذ في توسيع دائرة ملكه وتنظيم مملكته ، فغزا بلاد النوبة (جنوبي مصر) واحتل بلاد اليمن والحجاز ، واصبح البحر الاحمر تحت سيادته ونفوذه . واستمر صلاح الدين تحت الولاء الاسمي لنور الدين محمود الى ان توفي نور الدين (شوال ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م) فانقسمت مملكته وتشتتت . ولم يترك نور الدين محمود الا ولدا صغيرا عمره احدى عشرة سنة لقب بالملك الصالح ، وتولى تدبير مملكته شمس الدين ابن المقدم واخذت الفوضى تسود البلاد الشامية . وكان صلاح الدين لا يسره تفكك الوحدة الاسلامية الناشئة ، واتخذ من مهاجمة سيف الدين غازي لشرقي مملكة نور الدين ، ولمهادنة ابن المقدم مملكة بيت المقدس ، ذريعة لتوجهه الى دمشق واحتلالها في ربيع الاول (٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م) اما الملك الطفل - الصالح إسماعيل - ففر الى حلب . ثم سار صلاح الدين الى حمص وحماة واستولى عليهما . وتألب ضده أمراء الدولة النورية وسيف الدين غازي صاحب الموصل بمشاركة الاسماعيلية (٤) والصليبيين . ولكن صلاح الدين استطاع ان يهزمهم جميعا في معارك كثيرة اهمها معارك : قرون حماة ، تل السلطان ، اعزاز . وفي المحرم (٥٧١ هـ - ١١٧٥ م)

---

١) يرجع بعض المؤرخين اسباب هذا الاختيار الى ان الخليفة العاضد كان يرجو التغلب على صلاح الدين نظرا لصغر سنه (٣١ سنة) ، ولكن الاقدار كان لها غير هذا - ٢) بدىء القطع من ثاني جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ - ٣) ابتدات الخلافة الفاطمية في المغرب منذ ٢٩٧ واتخذت مدينة المهدية «بتونس» عاصمة لها . ثم انتقلت الخلافة الى القاهرة زمن المعز الفاطمي سنة ٣٦٢ هـ
٤) كان رئيس الاسماعيلية في الشام في ذلك الزمن هو سنان شيخ الجبل ، الذي راسله سعد الدين كمشتكين وبذل له اموالا كثيرة ليرسل جماعة من اتباعه لاغتيال صلاح الدين . وتمت المؤامرة فعلا ، ولم ينج صلاح الدين من الاغتيال إلا بأعجوبة فقد حال بين جسمه والسيف لباسه الحديدي .

تملك صلاح الدين مدينة حلب ، واستمر صلاح الدين في عمله لتوحيد البلاد الشامية والمصرية تحت رايته . وما حلت سنة (٥٨٢ هـ - ١١٨٦ م) حتى اصبحت مملكته تشمل شمال العراق والكردستان والشام واليمن ومصر وبرقة .

لم يكن صلاح الدين اثناء توسيع مملكته وتوطيد اركانها متجها بكليته الى محاربة الصليبيين ، بل كانت تقع بينهم وبينه مناوشات لا تذكر . وكان مع البعض منهم في هدنة ومسالمة، خصوصا مع ارناط صاحب الكرك (Renaude de Chatillon) الذي كانت امارته تفصل بين البلاد الشامية والبلاد المصرية ، فكانت الهدنة التي وقعت بينه وبين صلاح الدين تسمح للقوافل بالانتقال من مصر الى الشام او العكس في سلامة وأمن .

٢ - استرجاع بيت المقدس

غدر صاحب الكرَك وانتقاض الهدنة :

في سنة (٥٨٢ هـ - ١١٨٦ م) اعتدى ارناط على قافلة (١) تجارية تابعة لصلاح الدين الايوبي فغنم أموالها واسر رجالها . ورغم انذارات صلاح الدين لارناط بارجاع ما اغتصبه فان أرناط تمادى على ابائه وتعنته ؛ فقرر صلاح الدين الايوبي الانتقام منه . وأقسم أن يقتله بيده متى ظفر به .

كان هذا الاعتداء الشرارة الاولى لاندلاع الحروب التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين والتي اذاقهم فيها الامرّين ، وذاع اسمه في اوروبا على ممر الاجيال ، بل بلغ الامر بهم أنهم اصبحوا يخوفون صبيانهم بذكر صلاح الدين الايوبي (Saladin) . واستمرت هذه الحروب سنوات متتالية ، وكانت نتيجتها مايأتي :

---

١) هنالك بعض الروايات تقول : ان ضمن القافلة اخت صلاح الدين الايوبي كما يذكر البعض ان القافلة كانت قاصدة فريضة الحج وفيها ابن اخته وكان ذلك سنة ٥٨٣هـ ولكن قصد صلاح الدين اليه منعه من التعرض لقافلة الحجاج - عن ابن الاثير، ج ؛ ٩ ؛ ص ١٧٥

بحيرة طبرية ، جرت قربها معركة حطين .

معركة حطّين : (ربيع الثاني ٥٨٣ هـ - جويلية ١١٨٧ م)

عزم صلاح الدين الايوبي على معاقبة صاحب حصن الكَرَك وعلى مهاجمة مملكة بيت المقدس ؛ فخرج من دمشق في المحرم (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) ولما وصل رأس الماء جعله مركزا لاجتماع الجيوش ، فقد استنفر المسلمين للجهاد العام. وبقي ولده الملك الافضل برأس الماء وسار هو الى بُصْرى . وسار مظفر الدين كوكبرى الى عكا . ومن بصْرى توجه صلاح الدين الى حصن الكرَك والشَوبَك . ثم عاد الى طبرية . وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التى دبرها صلاح الدين ضدهم فاجتمعت كلمة رؤسائهم ، وحشدوا جموعهم وتوجهوا الى طبرية . وتقابل الفريقان في حطّين . وجرت معارك قاسية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين الايوبي انتصارا حاسما ، فقد هزِم الصليبيون انهزاما تاما لم يفلت منهم أحد، بين قتلى وأسرى . وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف، واسر ملك بيت المقدس، وأرناط موقد شرارة هذه الحرب . وأظهر صلاح الدين

شهامة وعطفا مع أعدائه ،خصوصا ملك بيت المقدس . اما ارناط فقد برَّ صلاح الدين بيمينه في شأنه وضرب عنقه . وكذلك امر بقتل أسرى الداوية والاسبتارية (١)

من انتصار حطين الى استسلام بيت المقدس :

بعد الانتصار الكبير لصلاح الدين في حطين توجه بقواته الى ميناء عكا؛ فاستسلم من فيها بأمان ودخلها صلاح الدين غرة جمادى الاولى(٥٨٣هـ-١١٨٧م) وانتقل الصليبيون منها الى مدينة صور . ثم وقع احتلال المدن والحصون التي حول عكا مثل (تبنين - صيدا - جبيل - بيروت) وبعد ذلك ساير الساحل وحاصر عسقلان مدة أربعة عشر يوما . وانتهى الامر باستسلامها في ١٦ جمادى الثانية (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) . وبذلك نصب صلاح الدين حصارا على بيت المقدس،وحال بينها وبين الامدادات الصليبية التي كانت ترد اليها من الساحل : وتوجه الى بيت المقدس بعد استسلام (الرملة - الداروم - غزة - بيت لحم - النطرون) وناصبها الحصار . ولم يطل أمد هذا الحصار سوى اسبوع واحد، انتهت بعده المقاومة الصليبية واستسلمت لصلاح الدين . ولم يفعل مع اهلها ما فعله الصليبيون مع المسلمين لما احتلوها في الحرب الصليبية الاولى ، لان دينه وشهامته يأبيان عليه ذلك،فسمح للصليبيين بافتداء أنفسهم مقابل مقدار من المال (١٠ دنانير للرجل - ٥ للمراة - ٢ للطفل) وأوسع لهم في اجل هذا الفداء لمدة ٤٠ يوما ؛ فخرج الصليبيون تحت حماية القوات الاسلامية الى مدينة صور ، متعهدين بعدم الرجوع الى الحرب . ودخل صلاح الدين بيت المقدس في رجب ٥٨٣ هـ (اكتوبر ١١٨٧ م) (٢)

كانت سياسة صلاح الدين الايوبي في احتلاله للحصون والمدن الصليبية مبنيةً على المحافظة على الانفس البشرية قدر الامكان . وترجع سرعة احتلاله لمملكة بيت المقدس الى سياسة الامان الذي كان يبذله للصليبيين ؛ فكانوا يخلون قلاعهم ومدنهم ، ويتوجهون الى مدينة صور.

---

٢) انظر ملحقات الفصل عن هاتين الفرقتين ، اما الاماكن فحققها في الخريطة عدد ٢

١) لما احتل الصليبيون بيت المقدس فرحوا واستبشروا لان وقت استسلامها « الجمعة بعد الظهر » كان يوافق نفس اليوم والساعة التي رفع فيها المسيح عليه السلام . واسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس ودخوله إليها كان يوم ذكرى معراج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك مصادفة عجيبة.

هذه السياسة التي سلكها صلاح الدين كانت محل نقد من بعض المؤرخين نظرا للمتاعب التي انجرَّت له بعدها ، لان الصليبيين، وإن تعهدوا بعدم الرجوع الى الحرب، إلا ان اجتماعهم بمدينة صور أغراهم على نقض العهد الذي قطعوه لصلاح الدين.

٣) حصار عكا والحرب الصليبية الثالثة

حصار عكا:

ما ان اجتمعت الفلول الصليبية المنهزمة بمدينة صور حتى اغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد الذي اعطته لصلاح الدين ، لهذا توجه الصليبيون الى مدينة عكا وناصبوها الحصار ، اعتمادا على قوتهم المجتمعة ، وعلى الامدادات التي ترد اليهم من اروبا . وحصار عكا كان له دويٌّ هائل في التاريخ نظرا لطوله الزمني (استمر عامين) ونظرا لضروب الشجاعة والبسالة والاقدام التي اظهرها كلٌّ من المتحاربين ، سواء من المسلمين او الصليبيين .

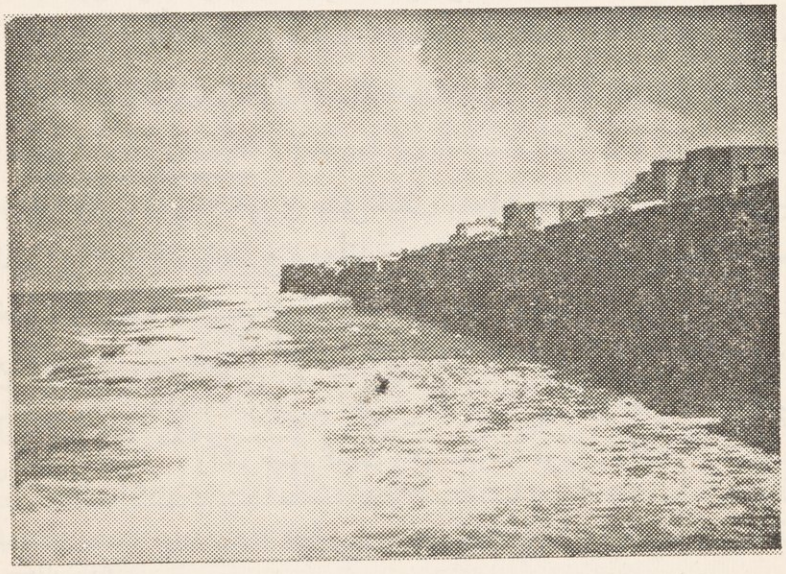

سور مدينة عكا

سارت الجيوش الصليبية الى عكا في ٨ رجب (٥٨٥ هـ - ١١٨٩م) ووصلتها في منتصفه. وكانت هذه الجيوش تساير الساحل ، ترافقها المراكب البحرية. وما إن وصل الصليبيون عكا حتى حاصروها برا وبحرا. ثم وصلت الجيوش الاسلامية، وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البحر . ونصب صلاح الدين خيمته على تل كيسان . واستمرت المناوشات والمعارك . وكان الامر يشتد ويزداد كل يوم وساعة ، فصلاح الدين بعث النفير الى اطراف مملكته، والصليبيون تتوارد عليهم الامدادات(١) من اروبا ، التي ضجّت لنبأ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس .

الحرب الصليبية الثالثة:

وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة عكا كانت ممالك اروبا تستعد لحرب صليبية ثالثة إثر الانتصارات الباهرة التي سجلها صلاح الدين الايوبي ضد الامارات الصليبية ، واسترجاعه لبيت المقدس . وقد امتازت الحرب الصليبية الثالثة بأن كان على رأسها أعظم ملوك أروبا في ذلك الزمان :

١) امبراطور المانيا فريديريك بربروس (Frédéric Barbe-Rousse)

٢) ملك فرنسا فيليب اوغسطس (Philippe Auguste)

٣) ملك الانكليز رتشارد قلب الاسد (Richard Cœur de Lion)

مصير الحملة الالمانية:

سار الامبراطور الالماني في جيش لجب يشمل نحو مأئة ألف محارب مخترقا بلاد المجر في اتجاه القسطنطينية . وأفزع هذا الجيش العرمرم الامبراطورية البيزنطية ، فلم يجد الالمان مساعدة ولا استبشارا من البيزنطيين . وبلغ الامر بالامبراطور (٢) البيزنطي أن أخطر صلاح الدين بمجيء الالمان . وأعلمه بأنه سوف لا يمدهم بأية إعانة . وعبرت الجيوش الالمانية الى آسيا الصغرى . مقتفية خطى الصليبية الاولى . واعترضتهم قوات (٣) سلاجقة قونية ، ولكنها لم تستطع

---

١) كانت هذه الامدادات تتمثل غالبا في ورود سفن الجمهوريات الايطالية، وحتى من شمالي أروبا كالدنمارك .

٢) كان الامبراطور البيزنطي اذ ذاك هو اسحاق لانج « Isaac l'Ange »

٣) وكان سلطان قونية السلجوقي هو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان .

صدهم عن متابعة السير . ولما وصلوا أرمينية وجدوا من الارمن خير مساعد، إلا أن غَرَق الامبراطور الالماني ، وموته بنهر « سالف » في جبال أرمينية جعل هـذا الجيش في تشتت واضطراب ، ورجع غالبه الى المانيا . اما بقيته فقد امتطت السفن الى عكا وصور بقيادة فريدريك دوسواب (Frédéric de Souabe) ابن الامبراطور الالماني . وحتى هذا الابن مات اثناء الطريق، ولم يصل الى عكا إلا عـدد قليل من هذا الجيش العرمرم ، الذي لو وصل تامّا لكان له اثر كبير في النزاع بين الصليبيين وصلاح الدين .

الحملتان الفرنسية والانكليزية :

التقى الانكليز والفرنسيون في صقلية . وأقاموا فيها مدة طويلة بينما الصليبيون في عكا ينتظرونهم بفارغ صبر . واذ لم يكن الملكان: الفرنسي والانكليزي على وفاق؛ فقد بارح الفرنسيون صقلية في آخر مـارس ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) بينما الانكليز بارحوها بعد ذلك بعشرة ايام .

ووصل الفرنسيون الى عكا في ٢٠ افريل فأضافوا للصليبيين بعكا قوة اخرى وشدُّوا أزرهم .

اما ملك الانكليز - قلب الاسد - فقد القت عاصفة بأسطوله على جـزيرة قبرص ، التي كانت تابعة للامبراطورية البيزنطية ، فما كان من قلب الاسد إلا محاربة البيزنطيين والاستيلاء على قبرص والاستقرار بها مدة ، ثم أبحر الى عكا بعد ان استنجد به (١) ملك بيت المقدس الذي أطلقه صلاح الدين من الاسر .

انتهاء مقاومة عكا واحتلالها من طرف الصليبيين:

ازداد الصليبيون قـوةً بمجيء قلب الاسد . ورغم المحـاولات العديدة التي بذلها صلاح الدين ورجاله لانقاذ مَن بعكا من المسلمين وفكّ الحصـار ، فان كل المحاولات لم تُجْدِ نفعا . واضطر المحصورون الى الاستسلام بعد أن ايقنوا باستحالة نجدتهم وفك الحصار عنهم . وفي ظهر يوم الجمعة السابع عشر من جمـادى الثانية

---

١) هو Guy de Lusignan

٥٨٧ هـ (جويلية ١١٩١م) بينما كان صلاح الدين يستشير خاصته فيما وردعليه (١) من عزم المحصورين على المصالحة والاستسلام ، ارتفعت الاعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا معلنة احتلالها واستسلامها ؛ ففوجيء المسلمون وارتاعوا ، واستبشر الصليبيون وصاحوا.

الخلاف لدى القادة الصليبيين ورحيل الفرنسيين :

لم يكن الاتفاق سائدا بين القادة الصليبيين ، وقد رأينا الخلاف الذي كان بين ملك فرنسا وملك الانكليز لما كانا في صقلية ، وكان الخلاف أشد بين ملك بيت المقدس الطريد وبين المركيز (٢) صاحب مدينة صور ، وقد كان ملك الانكليز يميل الى ملك بيت المقدس ، بينما ملك فرنسا هواه مع المركيز صاحب صور ، الطامع في تاج مملكة بيت المقدس ، وحالما تمّ انتصار الصليبيين في عكا عادت الخلافات الى الظهور ،وانتهت على اتفاق يتمضمن استمرار ملك بيت المقدس حاملا للتاج مدة حياته . وبعد موته يتولاه المركيز كنراد .

وبادر الملك الفرنسي بالرحيل الى بلاده . اما قلب الاسد فقد انتشى بهذا الانتصار ، وأخذ يهاجم القوات الاسلامية محاولا افتكاك بيت المقدس من يد صلاح الدين الايوبى ، وجرت بينه وبين صلاح الدين معارك كثيرة ، من اشهرها معركة أرسوف (شعبان ٥٨٧ هـ وسبتمبر ١١٩١ م) انتصر فيها الصليبيون ، واعتبروها اخذًا بثأر معركة حطين .

٤) صلح الرملة ونهاية صلاح الدين الايوبي

استمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين ، وحاولوا مرات الاقتراب من بيت المقدس حتى أصبحوا مرةً على فرسخين منها . وكان قلب الاسد لايجاسر بمحاصرة بيت المقدس مخافة ان يكون الحصار قاضيا عليه ؛ لان حماة بيت المقدس فى هذه الصليبية لم يكونوا كحماتها في الصليبية الاولى . وتكاد الوقعات تكون

١» كانت غالب المخابرات بين صلاح الدين والمسلمين المحصورين في عكا بواسطة عوام « سباح » يخترق نطاق الحصار حاملا الرسائل إما من صلاح الدين او من المحصورين بعكا .

٢) هو « Conrad de Montferrat » كنراد مونت فيرا

سجالا بين الصليبيين وصلاح الدين : الصليبيون لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الشامية وإنقاذ بيت المقدس ، وصلاح الدين لم يستطع زحزحة الصليبيين عن الساحل وإلقائهم بالبحر ، أو إبادتهم والانتصار عليهم . ولهذا كانت الدعوة الى المهادنة تجد رغبة عند الجانبين، وإنما كان يعرقلها اشتراط الشروط وعدم التنازل .

معاهدة وصلح الرملة:

واخيرا ركن الطرفان إلى الصلح والمهادنة ، فتم ذلك في شعبان (٥٨٨هـ - سبتمبر ١١٩٢م) وكان أهم ما في هذا الصلح:

١) أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلي الممتد من صور الى حيفا .

٢) السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها .

٣) أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر .

والشريط الساحلي الذي استقر فيه الافرنج هو الذي اعتبر امتدادا لمملكة بيت المقدس السابقة. وأصبحت مدينة عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس الجديدة . وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الاسد (١) السواحل الشامية قاصدا بلاده بعد أن اكتسب شهرة عظيمة ، وأصبح ألمع شخصية في الحرب الصليبية الثالثة .

وهكذا انتهت الصليبية الثالثة . وكان صلح الرملة قاطعا لسلسلة الحروب التى أثارها صلاح الدين ضد الصليبيين ، والتي اكتسب بها شهرة عالمية ومجدا لا يبلى . وقبل هذه الحروب كان المسلمون لا يملكون شيئا غربي نهر الاردن ، وإذا بنتيجة هذه الحروب تفصح عن استرجاع بيت المقدس الى حظيرة الاسلام ، واستيلاء المسلمين على الاراضى المحصورة بين نهر العاصي والاردن وبين البحر الابيض المتوسط ، ما عدا أجزاء ساحلية قليلة بقيت لامارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس الجديدة . (٢)

---

١) كان إبحار قلب الاسد في ٩ اكتوبر ١١٩٢م

٢) انظر الخريطة عدد ٥

نهاية صلاح الدين الايوبي:

بعد صلح الرملة سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وأمر بإجراء عدة اصلاحات وتنظيمات. ثم سار قاصدا دمشق فوصلها في ٢٥ شوال ٥٨٨ ولم يعمر صلاح الدين طويلا بعد صلح الرملة، فقد وافاه الاجل وهو بدمشق فأسلم الروح في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ (٤ مارس ١١٩٣م)، وفارق الحياة بعد أن ادّى رسالته على أكمل وجه وأتمه، وبعد أن خلد له مجدا في جهاده وأخلاقه وتعميره وانشائه. وماذا ينتظر من البطل بعد أداء مهمته؟ انه لا ينتظر منه سوى الصعود الى الرفيق الاعلى ليلقى مثواه وجزاءه. رحم الله صلاح الدين وأجزل ثوابه.

مُلحقات الفصل الخامس

١) الخلاصة

ما ان انتصب صلاح الدين الايوبي على كرسي الوزارة بمصر حتى فكر في إزالة الخلافة الفاطمية والغائها. وأثناء ذلك مات آخر خليفة فاطمي بمصر، فانقرضت الخلافة الفاطمية، واصبح صلاح الدين الايوبي سلطانا على مصر. ثم وسّع دائرة نفوذه فغزا بلاد النوبة واستولى على اليمن والحجاز. ولما مات نور الدين محمود عمل صلاح الدين على ضم مملكته اليه بعد ان دخلها الاضطراب والانقسام؛ فامتلك دمشق وحلب وبقية البلاد الشامية والجزرية. وتكونت لصلاح الدين مملكة عظيمة تمتد من العراق الى برقة. ثم اتجه بعد ذلك الى محاربة الصليبيين بعد أن وحّد مملكته وقوى نفوذه. واستمرت حروبه معهم نحوا من عشر سنوات، كان فيها منتصرا مظفرا. وتوّج اعماله بانتصاره على الصليبيين في معركة حطين، واستيلائه على بيت المقدس، وحَصْر الصليبيين في منطقة ساحلية ضيقة، انتقلت اليها مملكة بيت المقدس، وجعلت مدينة عكا عاصمة لها.

وكان لاحتلال بيت المقدس واسترجاعها بأيدي المسلمين هزة عنيفة في اروبا، فنظمت صليبية جديدة (هي الصليبية الثالثة) شارك فيها ملوك المانيا وفرنسا وانكلتيرا.

ومات امبراطور الالمان اثناء الطريق فلم يكن لامره شأن. اما الملكان الفرنسي والانكليزي فقد وصلا الى الشام اثناء حصار عكا الشهير . وبعد معارك اخرى بين الفريقين عقد صلح الرملة بين صلاح الدين وملك الانكليز نُصَّ فيه على حدود الطرفين ، وعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات، وان يسمح للنصارى بزيارة بيت المقدس.

ولم يلبث صلاح الدين أن وافاه الاجل بدمشق بعد ان قدَّم للاسلام والمسلمين خدمات لا تنسى .

٢) أرقام تاريخية

٥٦٧ هـ (١١٧١م) نهاية الخلافة الفاطمية وبداية السلطنة الايوبية .

٥٦٩ هـ (١١٧٣م) وفاة نور الدين محمود بن زنكي .

٥٨٣ هـ (١١٨٧م) معركة حطين انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ثم استولى على بيت المقدس.

٥٨٧ هـ (١١٩١م) استسلام مدينة عكا للصليبيين بعد حصارها عامين.

٥٨٨ هـ (١١٩٢م) صلح الرملة بين صلاح الدين والصليبيين.

٥٨٩ هـ (١١٩٣م) وفاة صلاح الدين الايوبي بدمشق.

٣) بعد مائة عام

أول خطبة جمعية بالمسجد الاقصى

كان استرجاع بيت المقدس من طرف صلاح الدين الايوبي يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ وقت صلاة الجمعة. لكن تعذرت اقامتها ذلك اليوم لضيق الوقت ولهذا كان يوم الجمعة ٤ شوال - ثامن يوم الفتح - هو اول يوم أقيمت فيه صلاة الجمعة منذ ان احتل الصليبيون بيت المقدس . وكان اول

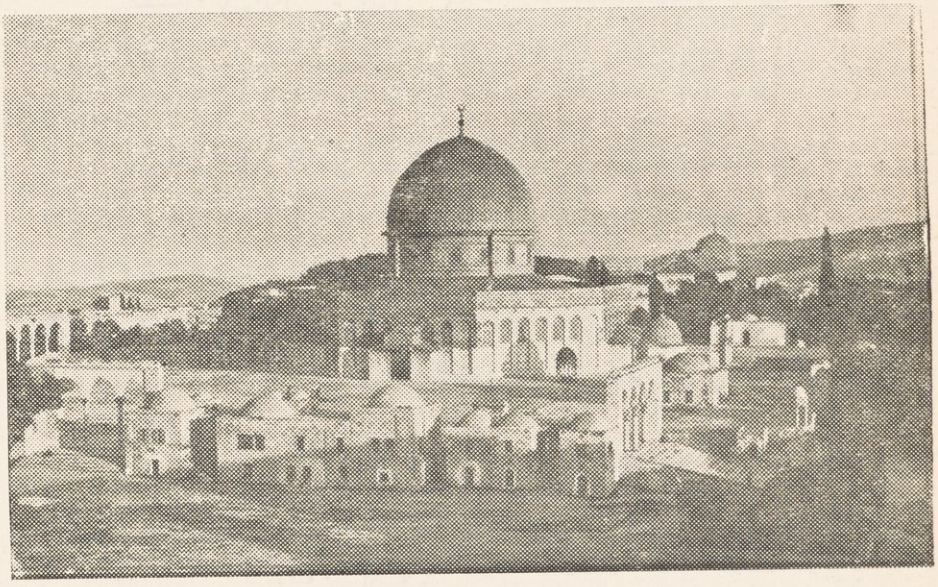

المسجد الاقصى ، قبلة الاسلام الاولى

خطيب خطب في المسجد الاقصى هو القاضي محي الدين بن زكي الدين . ومما قاله هذا الخطيب بعد مقدمات الخطبة : « ايها الناس . ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على ايديكم من استرداد هذه الضالة وردها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي اذن الله ان يرفع وان يذكر فيه اسمه، واماطة الشرك عن طرفه بعد ان امتد عليها رواقه، واستعمر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فانه بنى عليه ، وبالتقوى فانه اسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه. فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام . وقبلتكم التى تصلون اليها في ابتداء الاسلام .

وهو مقر الانبياء ومقصد الاولياء ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزل الامر والنهي . وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الارض المقدسة التى ذكرها الله في كتابه المبين . وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله

صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه، عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال الله تعالى « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله » وقال «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم» . وهو اول القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا اليه ولا تعتقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه. ولو لا انكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على ايديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصديقية والفتوح العمرية والجيوش العثمانية والفتكات العلوية .

جددتم للاسلام ايام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية . فجازاكم الله عن نبيكم افضل الجزاء . وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الاعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به اليه من مهراق الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ؛ فاقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة » . الى آخر ما جاء في الخطبة (انظرها كاملة في كتاب الروضتين ص ١١٠ - ١١١ - من الجزء الثانى) .

٤) الداوية والاسبتارية

اعتمدت الامارات الصليبية بعد استقرارها - اكثر ما اعتمدت - على فرق الفرسان الداوية والاسبتارية وكانت هذه الفرق بمثابة جيش دائم للممالك الصليبية بالبلاد الشامية . وكانت اقامتهم بالقلاع والحصون والثغور . وقد اكتسبوا شهرة واسعة (١) في محاربتهم للمسلمين ، ونالوا عطف واستحسان الشعوب النصرانية

---

١) قد رايت كيف ان صلاح الدين الايوبي بعد انتصار حطين لم يسمح باطلاق هؤلاء الفرسان من الاسر ولم يتسامح معهم كما تسامح مع بقية الصليبيين .

وملوكها ؛ فوهبت لهم العطايا وحبست عليهم الاملاك والعقارات . وكان هؤلاء الفرسان يشبهون المرابطين من المسلمين، فيهبون انفسهم للجهاد ومراقبة العدو بالحدود والثغور. وكان لهؤلاء الفرسان زي خاص وأنظمة خاصة تشتمل على كثير من مبادىء الفروسية السائدة في تلك العصور، وعلى كثير من مظاهر التقشف المسيحي. وقد كانت الفكرة الاصلية للانضمام الى هذه الفرق هي التطوع لمحاربة المسلمين والدفاع عن المسيحيين والاماكن النصرانية المقدسة .

اما الداوية او فرسان المعبد (Les Templiers) فقد نشأت ونظم قانونها منذ استقرار الصليبية الاولى . وقد صدر قانون انظمتها ومبادئها سنة (٥١٢هـ ١١١٨م) زمن بودوين الثاني . وقد اسس هذه الفرقة جماعة (١) من الفرسان الفرنسيين الذين قدموا الى بيت المقدس في الحرب الصليبية الاولى . واقاموا في عمارة تنسب الى هيكل (Temple) سيدنا سليمان بن داود فنسبوا اليه.

ونظرا لما اغدق على هذه الفرقة من العطايا والهبات فانها اثرت اثراء فاحشا، واتجه نشاطها من بعد الى الناحية المالية الصرفة ، فاصبح افرادها صيارفة لهم مصارف مالية لدى البابا وملوك اروبا . الى ان صدر قانون من البابا كليمانت الخامس (Clément V) سنة ٧١٢هـ ١٣١٢م حجّر فيه وابطل قانون هذه الفرقة من الفرسان، التي لم تبق لها صبغتها الاصلية واصبحت لها خطورة.

اما الاسبتارية (Les Hospitaliers) فيرجع تأسيسها الى ما قبل الحرب الصليبية الاولى عندما طلب جماعة من تجار مدينة آمالفي (٢) الايطالية من الخليفة الفاطمي - المستنصر معد - سنة (٤٤٠هـ ١٠٤٨)ان يسمح لهم باقامة دير وبيمارستان (Hôpital) ببيت المقدس على انه يكون ذلك مأوى وملجأ للحجاج النصارى للاقامة والعلاج اثناء زيارتهم لبيت المقدس . لكن تطور امر هذه الجماعة لما قدمت الصليبية الاولى اذ وهبهم قودوفروا دوبويون (Godefroi de Bouillon)) هبات عديدة ؛ وكان رئيسهم اذ ذاك يدعى جرار (Gérard) ، فصدر قانون جديد في تنظيمهم .

---

١) عدتهم سبعة او ثمانية برئاسة Hugues de Payens

٢) (Amalfi) مرفأ إيطالي يقع بخليج سالرن (Salerne) وكانت امالفي اذ ذاك تابعة لمملكة نابلي (Naples).

واصبح يطلق عليهم فرسان القديس يوحنا (Saint-Jean)، وكانت لهم مشاركة قوية في محاربة المسلمين والدفاع عن المصالح الصليبية .

وعند ما استرجع صلاح الدين الايوبي بيت المقدس تحول افراد هذه الفرقة الى مدينة عكا . ثم انتقلوا بعد ذلك الى جزيرة قبرص فجزيرة رودس التي استمروا فيها من سنة ٧١٠هـ ١٣١٠م - الى سنة ٩٢٩هـ ١٥٢٢م، فلما استولى عليها السلطان العثماني سليمان القانوني خرجوا منها الى جزيرة مالطة وصمدوا لمحاربة العثمانيين وهجوماتهم . وفي سنة (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) استولى بونابرت الفرنسي على جزيرة مالطة في طريقه الى مصر . وأخذ أمر هؤلاء الفرنسان بعد ذلك يضعف شيئا فشيئا حتى انقرضوا .

تمرينات

١) كيف وصل صلاح الدين الايوبي الى الاستقلال بمصر؟

٢) هل اكتفى صلاح الدين بالاستيلاء على مصر؟

٣) لماذا هادن صلاح الدين الصليبيين في اول الامر ؟

٤) تحدث عن معركة حطين : اسبابها ونتائجها .

٥) قارن بين احتلال الصليبيين للمقدس واسترجاع المسلمين لها .

٦) صلح الرملة : دواعيه ونتائجه .

٧) موقف صلاح الدين من اعدائه الصليبيين .

٨) هل غيرت حروب صلاح الدين الخريطة السياسية لبلاد الشام؟ بين ذلك.

٩) اذكر موجزا عن فرق الفروسية الصليبية .

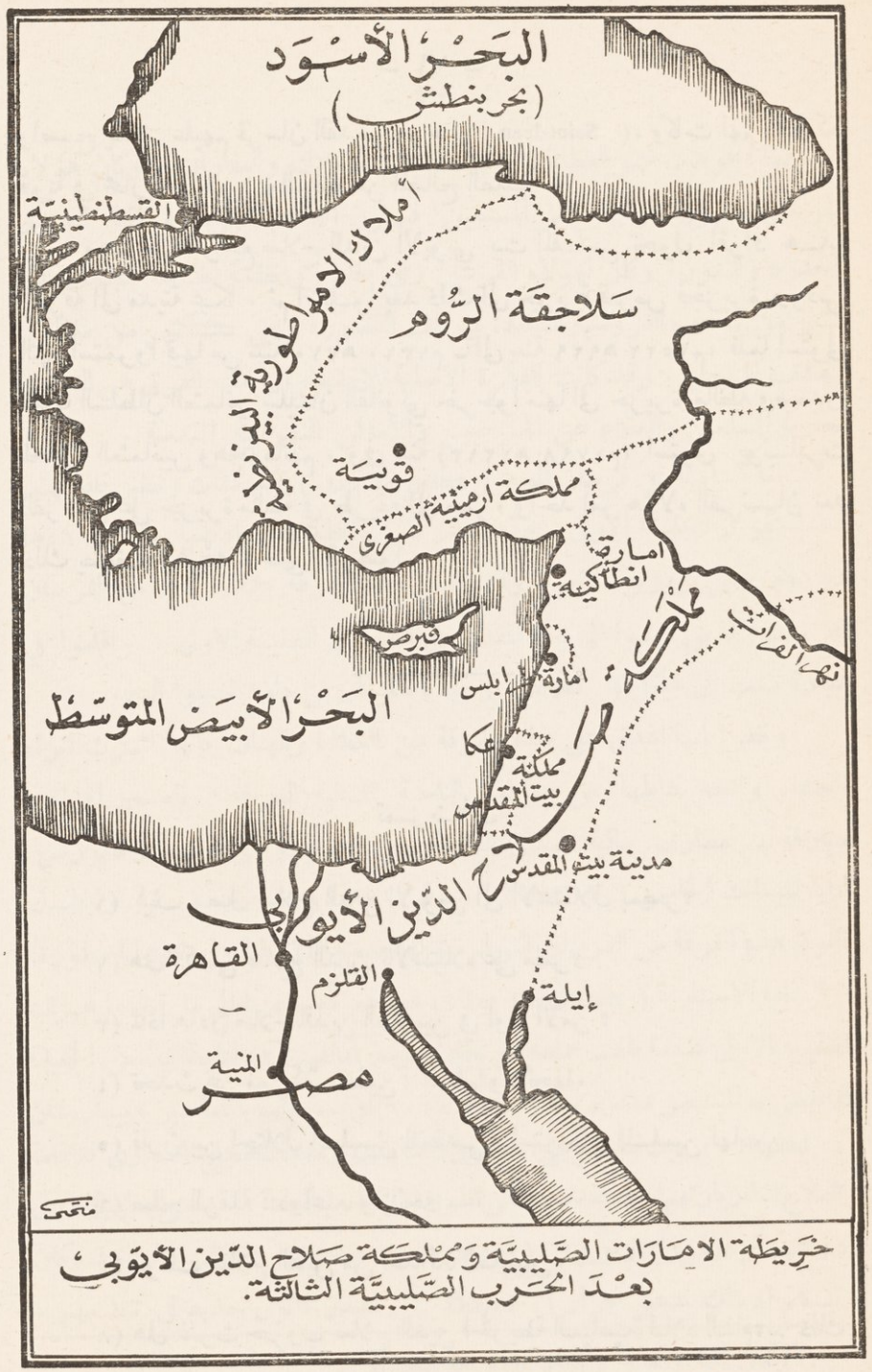

خريطة الامارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي بعد الحرب الصليبية الثالثة.

الحروب الصليبية - خريطة عدد (٥)

الفصل السادس

الصليبيتان الرابعة والخامسة

١) الحرب الصليبية الرابعة

٢) استيلاء الصليبيين على القسطنطينية وانشاء سلطنة لاتينية فيها

٣) الحرب الصليبية الخامسة

٤) حصار دمياط واحتلالها

٥) محاولة الصليبيين الهجوم على القاهرة وخيبتهم في وقعة المنصورة

١) الحرب الصليبية الرابعة

الخلاف بين اللاتين والبيزنطيين :

كان الخلاف مستحكما بين الكنيستين الشرقية والغربية ؛ فالمذهب الكاثوليكي كان يسود اروبا الغربية . وعاصمته رومة ، مركز البابا. والمذهب الارثوذكسي كان يسود اروبا الشرقية وعاصمته القسطنطينية ، مركز كنيسة ايا صوفيا .

وكنيسة رومة تعتبر كنيسة القسطنطينية منشقة عنها ، مخالفة للكثير من مبادئها المسيحية . وزيادة عن هذا الخلاف المذهبي فهناك خلاف جنسي ، فالبيزنطيون يعتبرون نصارى الغرب رواسب للقبائل البربرية التي هاجمت الحضارة الرومانية ، والبيزنطيون هم الذين حافظوا على ذلك التراث قدر الامكان، وصدوا كل قوة تريد الانقضاض عليه وعلى العالم المسيحي ، سيما الزحوف الاسلامية .

اما اللاتينيون فانهم يزدرون البيزنطيين ويسخرون منهم ، إذ كانوا رعايا للدولة الرومانية العظمى . وكان اليونانيون - كما كانت بقية المشرق - تحت الحكم الروماني اللاتيني وسيادته . وكان يسودهم اعتقاد أنه لن يستطيع مقارعة المسلمين الا دولة لاتينية ، تحل محل البيزنطيين على البوسفور (١)

---

١) اروبا في العصور الوسطى لفيشر ص ١٨٧

وهذا الاعتقاد كان هو المبدأ الذي انبنت عليه الخلافات السياسية بين اروبا الغربية والامبراطورية البيزنطية ، ونتجت عنه الحروب الكثيرة والمحاولات المتعددة للاستيلاء على املاك الامبراطورية البيزنطية . وقد سبقت الاشارة الى بعض هذه الحروب والمحاولات في الحديث عن الحرب الصليبية الاولى .

وكنتيجة لهذا الشعور فان الحرب الصليبية الرابعة سيتحول اتجاهها ، لسبب غير منتظر ، الى القسطنطينية . ويقع احتلالها من طرف الصليبيين .

الحرب الصليبية الرابعة :

كان الدافع لهذه الحرب الصليبية هو الدافع العام للحروب التي سبقتها ، دافع استرجاع بيت المقدس من ايدي المسلمين . وقد أثيرت هذه الحرب تحت اشراف البابا اينوسان الثالث (Innocent III) وكان داعيتها « فولك دونويي » (Foulouques de Neuilly) . واستجاب لدعوته كثير من الاقطاعيين والاشراف بفرنسا ، منهم بودوين التاسع . وكان عزم الصليبيين ان يتجهوا الى مصر باعتبارها صاحبة السيادة على بيت المقدس . واتفقوا على ان يكون الابحار من البندقية، يكترون سفنا تقلهم من هنالك الى مصر . ووصل الصليبيون الى البندقيـة ، ولكـنهم عجزوا عن دفع معلوم إيجار السفن البالغ مقداره - ٨٥٠٠٠ - مارك فضة .

دوق البندقية يحول اتجـاه الصليبيين :

لما احتار الصليبيون في جمع المال استغل دوق البندقية (١) (Henri Dandolo) هذه الحيرة فعرض عليهم التوجه الى مدينة زارا (٢) (Zara) بولاية دالماسيا التابعة لمملكة المجر . ورغم احتجاج البابا عن هذا الاتجاه المخـالف للغرض الاصلي فـان

---

١) كل ملك من ملوكهم يسمونه (دوك) بالكاف المشوبة بالجيم فيقال (دوك البندقية) صبح الاعشى ج - ٥ ص ٤٨ - ومدينة البندقية (Venise) مدينة ايطالية تقع بخليج البندقية شمال بحر الادرياتيك . وكانت بالعصور الوسطى عاصمة لجمهورية البندقية التي كان لها دور كبير في نقل التجارة بين الشرق والغرب . وكانت لها مستعمرات بجزر الارخبيل والبحر الاسود . وقد قامت بدور عظيم زمن الحرب الصليبية .

٢) مدينة بيوغسلافيا على ساحل البحر الادرياتيك في مقاطعة دالماسيا .

الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (٦)

الصليبيين انقادوا الى دوق البندقية واستولوا على مدينة - زارا - بقيادة الدوق ، ولفائدة البندقية طبعا .

وبينما الصليبيون ودوق البندقية نشاوى بهذا الانتصار إذا أقبل عليهم ألكسيس الصغير (Alexis le Jeune) ضد المتولي على عرش القسطنطينية ألكسيس الثالث ، الذي عزل أباه واغتصب منه كرسي الامبراطورية . وبالغ ألكسيس الصغير في تعهداته ودفع التعويضات للصليبيين متى استطاعوا تحقيق رغبته في افتكاك منصب الامبراطورية من غاصبه.

وتحلب فمُ دوق البندقية لهذا الاستنجاد والتعهدات ؛ فأعمل جهده لتوجيه الصليبيين الى القسطنطينية بعنوان اجابة استنجاد الكسيس المطالب بعرش القسطنطينية . وأفلح الدوق في مهمته فابحرت الحملة الصليبية واتجهت الى عاصمة البيزنطيين . وفي ١١ جويلية ١٢٠٣ م (٥٩٩هـ) شرعت في محاصرة القسطنطينية، وانتهى الحصار بانتصار الصليبيين وارجاع العرش الى مستحقه . ولكن خلافا كبيرا نشب بين الصليبيين والبيزنطيين بسبب التعويضات والتعهدات المالية أدّى الى قيام الحرب وإعادة حصار القسطنطينية . وفي ١٢ افريل سنة ١٢٠٤م استسلمت المدينة وسقطت في ايدي الصليبيين والبنادقة ؛ فعاثوا في المدينة ونهبوا ذخائرها ونفائسها ، وأتوا على معالمها التاريخية وآثارها الفنية.

٢) السلطنة اللاتينية بالقسطنطينية

لما استولى الصليبيون على القسطنطينية انتخبوا « بودوين التاسع » امبراطورا على القسطنطينية تحت اسم « بودوين الاول » امامنافسه بونيفاس (Boniface de Montferrat) فقد تولى ملكية مقدونيا وشمالي تساليا . وكان نصيب البنادقة من هذه الغنيمة كبيرا: اشتمل على اهم الجزر بالبحر الايوني وشبه جزيرة المورة وجزائر بحر الارخبيل وغير ذلك . كما اصبح بطريق القسطنطينية من البنادقة . وهكذا كانت نتيجة الحرب الصليبية الرابعة عندما تحول اتجاهها عن مقصدها الاصلي : مما يزيد تأكيدا ان الروح الدينية لم تكن المسيطر الرئيسي على الصليبيين . واستمرت

هذه الامبراطورية اللاتينية (الفرنسية) مستولية على القسطنطينية الى ان تمكن الاغريق من إرجاع عاصمتهم والتغلب على الصليبيين (سنة ١٢٦١ م ٦٦٠ هـ) بقيادة ميخائيل امبراطور نيقية .(١)

٣) الحرب الصليبية الخامسة

الدعوة للحرب الصليبية والاتجاه الى الشام :

في سنة ٦١٢هـ ١٢١٦ م دعا البابا هونوريوس الثالث (Honorius III) الى حرب صليبية خامسة ؛ فاستجاب لدعوته ملك المجر اندري الثاني (André II) ودوق النمسا ليوبول السادس (Léopold VI) . وكان الغرض منها إنقاذ بيت المقدس واستخلاصها من ايدي المسلمين .

وكان سلطان الدولة الايوبية اذ ذاك هو الملك العادل (ابو بكر بن ايوب) الذي ما ان سمع بنزول الصليبيين بعكا (٦١٣ هـ سبتمبر ١٢١٧م) حتى سار من مصر الى الشام لملاقاة الصليبيين . ونهب الصليبيون البلاد الشامية من بيسان الى بانياس ، وكذلك صيدا والشقيف . وكان الملك العادل يتحاشى مجابهة الصليبيين وجها لوجه لقلة جيشه حينذاك . ثم قصد الصليبيون قلعة الطور (٢) وحاصروها (١٧ يوما) ولكنها امتنعت عنهم ، فعادوا ادراجهم الى عكا .

وإذ لم تات الحرب في البلاد الشامية بفائدة تذكر قرر ملك المجر الرجوع الى بلاده ؛ اما ملك بيت المقدس (٣) (مملكة عكا) فقد قرر مع بقية الصليبيين التوجه الى البلاد المصرية واحتلالها باعتبارها المستولية على بيت المقدس . وكانت خطة الصليبيين مبنية على مهاجمة مدينة دمياط الواقعة على الفرع الشرقي لدلتا النيل : على معنى انهم يحتلونها ثم يسايرون فرع النيل الى القاهرة .

بدء حصار دمياط :

في شهري صفر وماي سنة (٦١٥ هـ ١٢١٨ م) نزلت القوات الصليبية امام دمياط وناصبوها الحصار . وكانت مدينة دمياط حصينة منيعة . ولهذا استمر

---

١) (Michel Paléologue)

٢) قلعة منيعة على جبل قريب من عكا . بناها الملك العادل (عن ابن الاثير)

٣) كان ملك بيت المقدس هو (Jean de Brienne) بعد ان تزوج بوارثة مملكة عكا (مارية)

حصارهـا مدة طويلة . وحدث ان مات الملك العادل (٦١٥هـ ١٢١٨ م) اثناء الحصار ؛ فدخل الاضطراب على الجيوش الاسلامية.

واستغل الصليبيون هذه الفوضى ، وتقوت جهودهم في التضييق على دمياط والتغلب على تحصيناتها حتى استولوا عليها (شعبان ٦١٦ نوفمبر ١٢١٩) . واستجم الصليبيون مدة ثم قـرروا متابعة زحفهم والتوجه الى الـقاهرة . واستطاع الملك الكامل ابن الملك العادل ان يرجع الامور الى معتادها فاستقام له الامر بمصر وأمسك بزمام السلطة وبعث الى إخوته ـ امراء الشام ـ مستنجدا بهم ضد الصليبيين . واستعد لملاقـاة الصليبيين في المكان الذي يسمى « المنصورة » .

واقعة المنصورة :

استعد الملك الكامل لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة وصمد لهم هناك . واستمر القتال محتدما بين الطرفين . وخشى الملك الـكامل تفوق الصليبيين واحتلالهـم القاهرة فأجرى معهم مخـابرات في الصلح ، وعـرض عليهم تسليم بيت المقـدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية في مقابل تسليمهم دمياط والخـروج من مصر . ولكنّ الصليبيين لم يرضوا بهذا بل طلبوا ـ زيادة عن ذلك ـ بتسليم حصن الـكَـرَك وثلاثمائة ألف دينار تعويضا عن تخريب بيت المقدس . وهكذا أضاع القادة الصليبيون فرصة لا تعوَض . واغراهم عنادهم بمهـاجمة القاهرة . وصـادف ان كان الوقت زمنَ فيضان النيل ؛ فقطع المصريون الجسور واندفعت الميـاه في الارض المنخفضة التي كان فيها الصليبيون ، فغمرتهم المياه ، وحصرتهم من كل جانب ، واصبحـوا في الماء والوحل . وانتصبت قوات إسلامية في المنفذ الوحيد الذي يمكـن للصليبيين الخروج منه فأسقط في ايديهم ، وركنوا الى الاستسلام والخروج من مصرَ والانسحاب عن دمياط بدون مقابل (رجب ٦١٨ هـ ـ اوت ١٢٢١ ـ)

جهـل الصليبيين لطريق الغـزو :

هكذا انتهت الحرب الصليبية الخامسة بمثل هـذه الخيبة المرّة . وقد ارتكب الصليبيون هفوتين كبيرتين كانتا السببَ في هذه الخيبة :

١) تفويت الصليبيين فرصة المصالحة التي عرضها الملك الكامل حتى غـدوا محلّ لوم وتعنيف من رؤساء الممالك الاروبية ، خصوصا ملك فرنسا .

٢) سلوك الطريق الذي اتبعه الصليبيون لغزو مصر والقاهرة . وهو يعاكس الطريق الطبيعي للاستيلاء على البلاد المصرية، طريق الصحراء وشمالي سيناء (وهو الطريق الذي كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصور . وهو طريق ابراهيم عندما سار الى بلاد العَرب بابنه اسماعيل ، وطريق يوسف عندما سار من الشام زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر ، والاسكندر المقدوني الذي مدَّ فتوحه الى الهند) (١) كما هو نفس الطريق الذي سلكه القائد عمرو بن العاص لفتح مصر ، وسلكه اموري زمن النزاع على مصر بينه وبين نور الدين محمود ، وامكنه الوصول الى القاهرة ومحاصرتها .

وهكذا كان جهل الصليبيين بالطريق الطبيعي للاستيلاء على مصر من أهم الاسباب التي ادت الى انهازمهم . ومن الغريب ايضا انَّ حربا صليبية اخرى ستتبع نفس طريق هذه الصليبية وسيكون نصيبها الفشل ايضا .

مُلحقات الفصل السادس

١) الخلاصة

كان الخلاف مستحكما بين الكنيستين الارثودكسية والكاثوليكية، تبعه اختلاف سياسي وحربي كثيرا ما جر الى الويلات والخطوب . ولهذا فان قادة الصليبية الرابعة سرعان ما استجابوا لدعوة دوق البندقية ، فهاجموا الامبراطورية البيزنطية واستولوا على القسطنطينية، وانشأوا فيها مملكة لاتينية استمرت ٥٧ سنة .

وفي سنة ٦١٢هـ سارت حملة صليبية خامسة فنزلت بالبلاد الشامية فلم تَحْصُل على شيء ذي اهمية . ولهذا عوّل الصليبيون على الاتجاه الى مصر على طريق البحر فنزلوا بثغر دمياط وحاصروه . وحدث ان ملك مصر - العادل - مات أثناء الحصار فوقع الاضطراب بالجيوش المصرية وتمكن الصليبيون من احتلال دمياط . ثم اتجهوا صوب

---

١) تاريخ الاسلام السياسي - حسن ابراهيم حسن ج١ - ص ١٨٣ .

القاهرة . وكانت سلطنة مصر قد آلت الى الملك الكامل بن الملك العادل فاستطاع ان يصمد للصليبيين قرب المنصورة . وأجرى مع الصليبيين مفاوضات؛ فلما اشتطوا في شروطهم زاد من مضايقتهم بتكسير جسور النيل - وقد كان زمن فيضانه - فغمرتهم المياه من كل جانب، وانسحبوا من مصر وأخلوا دمياط بدون قيد ولا شرط. وهكذا انتهت الصليبيتان ، الرابعة والخامسة، بدون فائدة اكتسبها الصليبيون على حساب الممالك الاسلامية .

٢) أرقام تاريخية

٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) استيلاء الصليبية الرابعة على القسطنطينية وتأسيس ملكة لاتينية بها .

٦١٣ هـ (١٢١٧ م) نزول الصليبية الخامسة بعكا .

٦١٥ هـ (١٢١٨ م) حصار الصليبية الخامسة لدمياط وموت الملك العادل سلطان مصر .

٦١٦ هـ (١٢١٩ م) استيلاء الصليبيين على دمياط .

٦١٨ هـ (١٢٢١ م) انسحاب الصليبيين عن مصر . وانتهاء الحرب الصليبية الخامسة .

٣) عيسى وموسى يخدمان محمدا :

لما أحدق الخطر بالصليبيين في مصر واضطروا الى المفاوضة في الانسحاب والجلاء عن مدينة دمياط جاء قادة الصليبيين الى الملك الكامل ليوقعوا على صلح الجلاء والانسحاب . واستقبلهم الملك الكامل في أبهة وعظمة ؛ ويصف هذا المشهد ابن كثير بقوله « :

فجاء مقدموهم اليه ، وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الاشرف ، وكانا قائمين بين يديه ، وكان يوما مشهودا ؛ فوقع الصلح على ارادة الكامل - بيض الله وجهه - وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه . ومد سماطا عظيما

فاجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر. وقام راجح الحلي (١) الشاعر فأنشد :

هنيئا فان السعد راح مخلدا ... وقد أنجز الرحمان بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الطغا ... ة واضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم ينج الا كل شلو مجدَّل ... ثوى منهم او من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعا ... عقيرته في الخافقين ومنشدا
اعباد عيسى : ان عيسى وحزبه ... وموسى جميعا يخدمون محمدا

من البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ص ٩٥
النجوم الزاهرة ج ٦ - ص ٢٤٢

٤) هدم سور بيت المقدس :

كان الملك المعظم ، عيسى بن الملك العادل ، سلطانا على الشام وبيت المقدس. ولما سمع بان الصليبيين سيتوجهون الى بيت المقدس أمر بهدم سور القدس وتخريبه. وشرع في تخريبه في المحرم سنة ٦١٦ هـ. وقد استاء الناس من هذا العمل فخرجوا هائمين حيارى تاركين اموالهم واهاليهم ، حتى مات خلق كثير من الجوع والعطش ونهبت الاموال التي كانت لهم بالقدس وارتفع الثمن وغلت الاسعار وذم الناس الملك المعظم على فعله هذا ، اذ كان داعيا الى بعث الفزع والروع في القلوب. وكان عملا لا يتناسب مع جعل بيت المقدس وأهله تحت حمايته ورعايته . وقد اتاهم

---

١) ابو الوفاء شرف الدين راجح بن إسماعيل الاسدي الحلي مدح ملوك مصر والشام ، مات سنة ٦٢٧ هـ

الخوف من حيث يرجـون السلامة والامن . وساء هـذا الخراب احد الشعراء فانشد قائلا :

مررتُ على القدس الشريف مسلماً ... على مـا تبقّى من ربوع كانجم
ففاضت دموع العين مني صبابةً ... على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفّي رسومـه ... وشمّر عن كفي لئيم مـذمّم
فقلت له : شُلّت يمينك خلّهـا ... لمعتبـر أو سـائـل أو مسلـم
فلو كان يفدى بالنفوس فديتـه ... بنفسي. وهذا الظن في كل مُسْلِم

(عن النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٥)

تمـرينـات

١) اين يتمثل الخلاف بين البيزنطيين واللاتين ؟

٢) كيف تحولت الصليبية الرابعة عن اتجاهها الاصلي ؟

٣) ما هي نتائج هذا الاتجاه ؟

٤) الحرب الصليبية الخامسة : دواعيها وقادتها .

٥) واقعة المنصورة .

٦) كان الصليبيون يجهلون الطريق الطبيعي لغزو مصر . اشرح هذا .

٧) الى ماذا يشير تأسيس سلطنة لاتينية بالقسطنطينية في ناحية الغرض من إثارة الحروب الصليبية ؟

٧) ارسم خريطة تبين نتيجة الصليبية الرابعة .

الفصل السابع

الصليبيتان السادسة والسابعة

١) الحرب الصليبية السادسة .

٢) استيلاء فريدريك الثاني على بيت المقدس صلحا ثم استردادها من طرف الملك الصالح أيوب .

٣) الحرب الصليبية السابعة .

٤) استيلاء الصليبيين على دمياط .

٥) انهزام الصليبيين وأسر الملك لويز التاسع.

١) الحرب الصليبية السادسة

كان الامبراطور الالماني - فريدريك الثاني - اعظم ملوك اروبا إذذاك ؛ فقد كان تاجه يشمل المانيا وايطاليا الشمالية وصقلية . وضم إليه ايضا تاج مملكة بيت المقدس لما تزوج بابنة جان دوبريان ؛ وارثة مملكة بيت المقدس . ولقد سعى البابا هونوريوس الثالث في هذا الزواج حتى يستغل قوة فريدريك الثاني للقيام بحرب صليبية جديدة ، وإنقاذ بيت المقدس . وقد حصل البابا على وعد منه للقيام بهذه الصليبية : إذ لما ذهب ملك بيت المقدس سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) الى إيطاليا ، مستنجدا بالبابا بعد هزيمته في مصر ، وقع الاتفاق مع فريدريك الثاني ليقوم بحرب صليبية ويسترجع بيت المقدس .

فريدريك الثاني والحضارة الاسلامية :

كان فريدريك الثاني امبراطورا على صقلية التي ما زالت عامرة بالمسلمين ، وكان محبا للمسلمين والثقافة الاسلامية ، متخذا كثيرا من العوائد الاسلامية ، معتمدا على المسلمين في كثير من الامور ، وله اطلاع واسع على الثقافة الاسلامية ، شديد

الاعجاب بها. وكانت سيرته هذه لا يرضى عنها المسيحيون ، وعلى رأسهم البابا ، فأشاعوا عنه انه كفر واعتنق الديانة الاسلامية .

وكانت له صلات بملوك الاسلام ، خصوصا الملك الكامل ، سلطان مصر ؛ فقد كانت المراسلات والوفود تتبادل بينه وبين فريدريك الثاني . وزاد من غضب البابا والمسيحيين على فريدريك الثاني انه تباطأ في التوجه الى المشرق واستخلاص بيت المقدس . حتى إذا تولى البابوية قريقوار التاسع (Grégoire IX) لم يحتمل هذا التلاعب والتباطيء من الامبراطور الالماني ، فأعلن حرمانه (١) ولعنه ، وحرّم الذهاب معه الى الاماكن المقدسة ، مما جعل المسيحيين يحجمون عن مشاركته في حربه الصليبية . ولم يصاحبه الا مئات قليلة من الفرسان لما توجه الى البلاد الشامية فيما بعد.

الخلافات في العائلة الايوبية :

كانت السلطنة العظمى التي شادها صلاح الدين الايوبي مسرحا للخلافات والاضطرابات بعد موته . ولكن أخاه (الملك العادل) استطاع ان يتغلب على الموقف ، وان يمسك بزمام السلطنة ويصبح سيدا قويا. إلا انه لما مات الملك العادل، مدة حصار دمياط سنة ٦١٥ هـ،عادت الخلافات بين ابنائه الثلاث ١) الملك الكامل صاحب مصر - ٢) والملك المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس - ٣) والملك الاشرف صاحب الجزيرة وخلاط . وساءت العلاقة بينهم ، خصوصا بين الملك الكامل والملك المعظم.

وتحالف الملك المعظم ضد أخويه (الكامل والاشرف) مع جلال الدين ابن خوارزمشاه ، طريد جنكيزخان زعيم التتر ؛ فقد تفاقم أمر التتر في هذا الوقت واخذوا يزحفون على المشرق الاسلامي ، فتغلبوا على الدولة الخوارزمية ووصلوا الى شرقي العراق . وخاف الملك الكامل (سلطان مصر) من هذا التحالف الذي امضاه اخوه المعظم مع جلال الدين بن خوارزمشاه، الذي لا تقل قساوة جيوشه ونهبهم وتخريباتهم عن اعمال التتر القاسية .

---

١) عقوبة اللعن والحرمان كانت من اقوى الوسائل التي اتخذتها البابوية في العصور الوسطى للانتقام من كل مخالف لها او منتقض عليها . وكانت مظهرا من مظاهر السلطة الدينية الواسعة التي كانت للبابوية على الشعوب المسيحية اذذاك .

ونتيجة لهـذا الخوف من تحـالف الملك المعظم والخوارزميين بعث الملـك الكامل الى الامبراطور فريدريك الثاني يستقدمه الى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه . ووعده ببيت المقدس (١). وكان رسوله الموفد لهذا الغرض فخرالدين ابن الشيخ.

وحدث ان مات الملك المعظم قبل مجيء فريدريك الثـاني ، لانه مـات في ذي القعدة ٦٢٤هـ (نوفمبر ١٢٢٧م) ، فانتهى بذلك اكبـر منافس للملك الكامل. ولكن رغم هذا فقد سارت الامور الى غايتها.

٢) استيلاء فريدريك الثاني على بيت المقدس صلحا

نزل الامبراطور فريدريك الثاني بعكا سنة ٦٢٥ هـ (سبتمبر ١٢٢٨ م) وكان الملك الكامل آنذاك بالبلاد الشامية ؛ فقد توجه اليها من مصر ليستولي على مملكة اخيه المعظم ، التي اصبحت لابنه داود ، الملك الناصر بن المعظم . ورغم قلة العدد الذي كان مع الامبراطور فريدريك فان مخابرات في الصلح جـرت بين الامبراطور والملك الكامل انتهت الى اتفاق بينهما على القواعد الآتية :

أ - تسليم بيت المقدس الى الصليبيين على شرط ان يبقى سور بيت المقدس مخربا ولا يعاد تجديده وبناؤه ، وان يحتفظ المسلمون بالمسجد الاقصى وقبة الصخرة (جامع عمر) . ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين(٢)

ب - يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق من بيت المقدس الى مملكة عكا الصليبية .

ج - يتعهد فريدريك الثاني بمساعدة الملك الكامل ضـد خصومه سـواء كانوا مسيحيين او مسلمين ، كما يتعهد الامبراطور بالحيلـولة دون الامدادات الصليبية الى الامراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف. وكان الاتفـاق في ربيع وفي فيفري سنة ٦٢٦هـ ١٢٢٩ م

مـا هية هذا الصلح :

كان الملك الكامل مدفوعا الى هذه المصالحة نظرا الى الخلاف الذي نشـب

---

١) تتمة المختصر لابن الوردي ج٢ - ١٤٨

٢) الرساتيق (مفرده رستاق) القرى والكور.

في العائلة الايوبية ، ونظرا لما يعلمه في الامبراطور فريدريك من اللين وقلة التعصب، وما له من تسامح وتفهم.

وهذا الصلح يجعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسيحيين والمسلمين ، احتفظ فيه كل منهم بأماكنه المقدسة. ولكن هذا الصلح لم يكن مرضيا عنه لا من المسلمين ولا من الصليبيين. وقد استغل اعداء الملك الكامل هذا الصلح للتشهير به، فعقدت المجالس العامة في دمشق، وبكى الناس لهذا الحادث واستغله اعداؤه ضده. اما الصليبيون فكان من اشد الامور عليهم تعهد فريدريك بمساعدة الملك الكامل ، ومنع الامدادات الجديدة الى الامارات الصليبية.

وبعد الصلح بقليل توجه فريدريك الثاني الى زيارة بيت المقدس، واقتبله فيها شمس الدين ، القاضي بنابلس نيابة عن الملك الكامل. ثم اقلع الى اروبا. اما الملك الكامل فانه انصرف بعد ذلك الى توحيد مملكة بني ايوب تحت رايته فتم له ذلك . ولكن ما ان مات سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) حتى عاد البيت الايوبي الى الانقسام.

استرداد الملك الصالح أيوب لبيت المقدس :

تولى الملك الصالح ايوب ابن الملك الكامل سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) . وكان حسن التدبير ، يعتبر آخر عظماء سلاطين بني ايوب. وكانت له عداوة مع بقية امراء بني ايوب ، خصوصا عمه الملك الصالح اسماعيل ، الذي استولى على دمشق ، وتحالف مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض البقاع ، منها طبرية .

وكانت قد نزلت قوات صليبية جديدة قادمة من فرنسا (١) من اشهر رجالها كونت شمبانيا (Thibaut IV) وكونت بروطانيا (Pierre Mauclère) فلم يكن من الملك الصالح ايوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية . وجرت بينه وبين عمه الصالح اسماعيل والصليبيين معارك شديدة انتصر فيها

---

١) كان في هذه الحملة كثير من الشعراء انظر عنها ص ٣٤٥ (R. Grousset : L'épopée des Croisades)

الملك الصالح ايوب عليهم جميعا سنة ٦٤٢هـ(١٢٤٤م) (١) واسترجع بيت المقدس الى حظيرة السيادة الاسلامية ؛ فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار ، وفزعت اروبا منه مما كان داعيا الى اثارة حرب صليبية اخرى .

٣) الحرب الصليبية السابعة

لويز التاسع ملك فرنسا يقود الحملة :

كان لاسترجاع المسلمين بيت المقدس ردٌّ فعل في اروبا المسيحية تجلى في الحرب الصليبية التي قام بها ملك فرنسا (لويز التاسع) فقد تجهز لحرب صليبية تجهيزا عظيما ، واصطحب معه الكثير من الامراء والاشراف بفرنسا . وكان معه إخوته الثلاث:

١) روبار دارتوا (Robert d'Artois)
٢) الفونس دو بواتييه (Alphonse de Poitiers)
٣) شارل دانجو (Charles d'Anjou)

كما كان معه المؤرخ الفرنسي لهذه الحملة (دوسرجين) (Geoffroy de Sergines)

وارست اساطيل لويز التاسع بجزيرة قبرص في سبتمبر ١٢٤٨م(٦٤٦هـ) لكنه بقي هنالك نحو ثمانية اشهر اتصل فيها بالامارات الصليبية في البلاد الشامية . وباشارة من قيادة الفرسان الداوية قرر لويز التاسع الهجوم على البلاد المصرية وغزوها ؛ لانها ذات السيادة على الاماكن المقدسة ، وان سلاطينها هم الذين استرجعوا بيت المقدس المرة الاولى والثانية .

الاستيلاء على دمياط :

وفي شهر ماي سنة ١٢٤٩م (٦٤٧ هـ) اقلعت الحملة الصليبية من قبرص

---

١) تاريخ ابي الفداء (المختصر) ج ٢ ص ١٧٢ وبعض الكتب التاريخية تنسب ذلك الى الناصر الايوبي ويثبتون الابيات المشهورة :

المسجد الاقصى له آية ... سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا ... ان يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره اولا ... وناصر طهره آخرا

اشارة الي الملك الناصر صلاح الدين والملك الناصر داود.

في اتجاهها الى دمياط. ولكن عاصفة بحرية فرقت سفن الاسطول، وجعلتها تصل الى سواحل مصر في فترات متعاقبة. وقد كانت مراكب لويز التاسع اولى السفن التي وصلت الى دمياط (صفر ٦٤٧هـ - جوان ١٢٤٩م) وفوجيء سكان دمياط وحاميتها بهذا النزول الصليبي، فاضطربت احوالهم ودخلهم الرعب، فأخلوا المدينة وفروا تاركين بها الكثير من السلاح والمتاع. وامتلك الصليبيون مدينة دمياط بدون مقاومة ولا عناء، حتى ان الملك الصالح اغتاظ لهذا الهروب، وعاقب الكثير من حماة المدينة بالشنق (١).

ولم يتجه الصليبيون الى القاهرة بعد احتلال دمياط مباشرة؛ فقد بقي لويز التاسع نحو الستة أشهر ينتظر بقية السفن الصليبية ليزداد قوة. وقد مكن هذا التاخير المصريين من الاستعداد، وجمع الجيوش لملاقاة الصليبيين. وبادر الملك الصالح بالتوجه الى المنصورة بعيد احتلال دمياط من طرف الصليبيين حتى يستعد لملاقاتهم وصدهم عن احتلال القاهرة.

موت الملك الصالح ومعارك المنصورة:

في الوقت الذي زحف فيه الصليبيون متجهين الى القاهرة كان الملك الصالح ايوب على فراش الموت؛ فبعد تسعة ايام من الزحف الصليبي توفي الملك الصالح (شعبان ٦٤٧هـ نوفمبر ١٢٤٩ م) في هذا الوقت الحرج العصيب. ولكن جاريته «شجرة الدر» انقذت الموقف، إذ اخفت موته إلا عن بعض خاصة القواد، واخذت تدبر معهم الامر وتصدر الاوامر باسم الملك الصالح، ريثما يصل ابنه وولي عهده، الملك المعظم تورانشاه (٢). واستطاعت بذلك حفظ المعسكر الاسلامي من الاضطراب والفوضى.

وكان مسلك الصليبيين هو مسلك الصليبية الخامسة حيث تكثر الترع والخلجان والبحيرات. وكانت للصليبيين هجمات موفقة واندفاعات كثيرة، واستطاعت فرقة

---

١) كانت حامية دمياط من بني كنانة. وكان مقدمهم الامير فخر الدين. وقد بلغ عدد من شنق من أعيانهم خمسين شخصا تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ١٨٠ - والبداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٧

٢) كان اذ ذاك متوليا حصن كيفا بالجزيرة الفراتية.

من فرسانهم الدخول الى شوارع المنصورة ، لكنها قتلت عن آخرها . (١)

وكان للمماليك (٢) البحرية المقام الاول في الحرب والقتال ؛ خصوصا المملوك بيبرس البندقداري . واستمرت المعارك مع الصليبيين بقيادة المماليك الى ان قدم تورانشاه الى المنصورة في ذي القعدة ، فأخذ بزمام الامر ، وتولى قيادة الحرب وتسيير دفتها .

انهزام الصليبيين وأسر لويز التاسع :

كان مركز الصليبيين في غاية الحرج ، إذ كانوا محصورين في المثلث الواقع بين فرع النيل وبحيرة المنزلة والبحر الصغير (النهر الصغير) . ولهذا كانت أولى خطط الملك توارانشاه ان يحول دون الصليبيين والمدد الذي يأتيهم من دمياط ؛ فنقل سفنا مفككة على ظهور الابل وأنزلها بفرع النيل بين دمياط والعساكر الصليبية. وبذلك سد عن الصليبيين منفذهم الوحيد . وجرت بين الاسطول المصري والاسطول الصليبي معارك كبيرة انتهت بظفر الاسطول المصري وافتكاك ثلاثين سفينة صليبية (٣) . واشتد الضغط على الصليبيين ، فقل زادهم وانقطع مددهم ؛ فتفشت فيهم الامراض ونالهم الجوع ، وأباد منهم المسلمون نحو الثلاثين الفا . وضاقت الارض على الصليبيين فاخذوا يخابرون في المصالحة على ان يتخلوا عن دمياط مقابل استرجاعهم لبيت المقدس . ولكن تورانشاه أبى هذا . وأيقن الصليبيون بتصلب القوات الاسلامية فدخلهم الاضطراب وعمدوا الى إحراق اخشابهم وخيامهم ، وتشتت جموعهم فذهب معظم الجيش تجاه دمياط . اما لويز التاسع فإنه التجأ الى «تل منية عبد الله» قرب المنصورة . ولما احتوشته القوات الاسلامية وايقن بالهلاك طلب الامان فأمّنه الطواشي (٤) محسن الصالحي . وكان مع لويز التاسع نحو خمسة آلاف جندي . ثم اقتيد لويز التاسع الى مدينة المنصورة حيث اعتقل في دار القاضي ابراهيم بن لقمان ، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي (المحرم ٦٤٨هـ ١٢٥٠م) .

---

١) كانت هذه الفرقة بقيادة روبار دارتوا اخي لويز التاسع وقد قتل دارتوا مع فرقته باحد شوارع المنصورة ـ ٢) انظر عن المماليك ملحقات الفصل ـ ٣) ابن الوردى ج٢ص ١٨٢ ـ ٤) الطواشي الخصي وهو مولد لم يوجد في كلام العرب ، تاج العروس للزبيدي ـ وعن تكملة القواميس لدوزي تبعا للمقريزي : انها كلمة تركية تكتب في الاصل ـ طابوشى ـ

واجهة دار لقمان بالمنصورة التي سجن فيها لويز التاسع
(إدارة الاثار المصرية)

نهاية الصليبية السابعة:

لما اتجهت بقية الصليبيين الى دمياط سارت اليهم القوات المصرية والتقت بهم بفارسكور «١» وهزمتهم . وانتهت بذلك المقاومة الصليبية . ثم افتدى الملك لويز التاسع رقبته وبقية من جيشه بغرامة مالية مقدارها (٥٠٠،٠٠٠ من العملة الفرنسية اذ ذاك) وتسليم دمياط بلا قيد ولا شرط(١).

وفي الثامن من شهر ماي ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) أقلع لويز التاسع مع فلول جيشه من دمياط، متجها الى مملكة عكا الصليبية حيث بقي هنالك اربع سنوات قضاها في تنظيم الامارات الصليبية الباقية. وعقد محالفة مع سنان شيخ الجبل، زعيم الاسماعلية بالشام . كما تقرب من التتر الذين كان خطرهم على العالم الاسلامي يزداد يوما بعد يوم. وفي شهر افريل ١٢٥٤م (٦٥٢هـ) جاءت اخبار فرنسا معلمة لويز التاسع بوفاة امه ، فارتحل عن الشام قاصدا بلاده .

مقتل تورانشاه وانتهاء الدولة الايوبية :

قبل ارتحال لويز التاسع عن مصر قُتل الملك المعظم تورانشاه ، إذ دبّر المماليك البحرية مؤامرة ضده ؛ لانه اراد الاستغناء عنهم بالمماليك الذين جلبهم معه من الجزيرة الفراتية . وقد تواطأت مع المماليك الملكة «شجرة الدر» لان تورانشاه كان يضايقها ويلح عليها في اعطائه مال ابيه . وقد توعدها إن لم تقر له بذلك. ونجحت المؤامرة وقتل تورانشاه على ابشع صورة (آخر المحرم ٦٤٨هـ ماي ١٢٥٠م) . وبمقتل تورانشاه انتهت الدولة الايوبية ، وحلت محلها دولة المماليك ، التي استمرت مستولية على مصر الى سنة٩٢٣هـ ١٥١٧م .

مُلحقاتُ الفصلِ السّابع

١) الخلاصة

كان الامبراطور الالماني « فريدريك الثاني » هو الذي قاد الحملة الصليبية

١) انظر الخريطة عدد٧ لتتبع سير الحملة الصليبية السابعة

السادسة . ونظرا للعلاقات الطيبة التي كانت بينه وبين ملوك الاسلام ، السلطان الحفصي بتونس والسلطان الايوبي بمصر ، ورغم أن الامبراطور الالماني لم يصحبه كثير من المسيحيين لقرار الحرمان الصادر من البابا، فان الخلاف المستحكم بين سلاطين بني أيوب جعل فريدريك الثاني ينجح في مسعاه ،وسلم اليه بيت المقدس من طرف السلطان الملك الكامل على شروط تجعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين . ولما تولى سلطنة مصر الملك الصالح أيوب استرجع بيت المقدس من جديد الى حظيرة الاسلام . وكان هذا الاسترجاع موجبا لحملة صليبية جديدة ، تزعمها ملك فرنسا « سان لويز » واتجه صوب مصر باعتبارها صاحبة السيادة على بيت المقدس . ونزل الصليبيون بدمياط واحتلوها . واستعد المصريون لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة.ودافع المصريون، سيما المماليك دفاع المستميت،وحوصر الصليبيون،وحيل بينهم وبين دمياط،وتفشت فيهم الامراض، وقتل منهم الكثير حتى طلب لويز التاسع الامان . وبقي أسيرا مدة بالمنصورة . ثم افتدى نفسه. وبارح مصر مع من بقي من جيشه واهله . وانتهت بذلك الحرب الصليبية السابعة . وقبل ارتحال سان لويز عن مصر قام المماليك بثورة ضد الملك المعظم تورا نشاه ، واستبدوا بسلطنة مصر،فانقرضت الدولة الايوبية وانتصبت دولة المماليك .

٢) أرقام تاريخية

٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) تسليم بيت المقدس الى فريدريك الثاني

٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) الملك الصالح ايوب يسترجع بيت المقدس

٦٤٧ هـ (١٢٤٩م) نزول الحملة الصليبية السابعة بدمياط

٦٤٨هـ (١٢٥٠) انهزام الصليبية السابعة بالمنصورة

٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) مقتل تورانشاه واستبداد المماليك بحكم مصر

٣) المماليك

المماليك من جهة اللغة جمع مملوك، وهو العبد الذي لا يملك حريته ؛ بل كان ملكا لغيره . وتطلق دولة المماليك أو سلطنة المماليك على المماليك الذين اشتراهم

الملك الصالح نجم الدين ايوب ليكونوا له جندا وحرسا ، لانه لم يكن محبوبا من « الاكراد » جيش الدولة الايوبية وعمادها . وفي ذلك يقول العلامة ابن خلدون: وأراد (الملك الصالح) الاكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك والاكثار منهم كما كانوا آخرا في الدولة العباسية ببغداد . وأخذ التجار في جلبهم اليه فاشترى منهم أعدادا . وأقام لتربيتهم اساتيذ معلمين لحرفة الجندية من الثقافة والرمي، بعد تعليمهم الآداب الدينية والخلقية ، الى ان اجتمع منهم عدد جم يناهز الالف .(١)

وهؤلاء المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح ايوب يرجعون الى الجنس التركي ، وقد جلبوا من بلاد الخزر والقوقاز وسواحل البحر الاسود . وقد بنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالنيل ، ولذلك يقال لهم المماليك البحرية او التركية . وظهر منهم نبغاء القواد إذ كان لهم ولوع بالحرب والفروسية . ومازال امرهم يعلو حتى دبروا مؤامرة ضد السلطان «تورانشاه» وقتلوه واستبدوا بالامر آخر سنة ٦٤٨هـ . واستمروا سلاطين على مصر والشام الى سنة ٧٨٤هـ . وكان من اشهر سلاطين المماليك البحرية المظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، وقلاوون الصالحي ، وابنه الاشرف خليل .

ثم استبد المماليك الشراكسة،وهم الذين اشتراهم السلطان قلاوون الصالحي (اقتداء بسيده الصالح ايوب) ووضعهم في القلعة (قلعة صلاح الدين) ولذلك سموا بالبرجية تمييزا لهم عن المماليك البحرية . واستمروا على حكم مصر والشام الى سنة ٩٢٣هـ . وكان من اشهر المماليك البرجية الظاهر برقوق ، والسلطان الاشرف قانصوه الغوري . وكان آخرهم السلطان الغوري وطومان باى ، وهما الذان انتصر عليهما السلطان العثماني سليم الاول (٩٢٢ - ٩٢٣هـ) وكانت دولة المماليك من اشهر الدول الاسلامية بمصر . وقد اعتنى سلاطينها باقامة المدارس والمساجد . واصبحت مصر في عهدهم ملجأ العلماء والمهاجرين من المشرق الاسلامي بعد سقوط بغداد وهجومات المغول . وهم الذين صدوا الزحف المغولي عن بقية العالم الاسلامي ، وجددوا الخلافة العباسية في القاهرة بعد انقراضها من بغداد . واستمرت هنالك الى ان انقرضت سلطنة المماليك فزالت بزوالهم .

---

١) التعريف لابن خلدون ، نشر وتحقيق محمد الطنجي ص٣١٦

٤)دار لقمان على حالها

بعد ان اطلق سراح سان لويز شاع في مصر أنه يريد العود الى دمياط وغزوها . فقال جمال الدين بن مطروح مهددا (١) :

قُل للفرنسيس اذا جئته ... مقال صدق من قؤول فصيح:
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عبّاد يسوع المسيح
أَتيتَ مصر تبتغي ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أو دعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهم ... إلا قتيلا أو أسيرا جريح
ان كان « باباكم » بذا راضيا ... فرُبَّ غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان أضمروا عودة ... لاخذ ثأر أو لعقد صحيح
« دار لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح »

« النجوم الزاهرة ج ٦ - ص ٣٧٠ »

تمرينات

١) ما هي نظرة الامبراطور فريدريك الثاني الى الحضارة الاسلامية ؟
٢) هل استمرت سلطنة صلاح الدين في عظمتها ووحدتها بعد موته ؟
٣) ماالذي دعا الملك الكامل الى التنازل عن بيت المقدس لفائدة الحملة الصليبية السادسة؟
٤) ما هو موقف المسلمين والصليبيين من هذا التنازل ؟
٥) الحرب الصليبية السابعة : دواعيها وقادتها ؟
٦) مسير هذه الحملة في البلاد المصرية ونهايتها .
٧) تحدث عن سلطنة المماليك ، واذكر أشهر اعمالها .
٨) إلى اي شيء يشير هذا المثل (دار لقمان على حالها) .

١) الامير الصاحب جمال الدين يحي بن عيسى ابن مطروح توفي سنة ٦٤٩ هـ او سنة ٦٥٠ عن النجوم الزاهرة (ج ٧ ص ٢٤ و ص ٢٧) اصله من صعيد مصر وانتقل الى القاهرة واتصل بالملك الصالح ايوب وبرع في الادب والكتابة

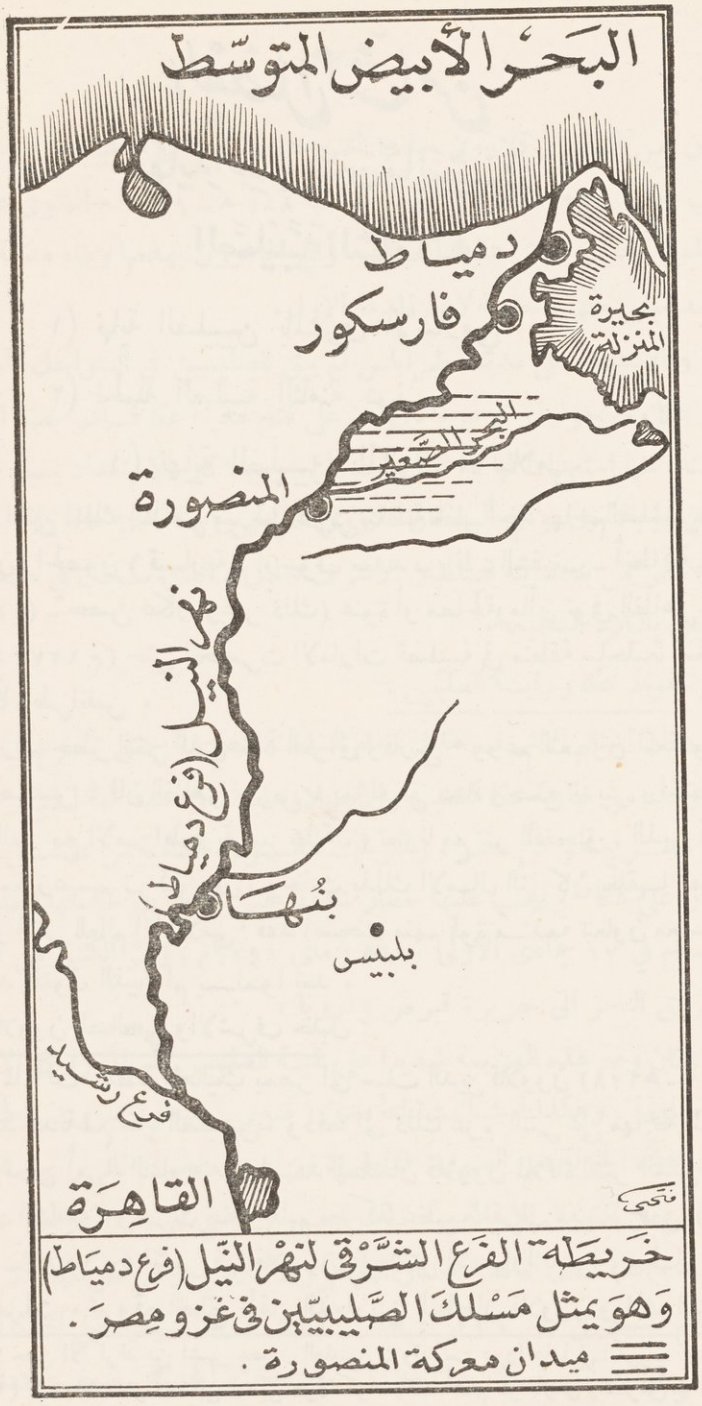

الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (٧)

الفصل الثامن

نهاية الصليبيين بالمشرق

الصليبية الثامنة

١) نهاية الصليبيين بالمشرق الاسلامي

٢) الحملة الصليبية الثامنة بتونس

١) نهاية الصليبيين بالمشرق الاسلامي

لما اعتلى الملك الظاهر بيبرس عرش سلطنة مصر أخذ يهاجم الصليبيين ويفتك منهم المدن والحصون (قيسارية - أرسوف صَفَد - يافا - الشقيف - أنطاكية - حصن الاكراد(١) - حصن عكار - وغير ذلك) عنوة أو مصالحة وما أن توفي الظاهر بيبرس (٦٧٦ هـ ١٢٧٧ م) حتى انحصرت الامارات الصليبية في منطقة ساحلية صغيرة لا تعدو عكا وطرابلس .

ورغم خطر التتر الذي ساد العراق وفارس ، ورغم التعاون المعقود بين التتر والصليبيين ؛ فان الظاهر بيبرس ، بما له من دهاء وحسن تدبير ، استطاع أن يعقد محالفة مع الامبراطورية البيزنطية ، وتعاونا مع تتر القفجاق ، الذين اعتنقوا الاسلام مع زعيمهم بَركة خان . وخابت بذلك الامال التي كان يعلقها الصليبيون على غزو التتر للعالم الاسلامي ، فقد أصبحت منهم قوة مُسْلِمة تتعاون مع سلاطين مصر ضد المغول الذين لم يُسْلِمُوا بعد .

قلاوون الصالحي والاشرف خليل :

ولما آلت سلطنة المماليك بمصر الى سيف الدين قلاوون (٦٧٨هـ - ١٢٧٩م) بادر بعقد هدنة مع بقايا الصليبيين . ودفعه الى ذلك عزمُ التتر على مهاجمة المماليك، ومخالفةُ بعض أمراء الشام عنه . واستعد السلطان قلاوون لملاقاة التتر الذين تقدموا الى البلاد الشامية ، وجرت بينه وبينهم معركة عظيمة قرب مدينة حمص (رجب ٦٨٠ هـ - ١٢٨٢ م) انتصر فيها قلاوُون على التتر انتصارا باهرا ، وطاردهم الى أعالي الفرات . ثم وقع الصلح لحقن الدماء بين السلطان قلاوون وملك التتر.(٢)

١) حصن الاكراد من اشهر حصون الصليبيين : وقد لعب دورا هاما في الحروب الصليبية

٢) كان ملك التتر أحمد بن ابغا بن هولاكو . وقد أسلم تتر فارس والعراق كما أسلم من قبلهم تتر القفجاق .

وما أن أمِن السلطان قلاوون جانب التتر حتى التفت الى الصليبيين، فاستولى على المرقب (صفر ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م) وفي سنة ٦٨٨ هـ - ١٢٨٩ م استولى على مدينة طرابلس بعد ان ضيّق عليها الحصار . وامر قلاوون بهدمها وبناء مدينة جديدة على بعد ميلين منها ، حاملة لاسم المدينة الاول .

وبالاستيلاء على مدينة طرابلس لم يبق للصليبيين في السواحل الشامية الا مدينة عكا وما حولها . ثم عزم قلاوون على فتح مدينة عكا فأمر بصنع المنجنيقات والاكثار منها استعدادا لمهاجمة عكا واحتلالها . وبينما كان الاستعداد يسير حثيثا لهذا الهجوم إذا بالاجل يوافي السلطان قلاوون الصالحي (سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م) فتولى سلطنة مصر من بعده ابنه السلطان الاشرف خليل ، الذي سُجّل في عهده نهاية الصليبيين بالبلاد الشامية .

سقوط عكا ونهاية الصليبيين :

ما ان استلم الاشرف خليل زمام السلطنة المصرية حتى شرع في إتمام ما أراده والده من مهاجمة عكا الصليبية والاستيلاء عليها . واستعد لهذا الامر استعدادا عظيما فخرج هو من مصر ، وخرجت الجيوش الشامية من دمشق ، والتقى الجمعان على عكا ، ونصب عليها حصار شديد حتى اضطرت حاميتها الصليبية الى الاستسلام في ١٧ جمادى الاولى ٦٩٠هـ (ماي ١٢٩١م) وفرّ الكثير من الصليبيين على طريق البحر الى جزيرة قبرص وأروبا .

وكان وقع هذه الهزيمة شديدا على بقية الصليبيين فبادروا الى الاستسلام بدون مقاومة . وهكذا استسلمت تباعا مدن (صور - صيدا - بيروت - طرطوس) وكانت هذه الجولة هي الصورة الاخيرة من صور الصراع المرير بين المسلمين والصليبيين في المشرق الاسلامي ، ذلك الصراع الذي استمر قرنين من الزمن (٤٩٠-٦٩٠هـ) اتصل اثناءهما العالمان المسيحي والاسلامي . وكان لكل منهما أثر في الآخر وكان غنم المسيحيين اكبر واوفر ؛ فقد استفادت اروبا المسيحية من احتكاكها بالعالم الاسلامي فوائد كثيرة ، كان لها ابعد الاثر في نهضتها الحديثة ، وخروجها من الحالة التي كانت عليها من جهالة وبُعدٍ عن الحضارة، مما سنراه اكثر تفصيلا في الفصل الاتي .

هـزيمـة الصليبيين :

كانت أهم الاسباب التي أنهت الصراع الصليبي بالفشل ترجع من ناحيـة الى انبعاث روح المقاومة الاسلامية ، ومن ناحية اخرى الى فقدان الحماس والاتحـاد عند الصليبيين .

واذا كان الصليبيون قد نجحوا اول الامـر في التغلب على المسلمين لفقـدان القوة المدافعة والوحدة الممانعة ؛ فان هذه القوة الاسلاميـة انبعثت منذ نهضـة آل زنكي وتبعتها نهضة آل ايوب التي تمخضت عن سلطنة المماليك القوية .

اما الصليبيون فان حماسهم الاول اخذت ناره تخبو شيئا فشيئا فامحت وحدتهم وتغلبت عليهم المصالح الشخصية وساد بينهم الشقاق والخلاف ممـا ساعد المماليـك ـ آخر الامر ـ مساعدة كبرى على القضاء عليهم . وطردهم من ديار المشرق الاسلامي .

والواقع ان امل الصليبيين في البقاء المستمر بالبلاد الشامية ، والسيادة الدائمة على بيت المقدس قد أخذ يتلاشى شيئا فشيئا منذ ان عجزوا عن الاستقـرار ببيت المقدس بعد ان استرجعها صلاح الدين الايوبي ، وانكمش سيادتهم على ساحـل البحر الشامي .

٢) الحملة الصليبية الثامنـة بتونس

الدولة الحفصية وعلاقتها بصقلية :

كانت سيادة تونس (افريقية) تابعة للموحدين (١) بالمغرب الاقصى . ولكن لما ثار ابن غانية بتونس على الموحدين توجه اليه أمير الموحدين (الناصر بن المنصور) من مراكش وقضى عليه . وقبل رجوعه الى مراكش اختار ابا محمد عبدالواحد بن حفص للولاية على افريقية ؛ فتقلد ولايتها من سنة ٦٠٣هـ الى ٦١٨هـ . ولما تولى ابنه ابو زكرياء الاول سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٩م) ساد الاضطراب دولـة الموحدين بالمغرب الاقصى ؛ فاستبد ابو زكرياء بامارة افريقة سنة ٦٣٢هـ وبويع على ذلك . ثم ضم إليه قسنطينة وتلمسان وبجاية . واتجهت إليه الانظار بالمغرب الاسلامي فجاءته البيعة من

---

١) استولى الموحدون على تونس سنة ٥٥٤هـ « ١١٥٩م » بعد الدولة الصنهاجية

ملوك الاندلس وخطبوا له واستغاث به بعض(١) هؤلاء الملوك لرد كيد النصارى؛ كما اعترف به الكثير من المدن بالمغرب الاقصى ، واصبح ابو زكريا الحفصي من أشهر ملوك المغرب الاسلامي .واصبحت عاصمته(تونس) قبلة القصادو المنتجعين، وملجأ المهاجرين .

ونظم أبو زكرياء الاول علاقات تجارية مع الجمهوريات الايطالية : البندقية وبيزة وجنوة . وكانت له علاقات مع الامبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية ، الذي عين له سفيرا بتونس . كماعقدت معاهدة بين الطرفين ، التزم فيها ابوزكرياء بدفع اداء سنوي مقابل حرية سفنه التجارية، والاتجار في مناطق سيادة الامبراطور الالماني(٢)

المستنصر بالله الحفصي :

في سنة ٦٤٧ هـ - (١٢٤٩ م) - توفي ابو زكرياء الاول ، فتولى بعده ابنه ابو عبد الله محمد (المستنصر بالله) . وازداد مقام الحفصيين في عهده اعتبارا وازدهارا. وجاءته البيعة من مدينة فاس ، ودعى له على منابرها .

ولما سقطت بغداد في يد التتر (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) جاءته البيعة من شريف مكة فتسمى بأمير المؤمنين (٣)، وتلقب بلقب المستنصر بالله، واعتبر خليفة للمسلمين واعظم ملوك العالم الاسلامي .

وفي عهد المستنصر بالله ساءت العلاقات بين مملكة صقلية والبلاط الحفصي . فقد مات الامبراطور فريدريك الثاني ، الذي عرفت حسن علاقاته مع المسلمين ، وتسامحه معهم ، ومحبته للثقافة الاسلامية .وبعدموت هذا الامبراطور لحقت مسلمي صقلية وجنوب ايطاليا اضطهادات كثيرة ومعاملات سيئة . وتولى امر صقلية بعد فريدريك الثاني شارل دانجو (Charles d'Anjou) اخو لويز التاسع . وكان قد سار الى مصر صحبة اخيه الملك لويز عند ما قام بحملة صليبية سابقة .

كان تولي شارل دانجو مملكة صقلية نتيجة لرغبة البابا الذي كان يكره

---

١)هو ابن مردنيش صاحب بلنسية وكان رسوله الى ابي زكرياء الاديب اباعبدالله بن الابار

٢) ص ١٢٦ (Hist. de la Tunisie - A. Pellegrin)

٣) تسمى بذلك يوم الاثنين في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٥٦ هـ وكانت بيعة مكة من انشاء ابن سبعين (عن الزركشي ص ٢٥)

فريدريك الثاني ، فعمل على إقصاء جنسه وأهلـه عن حكم مملكة صقلية . ولم يستتب الامر لشارل دانجو ، فقد ثار عليه كثير من الصقليين ، وقَدِم منهم جماعة الى تونس واستنجدوا بالمستنصر بالله الحفصي ، فاقتبلهم بحفاوة واعطاهم قوة عسكرية، فاغتاظ لذلك شارل دانجو ، واستحكم العداء بينه وبين الملك الحفصي ، وطـالب بالاتاوة التي كان يدفعها الحفصيون لملك صقلية مقابل الاتجار في منـاطق سيادته فامتنع المستنصر ولم يعترف بما طلبه منه .

حملة لويز التاسع على تونس سنة ٦٦٨هـ ١٢٧٠م :

لما ترامت الاخبار الى فرنسا معلمة بالضربات القاسية التي كان يكيلها الظاهر بيبرس الى الصليبيين في البلاد الشامية عادت الى الملك لويز التاسع الحمية الدينية، ونسي ما قطعه من عهد بعدم الـرجوع الى محـاربة المسلمين ؛ فقرر ان يقوم بحملة صليبية أخرى رغم الهزيمة والاتعاب التي قاساها في حملته الصليبية الاولى. وقد كان المقصد الاصلي من هذه الصليبية الجديدة هو الاتجاه إلى المشرق الاسلامي حيث اشتد الخطر على الصليبيين . ولكن حدثـا جديدا حوَّل هذه الصليبية عن اتجاهها الاصلي ، فاتجهت الى تونس عوض ان تتجه الى مصر او الشام .

واذا كانت الصليبية الرابعة قد حول اتجاهها «دوق البندقية» لمصالح جمهوريته ، فان هذه الصليبية الثامنة قد حول اتجاهها واستغلها شارل دانجو ، عـدو المستنصر الحفصي ، وأخو لويز التاسع قائد الحملة .

لقد تمكن شارل دانجو من التأثير على اخيه لويز (التقي المتحمس) وأقنعه بضرورة التوجه الى تونس ، التي اصبح ملكها يلقب بامير المؤمنين وخليفة المسلمين. وفي ذلك ما فيه من إشباع العاطفة الدينية مع إمكان التوجه الى الاماكن المقدسـة من هناك ، وافتكاكها من ايدي المسلمين المستولين عليها .

ونجح شارل دانجو في مسعاه ، فاتجه لويز التـاسع الى تونس تنفيذا لخطة اخيه ومراميه الشخصية، لعله بذلك يسترد حقه الذي ادعاه ، ويتغلب على خصمه المستنصر بالله الحفصي .

نزول الصليبيين بقرطاجنة :

جاءت الاخبار الى المستنصر تعلمه بتوجه الصليبيين الى تونس ، فعقد مجلسه الشوري الذي بحثت فيه كيفية لقاء الصليبيين : هل يسمح لهم بالنزول ، او يصدون عنه . واخيرا استقر الرأي على ان يسمح لهم بالنزول مخافة ان ينزلوا في مكان آخر غير حصين . ولا مستعد لقتال . واخذ المستنصر يستعد لهذا اللقاء ، وبَعَث بالنفير الى اطراف مملكته ، فجاءت النجدات من مختلف الجهات .

وفي آخر ذي القعدة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م) ارست اساطيل لويز التاسع امام مدينة قرطاجنة العتيقة (وانزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة من قرطاجنة وكانت مائلة الجدران . ووصلوا ما فصله الخراب من اسوارها بألوح الخشب ونضدوا شرفاتها ، واداروا على السور خندقا بعيد المهوى . وكانت عدتهم ستة آلاف فارس وثلاثين ألفا من الرجالة . وكانت اساطيلهم ٣٠٠ مركب بين كبير وصغير(١) ولم يشرع الصليبيون في مهاجمة او قتال جدي ؛ فقد كان لويز التاسع يترقب وصول اخيه شارل دانجو من صقلية.

خطة المستنصر بالله الحفصي:

ولم يكن المستنصر بالله يفكر في مهاجمة الصليبيين ؛ فقد كانت خطته مبنية على مجرد الدفاع والمحاصرة . وكان جنده يتكون من جيشه ، وقوات الموحدين ، ومن المتطوعة . وملئت سواحل قرية رادس بالجند تحت قيادة محمد بن الحسين، رئيس الدولة . وعقد ألوية سبعة تحت نظر يحيى بن ابي بكر ويحيى بن صالح لحصار الصليبيين من الناحية البرية. وخرج كثير من الصلحاء والفقهاء، والمرابطون لمباشرة القتال بانفسهم (٢) .

ولم تكن بين الفريقين معارك ذات اهمية سوى ما ذكره ابن خلدون من أنه في اول المحرم سنة ٦٦٩هـ ١٢٧٠م وقعت معركة كبيرة قتل فيها كثير من الفريقين . كما قام بعض الجند بمفاجأة للصليبيين عندما سلكوا طريق البحيرة حتى

---

١) عن ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩٣ ويلاحظ ان ابن خلدون كان يروي هذه الحوادث عن جده.
٢) المصدر السابق

وصلوا الى المعسكر الصليبي من طريق غير منتظر خروجهم منه . وظفر هؤلاء المغامرون ببعض الشيء من الصليبيين الذين تفطنوا لهذا ، وأقاموا حراسة من جانب البحيرة .

موت لويز التاسع :

وطالت محاصرة الصليبيين حتى نالهم التعب والجوع، وتفشت فيهم الامراض والاوبئة . ولم يسلم لويز التاسع من هذا الوباء فمات باصابة(١) وبائية في المحرم ٦٦٩هـ (٢٥ اوت ١٢٧٠م) (٢) في نفس اليوم الذي وصل فيه اخوه ملك صقلية وبعد ساعات من موته . وباشر شارل دانجو القيادة ، وكان من فائدته استمرار الحرب والقتال إلا ان مرض فيليب (٣) (ابن الملك لويز ووارثه على العرش) من جهة ، وعزم العرب المتطوعة على الانصراف والاقلاع عن الحرب من جهة أخرى جعلا كلًّا من المستنصر الحفصي والملك الفرنسي يميل الى الصلح والكف عن القتال . وجرت المخابرات والمفاوضات بين الطرفين انتهت بهما الى الاتفاق والصلح .

اتفاقية المستنصر والصليبيين ، ربيع الاول ٦٦٩هـ - اكتوبر ١٢٧٠م :

كان اهم ما اشتملت عليه اتفاقية الصلح : عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمسة عشر سنة تدفع اثناءها الغرامة الحربية التى التزم بها المستنصر بالله الحفصي ، وان يقع احترام مصالح الطرفين الدينية والتجارية ، والا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالا او مآلا . وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة بملك صقلية في شأن الاموال التي ادعاها على الدولة الحفصية .(٤)

وكان الذي تولى كتابة عقد الصلح القاضي ابن زيتون . وكان حاضرا معه ابو الحسن على بن عمرو، واحمد بن الغماز ، وابوزيان بن محمد بن عبدالقوي(٥)

---

١) تذكر المصادر العربية اسبابا اخرى لموت الملك لويز .

٢) ص٥٩ (La Berberie Orientale sous les Hafsides R. Brunschvig)

٣) هو المعروف بفيليب الجسور (Philippe le Hardi)

٤) توجد النسخة الاصلية لهذا الاتفاق بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية ؛ ومنها صورة شمسية بمتحف سان لويز بقرطاج ونشرها - بـ . قاريو سنة ١٩٤٢ بتونس ضمن رسالة تتعلق بحملة لويز التاسع على تونس .

٥) ابن خلدون المصدر السابق .

وباتمام العقد على الصلح اتصل الفريقان اتصالا سلميا (ودخل المسلمون محلة النصارى وباعوا معهم واشتروا . وكانت مدة إقامتهم بتونس اربعة اشهر وعشرة ايام (١) . واقلعت القوات الصليبية عن تونس بعد مدة يسيرة من إتمام الصلح . وصادفتها - عرض البحر - عاصفة شديدة اتت على الكثير من سفنها ورجالها ، ووصلت البقية الى صقلية سالمة .

الحروب الصليبية اكثر من الحملات الثمانية :

كانت الحملة الصليبية على تونس هي آخر الحملات الصليبية التي اتخذت رقما عدديا (الحملة الثامنة) . والواقع ان الحملات الصليبية هي اكثر من هذا العدد ؛ فقد بقيت الامدادات الصليبية ترد الى المشرق الاسلامي طيلة هذين القرنين من الزمن . وكانت الاتصالات بين الصليبيين بالشام والنصارى بأوروبا لا تعرف الانقطاع طول تلك المدة .

واذا كانت الحروب الصليبية هي الحروب التي تدعو اليها البابوية متخذة الصليب شعارا لها وجاعلة هدفها العام حماية المسيحية والمسيحيين ، فان كثيرا من الحروب التي أثيرت ضد بني عثمان لا تخرج عن نعتها بالحروب الصليبية . وكانت الحروب التي اثيرت ضد المسلمين بالاندلس تتجلى فيها الحروب الصليبية بصفة واضحة جلية . واذا كانت الحروب الصليبية في المشرق قد انتهت الى خيبتها المرة ، فان الحروب الصليبية في المغرب (الاندلس) قد انتهت الى انتصار صليبي حاسم ، انتهت بزوال الاسلام والمسلمين وانتصار المسيحيين ، مما سيرد موضحا مفصلا .

مُلحقاتُ الفصل الثامن

١) الخلاصة

ما ان تولى الظاهر بيبرس سلطنة مصر حتى شرع في محاربة الامارات الصليبية . وافتك الكثير من الحصون والمدن فلم تدركه الوفاة الا بعد ان انحصر الصليبيون في مناطق ضيقة حول مدينتي عكا وطرابلس .

---

١) عن ابن الشماع ص ٦٧ تحقيق عثمان الكعاك ، تونس

وفي عهد السلطان قلاوون فتحت طرابلس ، حتى إذا اعتلى ابنه الاشرف خليل عرش مصر سقطت مدينة عكا في ايدي المسلمين سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وكان سقوطها مسجّلا لنهاية استقرار الصليبيين في البلاد الشامية بعد مضي قرنين من الزمن على اندلاع الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي من سنة ٤٩٠ هـ الى سنة ٦٩٠ هـ .

وقبل ان ينتهي امر الصليبيين بالمشرق خرجت حملة صليبية من فرنسا ، هي الحملة الثانية « لسان لويز » ملك فرنسا. وهي الحملة الثامنة من الحملات الصليبية التي وجهت نحو البلاد الشامية . ولكن هذه الحملة عوض ان تتجه الى المشرق حسب القصد الذي دعاها ، فانها - بتوجيهات ملك صقلية - اتجهت الى تونس ونزلت بمدينة قرطاجنة الاثرية. وكان على تونس السلطان المستنصر بالله الحفصي. ولم تجربين الطرفين معارك ذات بال ؛ فقد بقي الصليبيون حول قرطاجنة واكتفى الحفصيون بمحاصرتهم. وصادف ان مات «سان لويز » باصابة وباء ، فَمالَ بعد ذلك كلٌّ من الصليبيين والحفصيين الى الصلح وعقد اتفاق بين الطرفين. واقلع الصليبيون ورجعوا من حيث اتوا. واكتفوا من هذه الحملة بما وقع لهم تحت خرائب مدينة قرطاجنة . وكانت هذه الحملة الثامنة هي خاتمة الحملات الصليبية الثمانية التي اتخذت أرقاما عددية.

٢) أرقام تاريخية

٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) استقلال ابي زكرياء الحفصي بتونس عن الموحدين.

٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) نزول الحملة الصليبية الثامنة بتونس (قرطاجنة)

٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) الاشرف خليل يسترجع مدينة عكا وينهي امر الصليبيين بالسواحل الشامية

٣) زالت دولة الصلُب

كان لفتح عكا من طرف الملك الاشرف صدى بعيد الاثر في المجتمع الاسلامي وكان هذا الفتح مسجلا انتهاء آخر مقاومة للصليبيين بالبلاد الشامية.

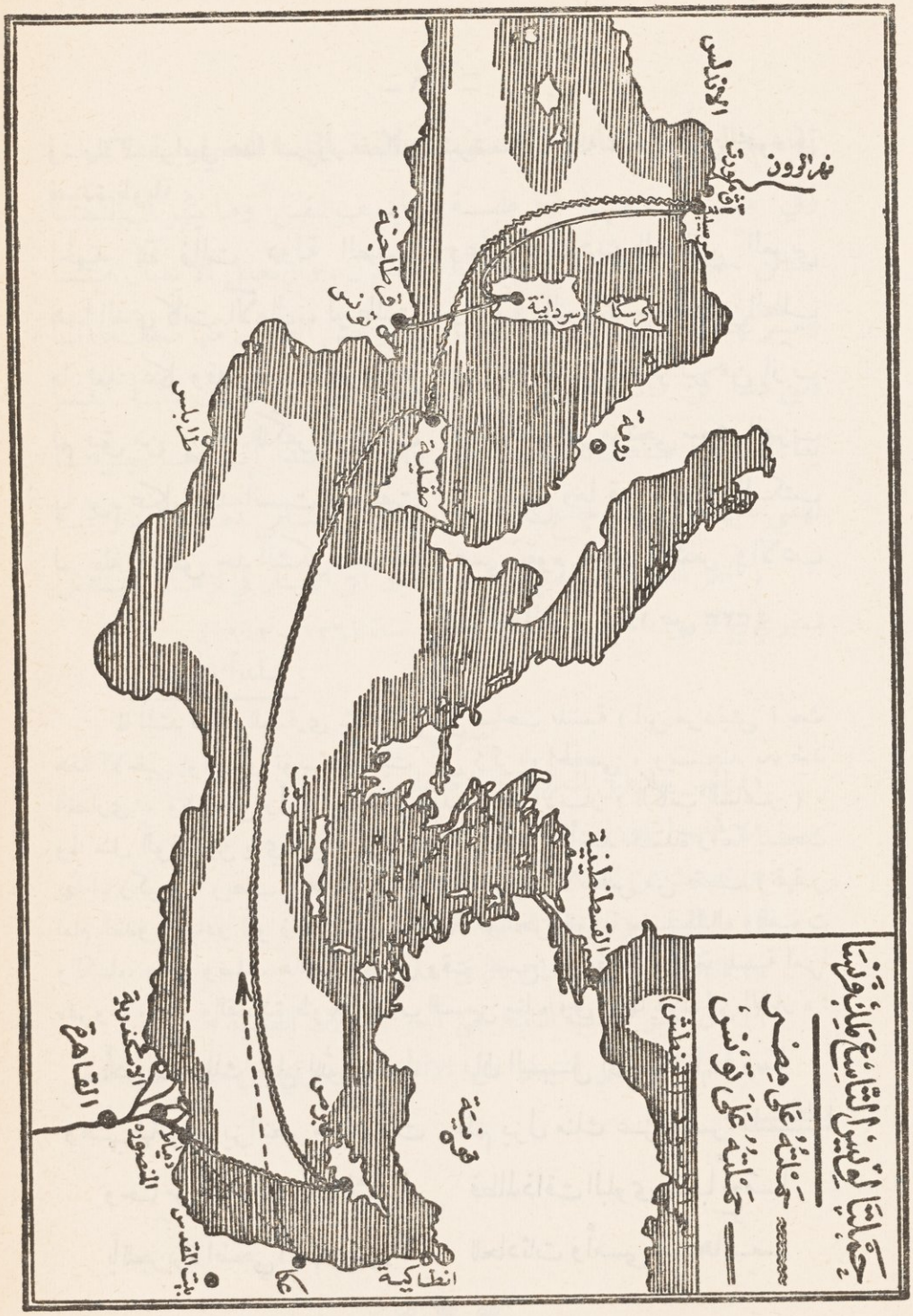

الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (٨)

وشارك الشعراء في هذا السرور بقصائد كثيرة منها ما قاله شهاب الدين محمود في قصيدة طويلة :

الحمد لله زالت دولة الصلُب ... وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال ، لو طلبت ... رؤياه في النوم لا ستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للترك عند البر من ارب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
يا يوم عكا، لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والادب

(البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٢٣)

٤ ـ أدرك أندلسا :

لما اشتد ضغط النصارى بالاندلس على صاحب بلنسية (ابن مردنيش) بعث هذا الاخير بوفد الى تونس يستغيث بأبي زكرياء الحفصي ، ويستنجد به ضد النصارى . وكان على رأس الوفد ابو عبد الله بن الابار (الكاتب الشاعر) . ولما مثل الوفد بين يدي ابي زكرياء قام ابن الابار وأنشد قصيدة رائعة يستحث بها ابا زكرياء ، ويصف فيها ما أصبح عليه مسلمو الاندلس من ضعف وتقهقر امام العدو ؛ فبادر ابو زكرياء بالاغاثة ، وشحن للوفد سفنا بالمال والقوت والكساء، ولكن وصلت هذه النجدة في وقت اصبح فيه سقوط مدينة بلنسية امرا مفروغا منه . والقصيدة طويلة تقارب السبعين بيتا . وفي اولها يقول ابن الابار « :

أَدرِكْ بخيلك خيل الله أندلسا ... ان السبيل الى منجاتها دَرسَا
وَهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمَسَا
وحاشِ مما تعانيه حُشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صَباحَ مَسا
يا للجزيرة أضحي أَهلها جَزَرًا ... للحادثات وأمسى جَدُّها بَعِسا

❀ ❀ ❀

تقاسم الروم . لا نالت مقاسمهم ولا عقائلها المحجوبة الانسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ماينسف النفس أو مَا يَنْزِفُ النَفَسَا
مدائن حلها الاشراك مبتسما جذلان ، وارتحل الايمان مبتئسا
وصيَّرتها العوادي العابثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حَرَمَا ومن كنائس كانت قبلها كُنُسَا
يا للمساجد عادت للعدا بِيَعَا وللنداء غَدَا أثناءها جَرَسَا
لهفي عليها الى استرجاع فائتها مدارسا للمثاني أصبحت دُرُسَا

(انظر القصيدة كاملة مع شيء من اخبار ابن الابار في ازهار الرياض للمقري ج ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها طبع مصر سنة ١٣٦١ - ١٩٤٣)

تمرينات

١) اشهر سلاطين المماليك فتكا بالصليبيين .
٢) كيف انتهى امر الصليبيين بالبلاد الشامية ؟
٣) تحدث عن المملكة الحفصية وعلاقاتها بصقلية .
٤) ما الذي حول اتجاه الصليبية الثامنة الى تونس؟
٥) لماذا لم تقع معارك ذات بال في هذه الصليبية؟
٦) هل تعتبر الصليبية الثامنة هي آخر الحملات الصليبية ؟
٧) اهم النقط التي اشتمل عليها الاتفاق الذي وقع بين المستنصر الحفصي والصليبيين .

الفصل التاسع

نتائج الحروب الصليبية
في تأثير الاسلام على تمدين أوروبا

١) مسالك الحضارة الاسلامية الى أُروبا .

٢) ما استفادته اروبا من الحروب الصليبية .

٣) اثر الحروب الصليبية على العالم الاسلامي .

١ - مسالك الحضارة الاسلامية الى أُروبا

- الحضارة ملك للانسانية :

لم تكن الحضارة وقفا على أمة من الامم ، أو شعب من الشعوب . وإنما هي جهود متظافرة متتابعة لكل أمة فيها عمل ونصيب . ولكل حضارة من الحضارات حلقة في سلسلة التمدين والعمران .

والذي لا مراء فيه أن الشرق هو أصل الحضارات والمدنيات لانه موطن البشرية الاول ؛ ثم تفرعت وتفرقت في سائر الاقطار والاصقاع . ومن هذه الناحية كان الشرق أسبق الجهات الاخرى للمدنيات القديمة والحضارات الغابرة ، وكان مهبط الانبياء والمرسلين ، ومصدر الاتصال بين الجانب الالهي والجانب الانساني.

وعندما بزغت شمس الحضارة الاسلامية إلى الوجود كان العالم في فترة خمود وسكون وانحلال واضطراب ؛ وتكاد معالم الحضارات السابقة تُنْسَى وتَتَلاشى ولم تبق منها إلا هياكل جوفاء أو رسوم بالية ؛ فقد ذهب لُبَابُها وأخذ البشر يَلُوك قشورَها في شيء من الجمود والعجز عن التقدم بها نوعا ما .

ظهور الاسلام انبعاث وتجديد للحضارة الانسانية :

كان ظهور الاسلام في إبّانه حتى لا تندثر معالم الحضارات القديمة ، مُحْيِيا لها ، مجددا لمعالمها ، مشاركا في تنميتها وربط صلة الماضي السحيق بالمستقبل الباهر .

وسرعان ما ازدهرت الحضارة الاسلامية فتلقفت بقايا حضارات الهند والفرس واليونان والرومان : بحثت عنها في كل مكان ، وترجمت أصولها ، وهضمت مبادئها وزادت فيها ، ونقّحَتْ منها . ثم ابتكرت وابتدعت ؛ مما ساعد على القفز بالحضارة إلى رتبة عليا ومقام محمود .

ـ مسالك الحضـارة الاسلامية الى أروبـا :

كان انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية يوجب التصادم مع القوات والدول السائدة اذذاك . وكانت اهم تلك القوات هي الدولة الفارسية بالشرق والامبراطورية البيزنطية بالغرب . وقد استطاع الاسلام ان يتغلب على الفرس بسهولة ، فدخلت بلاد فارس في حظيرة الاسلام . وأصبح لهـا مقام محمود في الجـامعة الاسلامية ، ومشاركة عظيمة في مدنية الاسلام . اما القوة الرومية البيزنطية فقد أخذ الاسلام يزحزحها عن مراكزها في آسيا وافريقيا .

وكان الصراع الاسلامي مع القوات البيزنطية يمثل ايضا الصـراع الاسلامي مع القوات المسيحية في افريقيا وآسيا وحوض البحر الابيض المتوسط .

ومناطق هذا الصراع تعتبر من ناحية أخرى مسالك الحضارة الاسلامية الى القارة الاروبية .

وتتمثل اهم مسالك الحضارة الاسلامية الى اروبا في ١) الاندلس ـ ٢) صقلية ٣) الحروب الصليبية ـ ٤) طريق القسطنطينيـة ـ ٥) الاتصالات التجارية بين الشرق والغرب .

وكان لكل مسلك نصيب وافر في نقل معالم الحضارة الاسلامية الى اروبا . واذا كانت الحـروب الصليبية تمتد قـرنين من الزمن ، احتك اثنـاء هما الغرب بالشرق ، فانه لا مجازفة اذا قيل : ان الحروب الصليبية كانت من ابرز تلك المسالك ، ومن اكثرها نقلا لحضارة الاسلام الى قارة اروبا وشعوبها .

٢) ما استفادته اروبا من الحروب الصليبية

اولا ـ الخبرة وتصحيح المعلومات واتساع النظر:

كانت الامية ضاربة اطنابها في شعوب اروبـا لمـا تحركت هذه الشعوب الى

الحروب الصليبية . وكان الغالب منهم لا يتصور من العالم إلا المحيط الذي يعيش فيه . ولم تكن لهم معلومات ولا صور صحيحة عن بلاد الشرق وعن المسافة التي تفصل بينهم وبينه ، وحتى عن المناطق والاقطار التي يجب عليهم اجتيازها وسلوكها : فكان من اهم ما استفاده هؤلاء الصليبيون الخبرة والمشاهدة وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع الاسلامي وبلاد الشرق «...

وقد رجع آلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس اخبارا تناقض ماكان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من ان المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض المقدسة واجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل فضيلة واخلاص، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة ؛ فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصّوا على قومهم ان اعداءهم كانوا اهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ودّ ووفاء وفضل ومجاملة » (١) «... ولم تجد اروبا في الحروب الصليبية سبيلا للاتحاد الداخلي فحسب ومؤثرا جديدا في شتى مرافقها الداخلية ، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة . وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر اكبر ما اكتسبته من الحروب الصليبية اذا اضفنا اليه روح الكشف وتقدم الجغرافية (٢) ...»

«وقد وجد الصليبيون انفسهم امام حضارة اسلامية ذات إشعاع عظيم، فبهرهم هذا الاشعاع ، ولمسوا التفوق السياسي والتنظيم الاجتماعي عند العرب ، فعادوا يحملون انطباعاتهم وينشرون الدعوة الى إصلاح شامل يبدأ بتحرير الفكر وبتسهيل التبادل المادي والفكري ويصون الحرية الفردية . ويكفل للرعية الرفاهية والطمأنينة (٣) ...»

ثانيا - التسامح :

الدين الاسلامي دين التسامح ، لا يجبر الناس على الدخول فيه ولا يجعل

---

١) الاسلام والنصرانية لمحمد عبده طبع المنار - مصر - ١٣٥٧هـ

٢) الشرق الاسلامي في العصر الحديث تأليف حسن مؤنس ص٣٨ نقلا عن باركر مؤرخ الحروب الصليبية

٣) عن كتيب اروبا والاسلام ص٣٤ تاليف أغا خان - زكي علي - نشر دار المكشوف بيروت

من الخلاف في العقيدة موجبا للظلم والاعتساف ، فهو مقرر قاعدة (لا اكراه في الدين)(١) (وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)(٢)ولم يكن المسيحيون يعرفون صفة التسامح السامية في العقائد إلا في العصور الاخيرة .

واذا كان التعصب يصاحب الجهالة والجمود الفكري فان الصليبيين لما هاجموا العالم الاسلامي كانوا مشبعين بروح التعصب المقيت ، لا يصدهم عن التنكيل بالمخالفين لهم في الدين اي شيء . وكانوا يعتدون على اي شخص تمكنوا منه ، كبيرا كان او صغيرا ، رجلا كان او امرأة ، سواء كان مقاتلا او مسالما .

وقد بدا تعصب الصليبيين وقساوتهم البالغة في مذبحة المسجد الاقصى التي قتلوا فيها ما يزيد عن السبعين الفا ممن التجأ اليه من ضعاف المسلمين والمسالمين ، كما ان اليهود - وهم اذ ذاك لا ناقة لهم ولا جمل في ذلك الصراع - لم يسلموا من التعذيب والقتل والاحراق من طرف الصليبيين . وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين الايوبي عند ما استرجع بيت المقدس ؛ فقد منع الاعتداء على كل صليبي بعد ان استسلمت الحامية الصليبية بالقدس ومنحها الامان . وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الاسلامي فوصلوا آمنين الى مدينة صور .

ولما مرض الملك الانكليزي (قلب الاسد واكبر خصوم صلاح الدين) بعث اليه صلاح الدين طبيبه الخاص ورفّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج.(٣) وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الصادر عن اعدائهم المسلمين نحوهم ، ومن هذه الرحمة التي يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذين مسهم الجوع او أضنتهم الجراح وأقعدهم العجز ؛ وكيف ان المسلمين لم يستغلوا العجز لاكراههم على الاسلام . بل لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سببا في التجاء الكثير من الصليبيين الى الاسلام ، والدخول في الاسلام (٤)

والواقع ان الصليبيين كانوا في غاية التعصب وعدم احتمال اي نوع من الشفقة

---

١) سورة البقرة الآية ٢٥٦

٢) سورة النحل الآية ١٢٥

٣) النوادر السلطانية للقاضي ابن شداد ص ١٥٨

٤) انظر عن اثر التسامح الاسلامي في انتشار الاسلام بين الصليبيين كتاب « الدعوة الى الاسلام » من ص ٨٠ تاليف « ت ـو ـ ارنولد » ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد الحميد عابدين .

مع المسلمين . ولكن هؤلاء الصليبيين اذا ما اختلطوا بالمسلمين واتصلوا بهم بدا منهم التسامح والاعتدال في معاشرة المسلمين . فقد أجبرت العواصف أسطولا صليبيا قادما من انكلترا وفلاندر على الارساء بموانيء البرتغال . واظهر هؤلاء

صلاح الدين الايوبي يشرف على خروج الصليبيين من القدس

الصليبيون غاية القساوة مع المسلمين واليهود الذين كانوا تحت حماية نصارى البرتغال بمدينة « اشبونة » . كما ان الصلح الذي عقد ه مسلمو مدينة « شلب » مع الملك « سانشو » لم يرض هؤلاء الصليبيين حيث لم يبقوا من سكان المدينة سوى ثلاثة عشر الفا . اما بقية الستين الفا فقد كانوا ما بين قتيل واسير (١) .

ويذكر اسامة بن منقذ : انه زار بيت المقدس - والقدس اذذاك عند الصليبيين - فأفرد له فرسان الداوية زاوية ملحقة بالمسجد الاقصى ليصلي فيها ، فاغتاظ لذلك احد الصليبيين الحاضرين ، كان قدم حديثا الى بلاد الشام ، وتدخل في الامر مما ساء فرسان الداوية ، الذين طال مكثهم في بلاد الاسلام وزال عنهم ما عندهم من تعصب ديني .

وأثر الحروب الصليبية في اخلاق المسيحيين الصليبيين الذين اختلطوا بالمجتمع الاسلامي له صور عديدة ذكر الكثير منها ابن جبير في رحلته وأسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) .

ثالثا - الناحية السياسية والقومية :

لعله من اصدق القول إذا قيل : ان اروبا في عصورها الوسطى لم تجتمع على هدف معين مشترك ، هز شعوبها ، وعمّ جميع طبقاتها ، مثلما اجتمعت على الحروب الصليبية ، فقد كانت الحمية تشمل جميع الطبقات تدفعها الاغراض المختلفة والدواعي المتنوعة ، ولكنها كانت تحت هدف واحد هو الاتجاه الى المشرق ، وقتال المسلمين تحت راية الصليب . وكانت الدعاية تصل الى كل اذن . وكان الاحساس المتدفق والشعور الملتهب يشمل كل من وصلته الدعاية او استمع الى الدعاة . واتصل الناس بالعالم الخارجي بعد ان كانوا منعزلين عنه .

وكانت اعظم العلل التي تفتك بالممالك والقوميات الاروبية في العصور الوسطى هي النظام (٢) الاقطاعي القاسي ، الذي كان شجى في حلق الملوك ؛

---

١) تاريخ الاندلس لاشباخ الالماني ترجمة عبد الله عنان ج٢ - ص ١٠

٢) النظام الاقطاعي كان سائدا باروبا في العصور الوسطى ، ويقتضي هذا النظام ان الارض تعتبر ملكا للملوك وهؤلاء يقسمونها بين الامراء والسادة مقابل التزامات وتعهدات . ولهؤلاء السادة اعطاء اقطاعاتهم لصغار الفلاحين والمزارعين مقابل الدخول في خدمتهم وطاعتهم ، وكان هذا النظام مضعفا لقوة الملوك وحاجزا كبيرا دون الوحدات القومية في تلك العصور .

فقد كان الاقطاعيون يمثلون ملوكا بجانب الملوك . وكانت إقطاعياتهم تمثل دولا وسط الدولة ، وقد نعت بعضهم اروبا في ذلك الزمن بانها عبارة عن ممالك عديدة صغرى تبلغ الالاف . وكانت الشعوب الاروبية تحت تصرف وحكم هؤلاء الاقطاعيين ، يحكمونها حكم العسف والارهاق والاذلال . وكان للحروب الصليبية اثر حسن على الملوك والشعوب معا ؛ فقد سيطرت على كثير من الاقطاعيين فكرة تكوين الممالك والامارات في بلاد المشرق ؛ فأخذوا يجهزون الجيوش والمعدات الحربية لسفر طويل شاق . وفي سبيل ذلك كانوا يبيعون المدن والقرى لافراد الشعب المضطهد ، فأخذت هذه الطبقة الدنيا تستنشق نسيم الحرية والانطلاق ، وتتذوق لذة امتلاك الاراضي والعقارات .

ولم تكن فائدة الملوك اقل من ذلك ؛ فقد كان يقوى نفوذهم وتتسع دائرة تصرفهم الفعلي شيئا فشيئا بقدر ضعف النظام الاقطاعي . وكان تقوي الملوك وضعف الاقطاعيين من اهم اسباب ظهور القوميات واتحاد الممالك في اروبا .

رابعا ـ التشريع والاصلاح :

كان نفوذ الكنيسة سائدا في العصور الوسطى . واثناء الحروب الصليبية ازداد هذا النفوذ زيادة عظيمة ، واصبح للبابوية سلطة نافذة على الملوك وطبقات الشعب ، وأثرت الكنائس ورجالها إثراء فاحشا مما دعا رجالها الى الانغماس في الترف والاغراق في الشهوات . واشتهر الكثير منهم بالتفسخ الاخلاقي ، مما دعا مفكري اروبا فيما بعد الى الثورة على الكنيسة ، واندلاع حركة الاصلاح الديني . (١)

وكان ملوك انكلتيرا والمانيا اول الثائرين على الكنيسة ، وهي البلاد التي كان لها ملوك وامراء اقاموا بالمشرق زمن الحروب الصليبية . (٢)

وإنّ فصل الدين عن الدولة في العالم المسيحي ، الذي يعتبر من اهم الاصلاحات في نظر الاروبيين ، كان من آثار رؤية المسيحيين لفقدان سلطان علماء الدين على الملوك : رأوا ذلك سواء في الاندلس او في الحروب الصليبية (٣) . كما ان دستور

---

١) حضارة العرب لغوستاف لبون ص٣٦٣
٢) أثر العرب في الحضارة الاروبية للعقاد ص١٢١ - ١٢٢
٣) المصدر السابق

انكلتيرا المتين يعتبر كنتيجة بعيدة ، واثرا من آثار الحروب الصليبية . (١) وتعتبر الاصلاحات التي ادخلها لويز التاسع في مملكته (فرنسا) نتيجة لمشاهداته التي رآها بمصر والشام عندما ذهب الى المشرق متزعما الحملة الصليبية السابعة . اما فريدريك الثاني ، ملك صقلية وامبراطور المانيا ، الذي يعتبر اعظم ملوك اوربا تشبعا بالحضارة الاسلامية واحتذاء لها ، والذي قاد الحملة الصليبية السادسة ، فانه اول من أسس جامعة علمية باروبا (جامعة نابلي) ، واول من أسس مجلسا نيابيا ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكاليف، وأيد سيطرة القانون على جميع الطبقات واطلق حرية كافة العقائد ، واصدر قانونا بالاسعاف الدولي للفقراء (٢) . وقد رتب امور الدولة ترتيبا اجمع المؤرخون على انه كان حجر الاساس في تكوين الدول الحديثة ، واسس الدواوين المختصة وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية، التي كانت من خصائص الملك وحده ، وقضى على سلطة الكهنوت (٣) . وتشبُّع فريدريك الثاني بالافكار الاصلاحية ومحبته للثقافة الاسلامية وتقليدها هو ما دعا البابا الى حرمانه والحكم بإلحاده .

خامسا - الطب :

ظلت اوربا في عصورها الوسطى وزمن الحروب الصليبية خاضعة للنفوذ الكنسي والسلطة البابوية . وكانت الكنيسة متسلطة على الشعوب الاوربية وطبقاتها المختلفة ، تفرض عليهم القوانين التي يتقبلونها مهما كان نوعها . وحرّمت الكنيسة الغربية الاستحمام ، وحظرت فتح الحمامات بعد ان كانت شائعة في الدولة الرومانية . وربما اتخذت غلق الحمامات عقابا تعاقب به اعداءها (٤) .

وكانت الكنيسة الغربية تحرم الطب وصناعته ؛ لان المرض عقاب من الله لا ينبغي للانسان ان يصرفه عمن استحقه . وظل الطب محجرا عليه الى ما بعد استهلال القرن الثاني عشر للميلاد . (٥)

---

١) غوستاف لبون ص ٣٦٥ - ٢) الخيبة الادبية في الشرق والغرب ص١٨٢ - ٣) المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا تأليف أحمد توفيق المدني ص٢٠٣ - ٢٠٤-٤) كما وقع لمسلمي الاندلس بعد سقوط غرناطة . - ٥) اثر العرب في الحضارة الاوربية للعقاد ص ٣٣

وكانت طرق المعالجة عند الطليبيين الذين وردوا الى المشرق بدائية تعتمد على الرقى والتعاويذ، او على اساليب في غاية الفظاظة والقساوة. وقد ذكر اسامة ابن منقذ في كتابه (الاعتبار) صورا من هذه المعالجات الوحشية التي يعالج الطليبيون بها مرضاهم. وكان الطليبيون تبهرهم اساليب المعالجة الاسلامية، ويقتنعون بطلوحيتها ووجوب الاخذ بها.

ونتيجةً لاختلاط الطليبيين بالعالم الاسلامي واطلاعهم على اساليب العلاج والتداوي بدأت تظهر دور المعالجات والبيمارستانات وطرق العلاج الصحيحة في اروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وكان نصارى الشرق - غير الطليبيين - قد انضموا الى هؤلاء النصارى الذين كانوا يعيشون بالمشرق تحت السيادة الاسلامية.

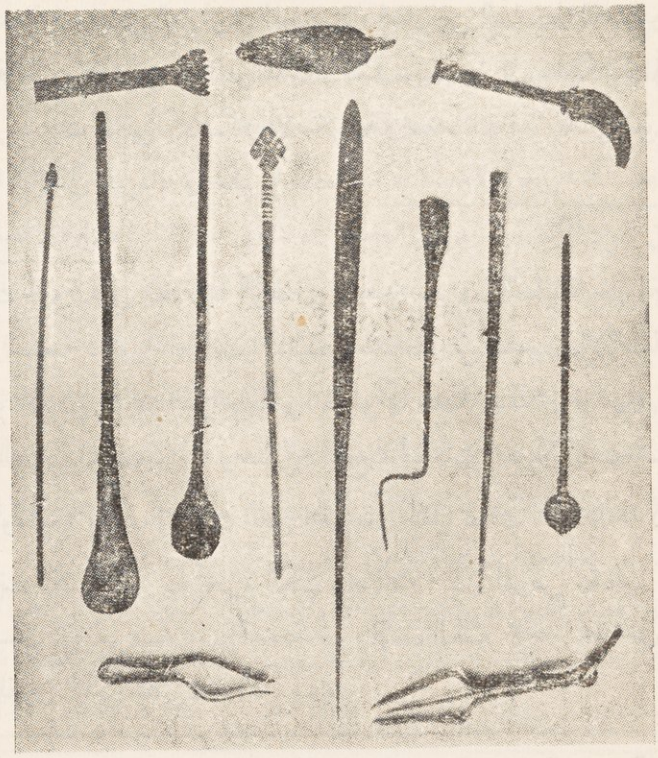

آلات طبية وجراحية عثر عليها في خرائب الفسطاط

(ادارة الآثار العربية - مصر)

وكان هؤلاء النصارى (يؤلفون أغلب الاطباء والصيادلة في الجيش والمعسكرات الصليبية ، كما كانوا يضطلعون باعباء الترجمة في مختلف الدواوين)(١) .

واشتغل بعض الصليبيين بنقل بعض الكتب الطبية العربية الى اللاتينية؛ فقد اشتغل برنارد سلفستر وفيليب الطرابلسي بالنقل من العربية الى اللاتينية ، ونقل اصطفان الانطاكي حول سنة ١١٢٧م كتاب (الملكي) في الطب لعلي بن العباس ابن المجوسي (٢) .

سادسا ـ التجارة ـ الرفاهية ـ البناء :

لعل من اعظم ما استفادته اروبا من الحروب الصليبية ذلك النشاط التجاري الذي حصل بين الشرق والغرب ، وذلك التقدم في الملاحة البحرية وتحسين وسائلها ومقوماتها ، سيما استعمال الابرة الممغطسة (البوصلة) التي شاع استعمالها في السفن العربية ونقلها عنهم ملاحو البحر الابيض المتوسط الاوربيون . ثم شاعت شيئا فشيئا عند بقية الملاحين الاروبيين .

وكانت السفن الصليبية التي ترد من جنوب اروبا ومن شمالها ، محمّلة جنودا ومقاتلين ، تعود الى اروبا مليئة بمختلف السلع والبضائع ؛ من اقمشة حريرية ، ومزركشة ، ومن اوان مطعمة مزخرفة ، ومن مواد غذائية متنوعة . لعل من اعظمها قيمة السكر الذي لم تكن اروبا قد عرفته بعد ؛ فقد كان اعتمادها قبل ذلك على العسل فقط . وانتقلت الى اروبا الزرابي الفاخرة التي تنافس في شرائها النبلاء والسادة وزيّنوا بها قصورهم واستعاضوا بها عن سجاجيد الزعف والقش . ثم اخذوا في تقليدها والنسج على منوالها . وإلى اليوم ما زال بعض الاقمشة بأسماء عربية(٣) .

وبسبب هذا الاتصال التجاري انتقلت كذلك نباتات جديدة الى اروبا مثل

---

١) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام تأليف محمد الغزالي ص ٢٢٢ نقلا عن مؤرخ صليبي افرنجي ـ ٢) عمر فروخ ، اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاروبية ص ٩ . ويقول عنه ابن صاعد في كتابه طبقات الامم : ومنهم علي بن العباس المعروف بابن المجوسي صاحب كتاب كامل الصناعة الطبيعية المعروف بالملكي ألفه للملك عضد الدولة بن ركن الدولة ، وهو كناش جليل مشتمل على علوم الطب واعماله ولا اعلم كناشا مثله ص ٦٢ ـ ٣) من ذلك (Mousseline) نسبة الى مدينة الموصل بالعراق .

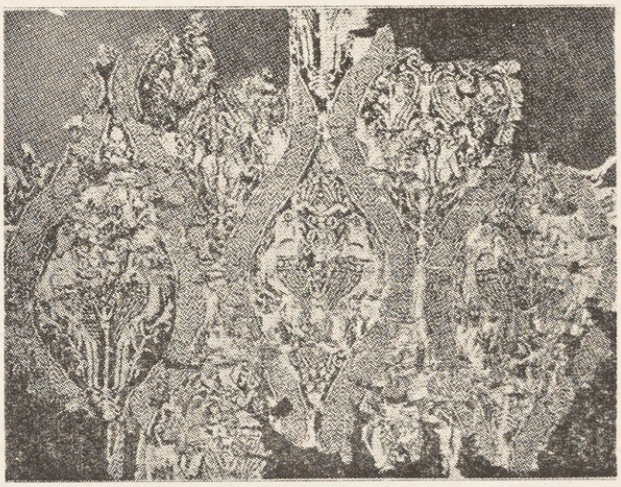

نسيج اسلامي « مطرز »
(الفنون الاسلامية - م - س - ديماند)

السمسم والخروب والدخن والارز ، والليمون والبطيخ والمشمش . كذلك عرفت اروبا التوابل والابازير فاستعملتها في الاكل ، وكانت في اشد الحاجة اليها نظرا لبرودة الجو في اروبا .

ودخلت الرفاهية والثروة إلى الاوساط الشعبية . وكانت المدن التي تولت النقل التجاري بين الشرق والغرب من اغنى مدن اروبا في ذلك الزمن مثل مدن : جنوة - بيزة - البندقية - مرسيلية .

وتأثر الصليبيون بهندسة البناء العربي خصوصا في القلاع والكنائس فقد بنى الانكليز قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقابل الطراز العربي في مضاعفة الجدران وإقامة البروج فيما بينها ، وتخطيط الحصون المركزية وإقامة الابواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة ، التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الافنية الداخلية .

وقد اخذوا من الكنائس الشرقية التي تأثرت بالطراز العربي انماطا من الزوايا والبروج المستديرة لم يكن لبناة الكنائس عهد بها في الغرب قبل الحروب الصليبية . (١)

---

١) اثر العرب في الحضارة الاوربية للعقاد ص ٧٥

من زخرف ألابنية الاسلامية
(الفنون الاسلامية - م - س - ديماند)

سابعا - الفن الحربي والفروسية :

ولم يكن الفن الحربي اقل حظا من بقية الفنون الاخرى ؛ فقد اقتبس الصليبيون من العالم الاسلامي امورا كثيرة عادت عليهم بالتقدم والخروج - شيئا فشيئا - عما كانوا عليه في العصور الوسطى . فاستعمال القوس القذاف ، والدروع يلبسها الفرسان والخيل ، واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع ، واستخدام الحَمَام الزاجل لحمل المعلومات الحربية ، وانتشار علامات النسب على الاسلحة ، وشارات الفرسان ، كل ذلك اخذه الصليبيون عن المسلمين(١) . وعن المسلمين اخذ الصليبيون طريقة تنعيل الجياد بالحديد (٢) . وادخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبور والطبل . ونقلوا عادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار وإجراء

١) فيليب حتى - تاريخ العرب موجز ص ٢٠٣ - ٢٠٤
٢) زكي علي في كتيب - اروبا والاسلام ص٢٧

سباقات الخيل ولعب الجريد . كما شاعت بينهم الاسلحة المزركشة والاعتناء بتطعيمها(١). وقد نشّطت هذه الحروب الصليبية علم الحيل الحربية الحصارية وحسنته بما فيه من طرق الهدم واللغم واستخدام المجانيق والكبوش والاعتماد على انواع المشتعلات والمفرقعات (٢) .

من فن « التطعيم » الاسلامي
(الفنون الاسلامية - م - س - ديماند)

كلمة أخيرة :

على انه مهما عدّد الانسان انواع هذا التاثير ومظاهره ، فانه لا يصل الى نهاية الحصر ودقة الاستقصاء . ضرورة ان قرنين من الزمن تمثل فيهما احتكاك الصليبيين بالعالم الاسلامي لا بد ان يتولد عن ذلك نتائج عديدة بعيدة الاثر عميقة الغور . ومن المتفق عليه ان حملات الصليبيين إنما كانت تمثل هجوم جماعات جاهلة متبدية على عالم متحضر متمدن . ولعل من أصدق الشواهد على مدى التفاوت بين المسلمين والصليبيين ، ذلك الوصف الساذج الذي ذكره مؤرخ صليبي مجهول كان مرافقا للحملة الصليبية الاولى . قال : وفي اليوم التالي (٧ مارس ١٠٩٨م) عند مستهل النهار غادرت المدينة فئة اخرى من الترك وجمعت ما صادفته على شاطيء

١) استقت الفرنجة من لفظة دمشق فعل (Damasquiner) دلالة على تطعيم الفولاذ بالذهب او بالفضة - ٢) فيليب حتى - تاريخ العرب مطول ص ٧٨٧

النهر من حيف قتلاها . ثم اخذتها وقبرتها في المحمرة الواقعة خلف الجسر امام باب المدينة (١) ودفنوا مع هذه الجثث حببا وبزنطيات وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الاشياء التي لا نعرف لها اسماء (٢) »

ومما تجدر ملاحظته ان اثر الحروب الصليبية على اروبا انما كان يبدو في النواحي المادية اكثر مما يبدو في الثقافة والعلوم . ومرجع هذا ان الصليبيين لم يكن همهم في حروبهم العلوم والثقافة ؛ ولم تتجه اروبا بعدُ الى الاخذ باسباب الثقافة والعلوم . وكانت علاقات الصليبيين بالعالم الاسلامي تغلب عليها النزاعات الدينية والعدائية . والواقع ان اثر العلوم الاسلامية في النهضة الاروبية الحديثة انما اخذ طريقا اخر غير الحروب الصليبية . وهو الطريق الذي يتمثل في انتقال الحضارة الاسلامية الى اروبا عن طريق صقلية والاندلس .

٣) أثر الحروب الصليبية على العالم الاسلامي

لا يمكن ان نتصور فائدة كبيرة استفادها العالم الاسلامي من الحروب الصليبية . وكيف تمكن الاستفادة ممن كان اقل ثقافة واحط حضارة ؟ فلم يكن الصليبيون يفوقون المسلمين ثقافة ورقيا ، رغم ما اصاب العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبية واثناءها من انحلال وتدهور . لقد كان غنم هذه الحروب للصليبيين . اما غرمها فكان من نصيب المسلمين . ولقد رأينا الفوائد التي تحصل عليها الصليبيون خصوصا ، واروبا عموما ، اثناء تلك الاحقاب التي تطاحن فيها الشرق والغرب وامتزج فيها العالمان مدى قرنين من الزمن .

لقد بعثت الحروب الصليبية الرعب والفزع والتخريب والتدمير ، وجلبت الجدب والقحط اينما حلت ، سيما البلاد الشامية . وكانت دماء الآمنين والابرياء والضعفاء تراق دون حساب ، ولادنى سبب ، وحتى بدونه . وكانت قساوة الصليبيين وفظاعة أعمالهم محل سخط مدى الاجيال . اورثت الحقد والبغضاء والتنافر بين الاجناس .

---

١) مدينة أنطاكية ـ ٢) عن الحوليات لمؤرخ صليبي مجهول ، ترجمة حسن حبشي في كتاب الحرب الصليبية الاولى ص ١٣٥

واذا استفاد العالم الاسلامي شيئا من تلك الحروب فانما هو شيء قليل تافه لعل من ابرزه ذلك الوعي القومي ، وتحفز العالم الاسلامي للدفاع عن الحمى والدين ورفع المظلمة ، ومحاولة البعض من القادة تكوين وحدة اسلامية قوية تستطيع رد الفعل ومحو وصمة العار . وهذا هو الذي سعى اليه عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، ثم جاء بعدهما صلاح الدين الايوبي ،الذي يعتبر اعظم ممثل لانبعاث الوعي الاسلامي ورد كيد الصليبيين .

ولعل الحروب الصليبية قوّت من وسائل الدفاع الحربي واساليب الهجوم وطرق الحصار وهدم المعاقل والحصون والقلاع والاسوار .

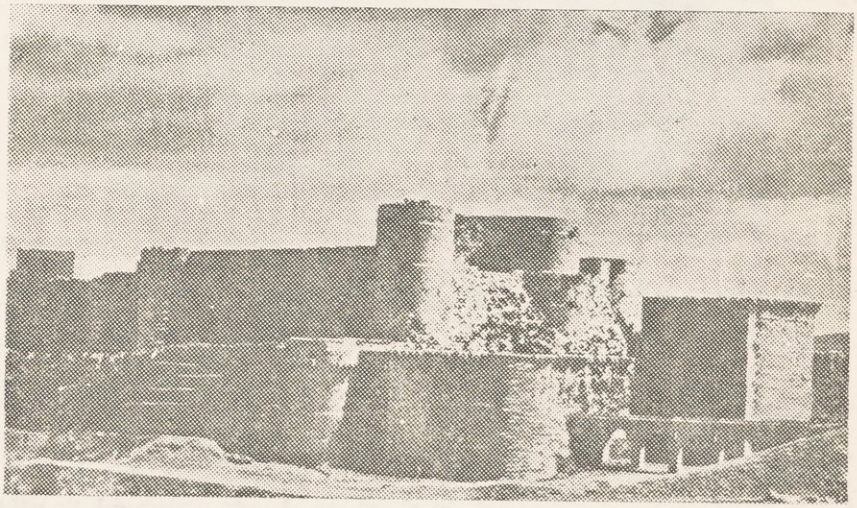

حصن الاكراد - من أشهر الحصون الصليبية

فقد غزا الصليبيون العالم الاسلامي حاملين معهم فكرة القلاع والحصون التي سادت اروبا في ذلك الزمن - زمن الاقطاع والعصور الوسطى - واكثر الصليبيون من بناء القلاع والحصون على غرار ما هو موجود باروبا . ولهذا نشط المسلمون في استعمال المنجنيقات والكبوش لهدم الاسوار والابراج ، وكانوا اقدر من الصليبيين على اقتحام الحصون والاسوار وتهديمها . ولم تكن المقاومة الصليبية

تذكر أمام المقاومة الاسلامية زمن الدفاع والحصار ، فانطاكية مثلا لم تستسلم حاميتها الاسلامية إلا بعد ثمانية اشهر من حصار قوي عنيف، ولم يكن استسلامها إلا نتيجة لخيانة احد حراس ابراجها. وحصار عكا استمر مدة عامين ، كان المسلمون المحصورون يبدون اثناء ذلك غرائب من البطولة والشجاعة والثبات ، ولم يستسلموا الا بعد ان أُعطوا امانا على رقابهم (١). اما استسلام بيت المقدس للصليبية الاولى بعد (٤٠) يوما من محاصرتها فان مرجع سرعة هذا الاستسلام يعود في الاكثر الى ما مرّ ذكره من ضعف معنويات الجيش الفاطمي وتخاذل قواده وقواده.

أثر الحروب الصليبية في الادب العربي : (٢)

كان للحروب الصليبية أثر بارز على الادب العربي من شعر ونثر ، فقد نشط الشعراء والكتاب لبعث الحمية في النفوس . واستنهاض الهمم للجهاد والقتال، او لتسجيل المعارك والوقعات انتصارا او انهزاما. كما كانوا يمدحون القواد والملوك والسلاطين الذين أظهروا بسالة وسجلوا اعمالا باهرة اثناء هذه الحروب. وأنشئت الكتب الكثيرة والرسائل الطويلة في تدوين سير الملوك وتاريخ المعارك ، وفي الفروسية والتحريض على الجهاد.

وكان الشعر يمتاز بشبوب العاطفة ، وقوة السبك ، وصدق اللهجة ؛ وبرع شعراء كثيرون سيما الذين اتصلوا بعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي . ولم يبخل هؤلاء الملوك بتشجيع الشعراء وإكرامهم واصطحابهم معهم الى ميادين القتال، فتكونت نهضة شعرية ممتازة تستطيع أن تعرف مقدارها اذا ما تصفحت كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسي ، او كتاب خريدة القصر للعماد الاصفهاني وغيرهما من كتب التاريخ العامة او الخاصة (٣) .

وقد نبغ شعراء اعلام مثل : ابن القيسراني - ابن منير الطرابلسي - أسامة ابن منقذ - عمارة بن حمزة اليمني - العماد الاصفهاني .

---

١) كان الذين اعطاهم الامان « رتشارد قلب الاحد » ولكنه بعد ذلك قتلهم جميعا شر قتلة وكانت عدتهم تبلغ ثلاثة الاف « النوادر السلطانية لابن شداد ص ١٦٤ »

٢) لترى صورة اوضح واكثر تفصيلا لاثر الحروب الصليبية على الادب العربي انظر كتاب ادب الحروب الصليبية للدكتور حمزة طبع مصر ١٩٤٩ وكتاب الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي لسيد كيلاني، طبع مصر .

٣) مثل النهاية لابن كثير والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي الخ .

ومثل ابن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وكمال الدين بن النبيه ، والبهاء زهير ، وجمال الدين بن مطروح . اما كتاب النثر والرسائل فقد كان من ابرزهم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني . ولم يكن شأن الخطابة اقل حظا من الشعر والرسائل الا انها لم تصل الى درجة الشعر في الكثرة والاجادة

أثر الحروب الصليبية في انحطاط العالم الاسلامي :

كان النصف الاخير من القرن الخامس الهجري بداية لانحطاط المشرق الاسلامي ؛ فقد تمكنت منه العلل واستشرى فيه الفساد والانقسام ، وفقدت منه القيادة الصالحة والحكومة الرشيدة . وكان زحف الصليبيين عليه في اواخر القرن الخامس الهجري زيادة لاستفحال العلل واستشراء الفساد . ولم يجد المشرق الاسلامي من يأخذ بيده وينقذه مما اشرف على الوقوع فيه . ولم تكن الحركة الاصلاحية التي قام بها آل زنكي وصلاح الدين الايوبي سوى حركة قصيرة الزمن ضيقة الحدود . ثم جاء الزحف المغولي الوحشي فزاد الحالة ضغثا على إبالة فعمّ المشرق الاسلامي التخريب والترويع مما قل نظيره في تاريخ الانسانية . ولو لم يقدر للمماليك ان يوقفوا الزحف المغولي ويصدوه عن بقية العالم الاسلامي لتحقق ما كان يؤمله الصليبيون من القضاء النهائي على الاسلام ؛ فقد انتهز الصليبيون زحف هؤلاء المغول الموثنيين فربطوا الصلات معهم وعقدوا معهم المحالفات حتى يجعلوا العالم الاسلامي بين دفتي المعصار وشقي الرحا فيقضى عليه قضاء مبرما .

ولعل امة اخرى لم يصادفها ما صادف المشرق الاسلامي من الخطر فقد دهمته الزحوف الصليبية من الغرب ، والزحوف المغولية من الشرق . ولكنه ثبت في النهاية فقضى على الصليبيين واخرجهم من دياره ، وامتص المغول وصهرهم في بوتقته وادخلهم في حظيرته ؛ فاعتنقوا الاسلام وتكونت منهم دول اسلامية كبيرة (١) .

ولكن العالم الاسلامي خرج منهوك القوى خائر العزم من هذا الصراع

١) من اشهر هذه الدول دولة المغول بالهند التي اسسها الملك بابر ، احد احفاد تيمورلنك .

الخارجي العنيف ، ومن تلك العلل الداخلية الفتاكة، مما جعله يستسلم لنوم عميق بعد إعياء ومغالبة . ولم يستفق من سباته الطويل الا بضربة جديدة اخرى - اتته من الغرب - والقت به على الارض فهب مذعورا ، وقد الفى نفسه مكبلا بالاغلال والاصفاد ، فاخذ يحاول جاهدا فك الاسر ، ومسايرة العصر .

مُلحقاتُ الفصلِ التاسِعْ

١) الخلاصة

الحضارة جهد إنساني مشترك شارك فيه كل شعب تهيأت له أسباب النهوض . ويعتبر الشرق مهد الحضارات القديمة ومهبط الرسل والانبياء . ولما انبعثت الحضارة الاسلامية كانت الحضارات القديمة قد أصابها هموم وجمود ، فانتشلتها الحضارة الاسلامية وتقدمت بالانسانية خطوات في مضمار الرقي والازدهار . وتسربت الحضارة الاسلامية الى أروبا من طرق مختلفة . وكان من ابرز هذه الطرق الحروب الصليبية التي استفادت بسببها الشعوب الاروبية فوائد عظيمة ؛ فكان من اهم ذلك تصحيح معلوماتهم عن الشرق والاسلام فوجدوهما على نقيض ما كان يدعيه الدعاة ورجال الدين . وقد وجد الصليبيون أنفسهم امام حضارة باهرة واخلاق عالية فاستفادوا من ذلك ورجعوا الى اروبا محملين افكارا جديدة ، واقتبسوا من مظاهر الشرق والحضارة الاسلامية الشيء الكثير .

وكان للحروب الصليبية اثر على النظام الاقطاعي فأضعفت من قوته، وفي مقابل ذلك تقوت الملكية . وسعت اروبا الى الوحدات القومية وقامت حركات اصلاحية في اروبا تعتبر نتيجة واثرا للحروب الصليبية . واستفاد الصليبيون اساليب العلاج الطبية ، وقلّدوا المسلمين في بناء المستشفيات والبيمارستانات وتقدمت الملاحة البحرية ونشطت التجارة بين الشرق والغرب وانتقل الى اروبا الكثير من النباتات والاقمشة والاغذية . وعمت الرفاهية اوساطا شعبية كثيرة . كذلك تأثر الغربيون بأشكال من البناء الاسلامي استعملوها في قلاعهم وحصونهم . وتقدمت الفنون الحربية تقدما محسوسا .

ولم يستفد العالم الاسلامي شيئا عظيم الاهمية مثلما استفاد الصليبيون ، فقد كان أرقى ثقافة وحضارة منهم .

٢) المسلمون والصليبيون غير المتحاربين

قال ابن جبير (١) «ومن اعجب ما يحدَّث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الاولى ، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من اعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، فنازله السلطان وضيق عليه ، وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى ايضا لا يمنع احد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الامنة على غاية . وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشتغلون بحربهم . والناس في عافية والدنيا لمن غلب . هذه سيرة اهل هذه البلاد في حروبهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين »

(عن رحلة ابن جبير ص ٢٦٨ - ٢٦٩ - مطبعة السعادة - مصر)

٣) مدينة دمشق ومستشفياتها

« البلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض . ولذلك يسرع الحريق إليه. وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي عليه ثلاث مدن لانه اكثر بلاد الدنيا خلقا وحسنه كله خارج لا داخل . وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن

---

١) محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي « ٥٤٠ - ٦١٤ » ولد في بلنسية بالاندلس من اشهر الرحالة المسلمين في العصور الوسطى . قام برحلات ثلاث الى المشرق . ودون رحلته الاولى في كتاب اسماه « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار » وقد طبعت الرحلة مرتين في اروبا سنة ١٨٥٢م وسنة ١٩٠٧م وطبعت بمصر سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م بمطبعة السعادة .

عظيم تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد المقدس عندهم افضل منها . وهي جميلة البناء تتضمن من التصاوير امرا عجيبا تبهر الانظار وتستوقف الابصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها بيمارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قوَمة بأيديهم الازمة المحتوية على اسماء المرضى ، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك . والاطباء يبكرون اليه في كل يوم يتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلح من الادوية والاغذية حسب ما يليق بكل إنسان منهم . والبيمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد اكثر . »

(رحلة ابن جبير ص ٢٦٣ - ٢٦٤)

٤) صور من طب الصليبيين

أ - قال اسامة (١) بن منقذ في كتابه الاعتبار « ومن عجب طبهم ما حدثنا به « كليام دبور » صاحب طبرية وكان مقدما فيهم . واتفق انه رافق الامير معين الدين رحمه الله من عكا الى طبرية وانا معه فحدثنا في الطريق قال : كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلان . قال نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق انه اذا حط عليه يده عوفي . فلما رآه قال « اعطوني شمعا » . فأحضرنا له قليل شمع فلينه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة في جانب انفه فمات الفارس فقلنا له قد مات . قال نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح (٢).

ب - ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة(٣) كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ

---

١) اسامة بن منقذ « ٤٨٨ - ٥٨٤هـ » من امراء قلعة شيزر الشامية . معاصر للحروب الصليبية وله اتصالات كبيرة مع الامراء الصليبيين والمسلمين . وكان فارسا شجاعا ، وشاعرا كاتبا . له عدة مؤلفات من اهمها كتاب «الاعتبار» ألفه في آخر ايامه وهو شيخ كبير، دون فيه رحلاته وسيرته ومشاهداته . واسلوب الكتاب ساذج ضعيف وقد ترجم الى الفرنسية والالمانية والانكليزية وطبع في ليدن ١٨٨٤م . وفي الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠م

٢) عن الاعتبار ص١٠١ طبع بريل بليدن نشر درنبرق

٣) المنيطرة « بصيغة الصغير » حصن ببلاد الشام قريب من طرابلس « معجم البلدان »

طبيب يداوي مرضى من اصحابه فأرسل اليه طبيبا نصرانيا يقال له « ثابت » فما غاب عشرة ايام حتى عاد . فقلنا له « ما اسرع ما داويت المرضى » قال « احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف(١) . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المراة وربطت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال : هذا ما يعرف شيئا يداويهم . وقال للفارس ايما احب اليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين قال : اعيش برجل واحدة . قال احضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا . فحضر الفارس والفأس - وانا حاضر - فحط ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس « اضرب رجله بالفاس ضربة واحدة اقطعها » فضربه - وانا اراه - ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وابصر المراة فقال « هذه امراة في راسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها فحلقوه . وعادت تأكل من مآكيلهم ، الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في راسها ، فأخذ الموسى وشق راسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الراس وحكه بالملح فماتت في وقتها » (٢)

٥) امرأة صليبية تستغيث بصلاح الدين

قال ابن شداد (٣) «كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال . وكان من قصتهم انهم اخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة اشهر ، وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان وعرضوه عليه . وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما اخذوه . ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا : «إنه رحيم القلب . وقد اذنالك في الخروج فأخرجي وأطلبيه منه فإنه يرده عليك » فخرجت تستغيث الى

---

١) النشاف نوع من الهبوط والتعب العصبي . عن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى حاشية ص ٩٧ . تاليف زكي محمد حسن .

٢) الاعتبار ص ٩٧ - ٩٨

٣) بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد «٥٣٩ - ٦٣٢» من معاصري الحروب الصليبية ، له خدمة وصحبة لصلاح الدين الايوبي . وقد تولى قضاء عسكره وتولى قضاء القدس ثم قضاء حلب له عدة تآليف منها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - وتاريخ حلب - وفضل الجهاد الخ ...

اليزك (١) فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فلقيته ، وهو راكب - وانا في خدمته ، وفي خدمته خلق عظيم - فبكت بكاء شديدا ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه. وامر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتده ، وامر بدفع ثمنه الى المشتري واخذه منه . ولم يزل واقفا حتى احضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته الى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون - وانا واقف جملتهم - فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس ولحقت بعسكرهم مع طفلها ... »

(النوادر السلطانية لابن شداد ص ١٤٥-١٤٦ طبع مصر سنة ١٣١٧ هـ)

تمرينات

١) ما هي منزلة الحضارة الاسلامية في تاريخ الحضارة العامة ؟

٢) كيف كان موقف المسلمين من الحضارات السابقة ؟

٣) عدد اهم مسالك الحضارة الاسلامية الى اروبا ؟

٤) ماذا استفاد الصليبيون من احتكاكهم بالعالم الاسلامي في مدة الحروب الصليبية ؟

٥) هل عادت الحروب الصليبية على العالم الاسلامي بفائدة؟ ما هي ان كانت؟

٦) حاول الصليبيون الاتحاد مع التتر ضد العالم الاسلامي . فماذا كان مآل هذا الاتحاد ؟

٧) اذكر صورا من طب الصليبيين .

٨) كيف استفادت اروبا من الحروب الصليبية سياسيا وقوميا ؟

٩) اشتهر صلاح الدين الايوبي بالتسامح مع اعدائه . ايت بصور لذلك .

١٠) لم تستفد اروبا من الحروب الصليبية شيئا كثيرا في ناحية الثقافة والعلوم . اشرح هذا .

---

١) اليزك : كلمة فارسية معربة ، معناها رئيس العسس ، او العسس نفسه.

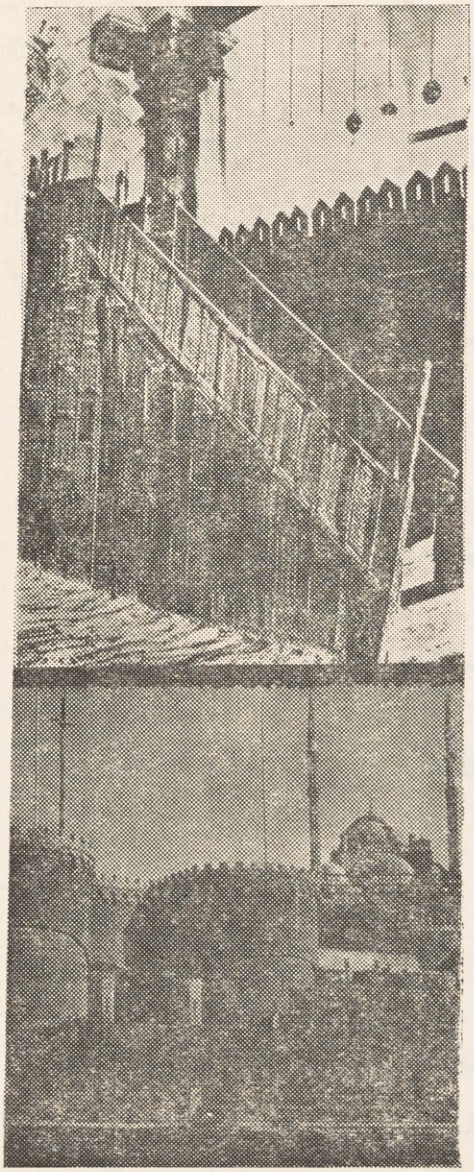

محراب المسجد الجامع بالقيروان

- من روائع الفن الاسلامي -

قلعة صلاح الدين الايوبي

في

شكلها الحالي (القاهرة)

الحروب الصليبية
بالمغرب الإسلامي

حير الدين باشا « بربروس »

بطل المغرب الاسلامي في الحروب الصليبية

« للفنان الجزائري محمد راسم »

الفصل العاشر

صلة الصراع في المغرب بالحرب الصليبية العامة

١) الفتوحات الاسلامية بأروبا الغربية

٢) صلة الصراع بين النصرانية والاسلام في المغرب بالحروب الصليبية العامة

١) الفتوحات الاسلامية بأروبا الغربية

عرفت مما مضى ان القوات الاسلامية زحزحت القوات المسيحية عن غرب آسيا وشمال افريقيا . ثم عبرت هذه القوات البحر وجعلت من الاندلس (شبه جزيرة ايبريا) وطنا إسلاميا ، لعب فيه العرب والمسلمون دورا حضاريا خالدا . وتقدمت الفتوحات الاسلامية شمال جبال البرانس (١) (Pyrénées) وشرقها ، خصوصا مدة ولاية الفاتح عبد الرحمان الغافقي ؛ فقد وصلت طلائع جيشه الى مدينة صانص (Sens) التي لا تبعد عن باريس اكثر من مائة ـ ك م ـ . واصبحت ضفاف الرون (Rhône) والصاوون (Saône) ولا لوار (La Loire) تحت سيادته .

الخطة الكبرى :

وقبل عبد الرحمان الغافقي كان البطل موسى بن نصير قد رسم خطة عظيمة لمّا اخترقت جيوشه جبال البرانس ؛ فقد كان عازما على الوصول الى دمشق عن طريق اروبا الجنوبية والقسطنطينية . وبذلك يصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة

---

١) هي جبال البرنيه الحالية الفاصلة بين فرنسا واسبانيا ، وكان يطلق عليها قديما اسماء مختلفة منها : البرانس ـ البرت ـ البرتات ـ جبال الابواب .

إسلامية . ويقضى على الامبراطورية البيزنطية ، وتفتح عاصمتها التي صمدت للغزوات الاسلامية الاولى .

ولكن الخليفة الاموي « الوليد بن عبد الملك » اجبر موسى بن نصير على الرجوع الى دمشق وترك بلاد الاندلس ، والاقلاع عن متابعة خطته الكبرى . فغادر موسى بن نصير الاندلس (سنة ٩٥هـ ٧١٥م) آسفا حزينا لما حيل بينه وبين تحقيق هذا الامل الكبير .

تحفز الافرنج (١) لرد الخطر الاسلامي :

لما عبر المسلمون جبال البرانس كانت غاليا (فرنسا) تحت سيادة الملوك الميروفنجيين (Mérovingiens) ولم يبق هؤلاء الملوك في قوتهم وعظمتهم الاولى ؛ فقد مضى عليهم زمن طويل انتهوا بعده الى الضعف والانقسام . واصبحت السلطة بيد غيرهم خصوصا رؤساء البلاط (Maires du Palais) .

وكان الميروفنجيون قد اعتنقوا المسيحية منذ عهد الملك كلوفيس (Clovis) سنة ٤٩٣م ، مؤسس المملكة فعظم شأن الرهبان والاساقفة واصبحت لهم قوة ونفوذ . وكان ذلك سببا في توثيق عرى الصلات بين البابا بروما وبلاط الافرنج بفرنسا .

بلاط الشهداء :

لما راى الافرنج التوغل الاسلامي في بلادهم بقيادة عبد الرحمان الغافقي استعدوا لرد الخطر الداهم . وكانت المقاومة الافرنجية تحت قيادة رئيس البلاط المشهور باسم « شار مارتيل »(٢) (Charles Martel) والتقى الجمعان على ضفاف نهر اللوار بين مدينتي (تور) و (بواتيه) (Tours-Poitiers) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) وكان قد مضى على الجيش الاسلامي شهور عديدة وهو مواصل للجهاد والغزو ، فكان يوم اللقاء منهوك القوى مثقلا بالغنائم . واستمرت المناوشات اسبوعا

---

١) الافرنج او الافرنك (Les Francs) قسم من الشعوب الجرمانية الوثنية التي اكتسحت غرب اروبا في اوائل القرن الخامس المسيحي ، استقروا بغاليا ومنهم اشتق اسم «فرنسا»

٢) لم تلبث عائلة شارل ان استولت على مقاليد الحكم وقضت على العائلة الميروفنجية تحت اسم الكارولنجيين (Carolingiens) والعرب القدامى يطلقون (قارله) على شارل مارتيل وهو اطلاق يساير النطق اللاتيني (Carolus)

ثم احتدم القتال عنيفا كامل اليوم بدون تغلب جانب على جانب. واثناء هذا القتال العنيف أصيب القائد الاسلامي (عبد الرحمان الغافقي) بسهم فأرداه شهيدا بين الصفوف. وتابع المسلمون قتالهم الى الليل بدون ان يظهر عليهم فتور بعد موت قائدهم. ولكن اثناء الليل دب الخلاف بين صفوف المسلمين، فقرروا الانسحاب والرجوع تحت جنح الظلام. ولم يصدق الافرنج في الغد بحقيقة انسحاب المسلمين، فقد ظنوها مكيدة حربية، لانهم لم يلحظوا عليهم علائم ضعف وانهزام عندما كانوا يقاتلونهم.

وعلى هذه الصورة انتهت معركة بلاط الشهداء. وكانت بداية لتراجع القوات الاسلامية عن اراضي غاليا (فرنسا). ومنذ ذلك العهد اخذت السيادة العربية تتراجع شيئا فشيئا حتى انكمشت في بلاد الاندلس. واصبحت سلسلة جبال البرانس فاصلا بين المسلمين والافرنج المسيحيين في اروبا الغربية.

ولكن صراعا جديدا بين الاسلام والنصرانية سيبدأ في الاندلس نفسها بين القوات الاسلامية وفلول القوط، الذين التجأوا الى جبال اشتورية وجليقية الصخرية. وكانت تلك الفلول نواة للممالك الاسبانية التي تصدت لمقاومة المسلمين، ومن ورائها اروبا المسيحية تمدها بالمساندة المادية والمعنوية.

كيف نشأت المقاومة الاسبانية بالاندلس ؟ :

لما عمّ الفتح الاسلامي بلاد الاندلس التجأ بعض اشراف القوط واعيانهم مع فلول المنهزمين الى الناحية الشمالية (١) الغربية بشبه الجزيرة. وكانت جبلية صخرية منيعة؛ فاستقروا هنالك واعتصموا بالجبال تحت زعامة احد اشراف القوط « بلاي » (Playus).

واحتقر الغزاة المسلمون امر هذه الشرذمة المعتصمة بالجبال؛ ولم يحاولوا - جديا - القضاء عليها كما قضوا على قوات البربر المعتصمة بجبال الاطلس؛ (٢) فكانت هذه اعظم هفوة سياسية وحربية ارتكبها هؤلاء الغزاة، لانها هي التي جعلت من تلك الشرذمة نواة للممالك الاسبانية التي كانت الخلافات والثورات الداخلية

---

١) جبال اشتورية وجليقية. وكثير ما يطلق المؤرخون المسلمون كلمة «الصخرة» على تلك المناطق لوعورتها وصخريتها. - ٢) محمد البشير صفر الدروس الجغرافية ص ١١

التي اعقبت الفتح الاسلامي للاندلس خير معين لها على التقوي والنمو شيئا فشيئا ، فتكونت مملكتان صغيرتان في اشتورية وجليقية . وكانت مملكة الجلالقة اعظم قوة وأوفر حظا ، ثم اتحدت المملكتان ، إلا ان الخلافات كثيرا ما كانت تشتت من تلك الوحدة فكانت اسبانيا النصرانية مرة متحدة ومرة منقسمة .

٢) صلة الصراع في الاندلس بالحروب الصليبية

يعتبر البابا ، الجالس على الكرسي الرسولي بروما ، الرئيس الديني الاعلى لنصارى الغرب والمذهب الكاثوليكي . وكان البابا يساند اي ملك من الملوك ينهض للدفاع عن المسيحية والنفح عنها . ومن دون ريب ان البابوية كانت تنظر الى التقدم الاسلامي في اروبا الغربية نظرة حقد عليه ، وإشفاق على مواطن المسيحيين . حتى إذا كانت معركة بلاط الشهداء وتوقف الزحف الاسلامي بعدها ، انتعشت البابوية واهتزت اروبا النصرانية ايما اهتزاز ، واضفت على « شارل مارتيل » مختلف نعوت الاجلال والبطولة . واعتبرته الكنيسة الكاثولكية حاميا للنصرانية ومنقذا لها من الانهيار . وهكذا اكتسبت حروبه مع المسلمين صبغة الحروب المقدسة . ولما خلفه إبنه بيبان (Pépin le Bref) على زعامة الافرنج ، ونهج مسلك ابيه في محاربة المسلمين ، ساعدته الكنيسة الكاثوليكية على اسقاط العائلة الميروفنجية وانتصابه ملكا على غاليا (١٣٢هـ - ٧٥١م) ، وجاءه البابا إلى فرنسا وباركه . والملك بيبان هو الذي حارب اللمبارديين في شمال إيطاليا لما استنجد به البابا ، فحماه من هذا الهجوم ثم منح الكنيسة البابوية الاراضي التي افتكها من اللمبارديين . وكان ذلك بداية لمملكة الكنيسة البابوية . (١)

وفي عهد (شارل لمان) (Charlemagne) ازداد الاتصال توثقا بين مملكة الافرنج الكارولنجية والكنيسة البابوية . وسار شارلمان على سنة ابيه في حماية الكنيسة البابوية ومحاربة اللمبارديين والمسلمين ، ومحاولة انتزاع اسبانيا منهم .

---

١) استمرت مملكة الكنيسة البابوية من سنة ٧٥٦م الى سنة ١٨٧٠م . واللمبارديون (Les Lombards) قسم من القبائل الجرمانية المتبربرة التي اكتسحت اروبا ، وما زالت مقاطعة بشمال ايطاليا تحمل اسمهم الى اليوم .

(وفي سنة ١٨٣هـ - ٨٠٠م) سار شارلمان الى رومة ليتوجه البابا . وأصبحت مملكته تدعى (الامبراطورية الغربية المقدسة) .

فاذا عرفنا أن هؤلاء الثلاثة (مارتيل - بيبان - شارلمان) كانوا هم الذين تتابعوا على محاربة المسلمين خارج جبال البرانس حتى انحصر الاسلام في شبه الجزيرة ، وعرفنا صلتهم المتينة بالبابا ، امكننا ان ندرك قدم فكرة الحروب الصليبية التي ظهرت بالمغرب الاسلامي عن ظهورها بالمشرق .

نصارى الاسبان والكنيسة البابوية :

كان الاسبان على المذهب الاريوسي الذي لا يقول بألوهية المسيح ، عكس المذهب الكاثوليكي ، إلا انه (في سنة ٥٥٧م) جحد الملك « ريكارد » المذهب الاريوسي واعتنق المذهب الكاثوليكي ، فأخذ هذا المذهب منذ ذلك العهد ينتشر شيئا فشيئا (١) .

(٢) وفي بادىء الامر لم يكن نصارى الاسبان معترفين بسيادة البابا عليهم ، ولكن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر المسيحي (قبيل اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق) أصبحت ديارات مملكة ارغونة تحت السيادة البابوية . وفي مقابل هذا الاعتراف نال الملك « سانشو رامريز » إذنا من البابا في محاربة المسلمين من ريع احباس الكنائس الواقعة في مملكته .

وفي عهد البابا قريقوار السابع (سنة ٤٦٨هـ - ١٠٧٥م) اعترفت جميع اسبانيا النصرانية بسلطة البابوية وإشرافها . وتأسست هيئة إكليروس في البلاد . وبعد سقوط طليطلة (سنة ٤٧٨هـ ١٠٨٦م) وفد الى اسبانيا كثير من المحاربين الفرنسيين نتيجة لمساعي المطران(٣) «برنارد» الذي ارتفعت منزلته ، فمنحه البابا أوربان الثاني الثوب الكهنوتي ، وانتصب رئيسا أعلى للكنيسة الاسبانية . كما أصبح للبابا أوربان

---

١) شكيب ارسلان الحلل السندسية ج١ص٣٦٣

٢) ما يأتي مقتبس من كتاب تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين تاليف يوسف اشباخ الالماني وتعريب عبد الله عنان طبع مصر سنة ١٩٤٠ م

٣) المطران برنادر هو الذي سعى لتحويل مسجد طليطلة الى كنيسة رغم التعهد الذي أعطاه الفونس السادس للمسلمين لما استلمت له المدينة .

نفوذ كبير في اسبانيا . واصبح مسموع الكلمة في تعيين وعزل الاساقفة الاسبان . وفي سنة ٤٨٢هـ ١٠٨٩م دعا الى مساندة الاسبان في حروبهم ضد المسلمين ، فاستجاب لندائه كثير من فرسان جنوب فرنسا ، إذ لم تكن تلك الحروب إلا أعمالا صليبية جليلة (١) .

ولم يتخذ هذا البابا جنوب فرنسا مركزا لاعلان الحروب الصليبية إلا لما يعلمه من اتصال هذه المناطق باسبانيا ، ومشاركتها السابقة في محاربة المسلمين بالبلاد الاسبانية .

في مجمع كليرمون :

وفي مجمع كليرمون ، الذي اعلنت فيه الحرب الصليبية بالمشرق ، اراد المطران « برنارد » وعدد من القساوسة الاسبان المشاركة في الحروب الصليبية بالمشرق إلا ان البابا اوربان منعهم من ذلك، لانه توجد في بلادهم (اسبانيا) حرب صليبية . كما اصدر هذا البابا مرسوما حرم فيه على رجال الدين والفرسان الاسبان المشاركة في صليبيات المشرق ، لان محاربة المسلمين باسبانيا لا تقل اهمية واعتبارا عن الحرب الصليبية المشرقية . وقد ترتب على ذلك ان هرع الكثير من الفرسان من مختلف اروبا الى الاندلس ليساهموا في حرب صليبية ، هي اقرب سبيلا وايسر مشقة وعناء .

ولما اسفرت الحرب الصليبية الاولى عن نجاحها اعلن البابا باسكال الثاني (Pascal II) الحرب الصليبية ضد مسلمي الاندلس (٢) .

وقد اصبح من المألوف ان يأذن البابا لملوك الاسبان في استعمال اموال الكنائس لمحاربة المسلمين (٣) . وكانت البعثات الصليبية الواردة من اروبا الشمالية (إنكليز - المان - هولنديون) لا ترى مانعا اذا تعطلت في سيرها ان تعين ملوك الاسبان في حروبهم ضد المسلمين ، وان يكتفي البعض منهم بتلك المساهمة .

---

١) ص ٢ (R. Grousset - L'épopée des croisades)

٢) اشباخ ج ١ ص ١٤٦

٣) انظر مثلا - اشباخ - ج ٢ صفحات ١٣١ - ١٩٥ مع ما تقدم لك نقله .

وفي سنة ٦٣٢هـ ١٢٤٤م أصدر البابا قريقوار التاسع قرارا وعد فيه النصارى الذين يحاربون مع ملك البرتغال « سانشو الثاني » بغفران ذنوبهم كما لو كانوا في الحروب الصليبية بالاراضي المقدسة ، وكان البابا يثير حماس البرتغاليين ضد المسلمين .

الملك جايم الاول :

يعتبر الملك جايم الاول (Jayème I) ملك ارغونة من اشد ملوك الاسبان محاربة للمسلمين وتنكيلا بهم . ولما اعتزم احتلال جزيرة ميورقة (١) جعل الصليب شعاره وانضم اليه الكثير من الجنويز والبروفانسيين . وعندما عزم هذا الملك على احتلال بلنسية ايده البابا قريقوار التاسع ودعا النصارى الى مساندته ، فاستجاب لذلك فرسان فرنسا وانكلترا (٢) .

واهتم الملك جايم لما يقع في الشرق وما يكيله الظاهر بيبرس من ضربات للصليبيين فتهيأ للقيام بحرب صليبية في بلاد المقدس باعتباره من كبار ملوك النصرانية اذ ذاك ، فاقلع في مستهل سبتمبر ١٢٦٩ م (٦٦٨هـ) من برشلونة في حملة صليبية قاصدا البلاد الشامية ، إلا ان عاصفة اجبرته على الرجوع الى ارغونة . ولكن ابناه غير الشرعيين (فيراندو - و - فيراندينز) تابعا سيرهما بقسم من الاسطول ، ونزلا بساحل عكا في شهر اكتوبر (٣) .

الفروسية الصليبية في اسبانيا :

لم تشابه الحروب في الاندلس الحروبَ الصليبية المشرقية في الروح الديني فحسب ، بل تابعتها حتى في روح الفروسية . فقد مرَّ عليك - فيما مضى - ما كان لفرسان المعبد والاسبتارية من القيمة والاعتبار في الحروب الصليبية بالمشرق . وقد ذاع صيت هؤلاء الفرسان عند النصارى الاسبان وعند ملوكهم ، حتى اوصى « الفونس المحارب » ملك ارغونة ان تقسم مملكته اثلاثا : الاول لسلام روح ابويه وللقبر المقدس وسدنته وكهنته ، والثاني لفقراء وفرسان الاسبتارية ، والثالث

---

١) احدى جزر الباليار الشرقية وهي ميورقة ومنورقة ويابسة وقد احتل جايم ميورقة سنة ١٢٣٢م ومينورقة سنة ١٢٤٢م

٢) اشباخ - ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٥

٣) ص ٦٤٩ ج ٣ (R. Grousset - Hist. de croisades)

لفرسان المعبد. كما انتظم « ريموند الثالث » في سلك فرسان المعبد. اما ابنه « ريموند الرابع » فقد بعث الى كبير فرسان المعبد بالمقدس ان يرسل عددا من فرسانه الى قطلونية . وقد اسس اول دير لهذه الطائفة ووهبها الكثير من الاملاك والحقوق والمزايا (١) . ثم تأسست في سائر اسبانيا النصرانية فرق من الفرسان على شاكلة فرسان المعبد . وكان لهذه الفرق عظيم الاثر في الانتصارات التي سجلها الاسبان ضد المسلمين في الاندلس.

وهكذا تبدو الصلة وثيقة متينة بين الحروب الصليبية العامة، التي كانت تهدف الى استخلاص بيت المقدس ، وبين الحروب الصليبية بالمغرب التي كانت تهدف الى استرجاع اسبانيا الى حظيرة النصرانية من جهة ، والى محاربة الاسلام ، ومحاولة القضاء عليه من جهة اخرى .

مُلحقات الفصل العاشر

١) الخلاصة

كانت الاراضي التي انتزعها الاسلام في اروبا الغربية لا تقل اهمية واعتبارا عما انتزعه من المشرق ؛ فقد عبر الاسلام الى الأندلس وتوغل في اراضي غاليا (فرنسا) حتى وصل الى ضفاف لالوار وضفاف الصاوون ، وتصدت الفرنجة في (غاليا) لرد الزحف الاسلامي بزعامة شارل مارتيل ؛ فكانت معركة بلاط الشهداء بداية لتوقف الفتوح الاسلامية في اروبا الغربية حتى انكمشت السيادة الاسلامية في الاندلس (اسبانيا) . وكان زعماء الافرنج على صلة بالبابوية ، مما جعل محاربتهم للمسلمين تتخذ صبغة الحرب المقدسة. ولم يكن الصراع الطويل الذي جرى في الانداس بين المسلمين والنصارى بعيدا عن الروح الصليبي الذي ظهر بعدُ في المشرق الاسلامي فقد كانت الصلة بين هذين الصراعين واضحة قوية . وكثيرا ما كان البابا يحرض ويدعو إلى محاربة

---

١) اشباخ - ج ١ صفحات ١٧٥ - ١٨٤

المسلمين في الاندلس . كما ساهم في هذه الحروب كثير من الفرسان من مختلف اقطار اروبا الغربية استجابة للعاطفة الدينية ، او انقيادا لاوامر الكنيسة وتحريض البابوية . وكانت تسود افكارهم ان محاربة المسلمين في الاندلس لا تقل اهمية عن محاربة المسلمين في بيت المقدس والمشرق .

٢) أرقام تاريخية

١١٤ هـ (٧٣٢م) موقعة بلاط الشهداء

١٣٧هـ (٧٥٦) تسأسيس مملكة الكنيسة البابوية

٣) حول معركة بلاط الشهداء

يرى كثير من الباحثين ان وقعة بلاط الشهداء كانت احدى المعارك الحاسمة في تاريخ الاسلام خصوصا ، وتاريخ العالم عموما : اذ هي تعتبر بداية لتوقف الوثبة الاولى من الفتوحات الاسلامية التي ابتدأت من الشام ومصر ووصلت الى جنوب فرنسا ووسطها . ولكن هل كان هذا التوقف لخير اروبا وسعادتها ام لشقائها وخسارتها؟ ... ان الانصاف يقر بالثاني؛ فان الاسلام ما حل بارض الا زرع فيها بذور الحضارة والتقدم والعدالة . وفي الوقت الذي كانت فيه اروبا غارقة في الجهالة والامية والتوحش كانت البلاد التي يسودها الاسلام ترفل في حلل الرفاهية والحضارة ، والثقافة والعمران . واليك بعض الاراء في قيمة هذه المعركة واثرها :

أ ـ لنفترض ان النصارى عجزوا عن دحر العرب ، وان العرب وجدوا جو شمال فرنسا كجو اسبانيا غير بارد ولا ماطر فاستوطنوه فماذا يصيب اروبا ؟

كان يصيب اروبا النصرانية المتبربرة ما اصاب اسبانيا من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبي العربي . وكان لا يحدث في اروبا ، التي تكون قد هذبها الاسلام ، ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة

« سان بارتلمي (١) » ومحاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه العرب من الوقائع التي ضرجت اروبا بالدماء عدة قرون . »

(حضارة العرب غوستاف لبون صفحة ٣٤٢)

ب - « إن شارل مارتيل وجنده كانوا لصوصا خرابا متوحشين باربارين . وان عرب الاندلس لو تجمعوا في فتح اروبا وبقوا فيها قرنين ، واقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا في اسبانيا لكُنَّا الان متقدمين خمسة قرون اكثر مما نحن عليه اليوم . ولا يستطيع عادٌّ ان يعد مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان التي سببها ذلك الظفر المبين الذي ناله «شارل مارتيل» في السهول التي بين «تور - بواتيه» .

(مدنية العرب في الاندلس تاليف جوزيف ماكيب تعريب تَقي الدين الهلالي ص ١١)

ج - « ... وقد اسبغت الاساطير الغربية المتأخرة على يوم بواتييه ثوبا من الزخرف والخيال . واسرفت في الايهام بخطورته . اما المسلمون فلم يشيروا اليه كثيرا . وقد سموه « بلاط الشهداء » ويعتبره النصارى الفرنجة بدء عهد سعيد صدوا فيه عدوهم الابدي . فالمؤرخ الانكليزي غبن (Giblon) وبعض المؤرخين الذين اتوا بعده ، ذهبوا الى انه لو ربح العرب تلك المعركة لكانت باريز ولندن موطنين تقام فيهما المساجد لا البيع التي تقوم اليوم . ولسمع فيهما القرآن يفسر في الجامعات كاكسفورد وغيرها من مراكز العلم لا الكتاب المقدس كما يجري اليوم ... »

(ص ٥٩٧ - تاريخ العرب (مطول) تأليف فليب حتى وصحبه)

د - « ... ونحن مع الفريق الاول نكبر شأن بلاط الشهداء ايما إكبار . ونرى انها كانت اعظم لقاء بين الاسلام والنصرانية وبين الشرق والغرب ، ففي سهول «تور بواتييه» فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصاير العالم كله ، وارتد تيار الفتح الاسلامي امام الامم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام امام اسوار

---

١) افزع المذابح الدينية . وقعت في فرنسا ليلة ٢٣ اوت سنة ١٥٧٢ م اجهز فيها الكاثوليك على البروتستان في عهد شارل التاسع . وقدر بعضهم عدد القتلى بستين الفا . اما محاكم التفتيش فهي المحاكم الخطيرة التي انتصبت في اسبانيا لمحاكمة المسلمين أو الملاحدة من النصارى . ومثلت في هذه المحاكم أقسى ما عرفته الانسانية من أنواع التعذيب والظلم والارهاق .

القسطنطينية ، واخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح امم الغرب وإخضاع النصرانية للاسلام .

ولم تتح للاسلام المتحد فرصة اخرى لينفذ الى قلب اروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره الى بلاط الشهداء .

ولكنه اصيب غير بعيد بتفرق الكلمة . وبينما شغلت اسبانيا المسلمة بمنازعتها الداخلية إذ قامت فيما وراء البرنيه امبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة تهدد الاسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .. »

(ص١٠٩ من كتاب دولة الاسلام في الاندلس - العصر الاول - لعبد الله عنان)

٤ - اروبا الغربية من سقوط رومة الى عظمة الاسلام :

استطاعت الدولة الرومانية ، إبّان عظمتها ، ان تستولي على جميع حوض البحر الابيض المتوسط ،وان تكون الاراضي الواقعة غرب نهر الرين وجنوب نهر الدانوب من قارة اروبا تحت سيادتها وحكمها .

ولكن منذ اواخر القرن الرابع الميلادي اخذت الشعوب الجرمانية المتبربرة تغزوالامبراطورية الرومانية الغربية ،وتستقر في اراضيها حتى قضت عليها . وسقطت رومة سنة ٤٧٦ م ، وزالت بسقوطها الامبراطورية الرومانية الغربية . وقدقامت على انقاض هذه الامبراطورية ممالك جرمانية كثيرة اهمها القوط الشرقيون بحوض الادرياتيك . والقوط الغربيون باسبانيا وجنوب فرنسا . والوندال بشمال افريقية . والافرنك (الفرنجة) بشمال فرنسا .

وشيئا فشيئا اخذت معالم الحضارة الرومانية في الزوال ، وسادت الامية والجهالة . ودخلت اروبا في العصور الوسطى ، التي تبدأ من سقوط رومة وتستمر نحو ألف سنة الى استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. وبذلك تدرك ان العصور الوسطى (عصور الظلام والجهالة والتأخر) لم تكن تصدق إلا على اروبا . إذ العصور الوسطى هي التي ازدهر فيها الاسلام ، وحمل مشعل الثقافة والرقي ، واضاء به ارجاء العالم،وادّى رسالة هي حلقةالوصل بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة .

تمـرينات

١) كانت لموسى بن نصير خطة واسعة النطاق. فالى اي هدف كان يرمي، وما الذي صده من التنفيذ ؟

٢) لماذا تحفز الفرنجة لرد الخطر الاسلامي في اروبا الغربية ؟

٣) كانت حروب الافرنج مع المسلمين باروبـا الغربية لها صبغة صليبية. بين ذلك.

٤) ما هو الخطأ الحربي والسياسي الذي ارتكبه المسلمون عند فتح الاندلس ؟

٥) لماذا منع البابا نصارى الاسبان من المساهمة في الحروب الصليبية بالمشرق ؟

٦) تحدث عن صلة اسبانيا بالكنيسة البابوية.

٧) ما هي صلة الصراع الاسلامي المسيحي في الاندلس بالحروب الصليبية العامة.

٨) كيف نشأت الممالك الاسبانية بالاندلس. وما الذي ساعد على تقويتها ؟

٩) استعرض بعض اراء المؤرخين في معركة بلاط الشهداء. ورجح واحدا منها.

١٠) ماذا تعني كلمة « العصور الوسطى » ؟

الفصل الحادي عشر

أدوار السيادة الإسلامية بالأندلس

١ ـ الفتح وعصر الولاية .

٢ ـ الدولة الاموية .

٣ ـ ملوك الطوائف .

١ ـ الفتح العربي وعصر الولاية

تولّى موسى بن نصير ولاية افريقية سنة ٨٩ هـ بعد ان وطد دعائم الاسلام فيها ولاة مختلفون ، كان آخرهم حسان بن النعمان الغساني . وقاوم موسى بن نصير ثورات البربر وقمعها . واجتمع بقية الثوار في طنجة فتغلب عليهم موسى بن نصير وولّى على طنجة مولاه طارق بن زياد . ولم يبق خارجًا عن النفوذ الاسلامي إلا مدينة سبتة التي كانت تحت حكم ملك اسبانيا القوطي . وكان واليها من قبله « الكونت جوليان » (أليان ـ أو ـ يوليان) .

اسبانيا (١) قبل الفتح الاسلامي :

خضعت اسبانيا منذ القرن الخامس المسيحي الى حكم القوط الغربيين ، فاسسوا هنالك مملكة قوية . ثم دخلها الوهن والاضطراب فيما بعد . وقبيل الفتح الاسلامي كانت اسبانيا خاضعة لحكام القوط الذين ركنوا الى الراحة والترف ، وأوغلوا في التنكيل واضطهاد الشعب الفقير البائس . وكان باسبانيا كثير من اليهود معرّضين

---

١) اسبانيا (جزيرة ايبريا) . وقد التحق بها اسم الاندلس بسبب أن استولى عليها الوندال . وقد استمرت هذه التسمية مدة الحكم الاسلامي فيها . اما اليوم فلا يطلق اسم الاندلس إلا على القسم الجنوبي من اسبانيا ، الواقع بين الوادي الكبير والبحر ومن أهم مدنه : قرطبة ـ اشبيلية ـ مالقة ـ جيان ـ المرية ـ غرناطة .

للاضطهاد والمصادرة والاكراه على التنصير ؛ مما جعلهم يحاولون الثورة ضد هذا الاستبداد .

وكانت هذه الحال السيئة ، الواقع تحت نيرها عامة الشعب واليهود ، تجعل هؤلاء وأولائك متطلعين الى من ينقذهم من هذا العذاب . وهكذا لم تكن الحياة السياسية مستقرة في اسبانيا القوطية ، فكانت اسبانيا - قبيل الفتح - مسرحا للثورات والحروب الداخلية .

وقبل الفتح الاسلامي كان الجالس على عرش القوط بطليطلة هو الملك « غيطشه » (وتيزا) وكانت سيرته القاسية المستهترة باعثة على اندلاع نار الثورة ضده بزعامة « لذريق » (١) (روذريق) قائد الجيش القوطي . وانتهت ثورته بالانتصار وانتصابه ملكا على اسبانيا . وقد أعانه في ثورته النبلاء ورجال الدين ، ولكن سرعان ما عسف لذريق وانغمس في الشهوات ، فنفرته القلوب وكرهه الناس .

واندلعت نيران الثورة ضده والتجأ أبناء خصمه (غيطشه) الى حاكم سبتة ، الذي كان من ألد أعدائه (٢) . ثم استنجد هذا الحاكم بالمسلمين فاهتبلوا الفرصة وتقدموا الى فتح الاندلس .

فتح الاندلس :

وفي رجب ٩٢ هـ (افريل ٧١١ م) عبر طارق بن زياد البحر في سبعة الآف مقاتل ونزل اسبانيا (٣) . واندفع قاصدا مدينة طليطلة عاصمة القوط . ثم أنجده موسى بن نصير بخمسة الآف اخرى ، بينما كان « لذريق » بشمال اسبانيا مشغولا بقمع ثورة هناك . وما إن سمع بنزول العرب في بلاده حتى عاد مسرعا ، والتف حوله رجال الدين والنبلاء واجتمع له من الجيش نحو مائة الف مقاتل .

وفي رمضان التقى الجمعان بسهول شريش (Xérès) (٤) فجرت بين الطرفين مناوشات اعقبها التحام شديد انتصر فيه المسلمون رغم قلتهم (١٢ الفا) وانهزم

---

١) كان والد لذريق « تيودور » قد قتله غيطشه وسمل عينيه .

٢) يرجع كثير من المؤرخين سبب هذه العداوة الى ان لذريق أراد اغتصاب إحدى بنات جوليان حاكم سبتة .

٣) كان نزول طارق وجيشه بالساحل الواقع امام الجزيرة الخضراء وكان الساحل جبليا صخريا ومنذ ذلك الزمن اطلق على ذلك الجبل « جبل طارق » .

٤) انظر اماكن المعارك الكبرى في الخريطة عدد (٩)

القوط شر هزيمة . ثم تابع طارق بن زياد فلول الجيش القوطي المنهزم ، فقضى عليها قرب « استجة » واطّرد النصر لفائدة المسلمين ، ففتحت مدائن (قرطبة - ألبيرة - غرناطة -) وغيرها . وسار طارق بن زياد صوب طليطلة فاستولى عليها. ثم تابع فتوحه الى شمال اسبانيا (جليقية) . وعاد بعد ذلك الى طليطلة اين تلقى أمرا من موسى بن نصير يأمره بالتوقف عن الزحف . وفي رمضان ٩٣هـ عبر

عبور أول جيش اسلامي الى الاندلس

« عن الحلل السندسية »

موسى بن نصير المضيق في جيش مؤلف من العرب والبربر ، وافتتح عدة مدن أخرى (شذونة - قرمونة - اشبيلية - ماردة) ثم قصد طليطلة . والتقى - قريبا منها - بمولاه طارق بن زياد . (وتذكر المصادر التاريخية ان ابن نصير عنف طارقا واهانه ؛ لانه لم يتبع اوامره) .

ثم تظافرت جهود القائدين على فتح بقية الاندلس، فلم يبق فيها خارجا عن الحكم الاسلامي إلا مناطق ضيقة جبلية التجأ إليها بعض القوط واعتصموا بها.

ولاة الاندلس :

وبينما كان موسى بن نصير منهمكا في إتمام فتوحاته إذ وردت عليه من الخليفة الاموي بدمشق (الوليد بن عبد الملك) رسائل تدعوه بالحاح الى دمشق (مركز الخلافة) فغادر موسى بن نصير الاندلس في ذي الحجة ٩٥ هـ (٨١٥ م) بعد ان ترك ولده عبد العزيز واليا عليها . وبهذه الولاية تدخل الاندلس في عصر الولاة، وتعاقب عليها ولاة كثيرون منهم المستقل بولايتها ، ومنهم التابع لولاية القيروان او مصر . وامتد عصر الولاة من ٩٥ هـ (٧١٥ م) الى ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) وكان من ابرز هؤلاء الولاة :

أ) عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي يعتبر متمما للاعمال التي قام بها والده وطارق بن زياد . وكان شهما عادلا شجاعا ، إلا ان الامد لم يطل به إذ اغتيل من طرف الجند بعد سنة ونيف من ولايته .

ب) وفي سنة ١٠٠ هـ جعل عمر بن عبد العزيز الاندلس ولاية مستقلة تابعة لمركز الخلافة مباشرة بولاية السمح بن مالك الخولاني . وكان حازما عادلا ، ساد الامن في عهده وغزا وراء البرانس واثخن في لانكدوك واكوتين وتولوز (١) . وفي هذا العهد بدأ النزاع بين الافرنج والمسلمين في ارض غاليا ، ومات السمح شهيدا في وقعة تولوشة (تولوز) سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م .

ج) عنبسة الكلبي ، تولى امر الاندلس باختيار بشر بن صفوان (والي إفريقية) فتابع هو ايضا قتال الافرنج ومات شهيدا في غاليا سنة ١٠٧هـ ٧٢٥م . ثم جاء بعده ولاة الى الاندلس لم يكن لهم شأن عظيم حتى كانت سنة ١١٣هـ

د) ففيها تولى الاندلس عبد الرحمان الغافقي . الذي استطاع ان يلم الشمل الآخذ في التصدع ، وان يوحد كلمة المسلمين . ثم عبر البرانس واثخن في ارض الافرنج واستطاع ان يستولي على غالب فرنسا الجنوبية والوسطى ، مما أزعج الافرنج ودعاهم الى تكتيل جهودهم ضده بزعامة « شارل مارتيل » حتى كانت واقعة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ - ٧٣٢م التي استشهد فيها عبد الرحمان الغافقي

---

١) هي (Toulouse - Languedoc Aquitaine) في فرنسا الحالية .

هـ) وفي عهد ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (من سنة ١١٦هـ - ٧٣٢م الى ١٢٣هـ ٧٤١م) اخذت القوات الاسلامية تتراجع عن غاليا ، فلم يبق بأيدي المسلمين الا شريط ساحلي صغير يمتد من البرانس الشرقية الى مدينة نربونة . واضطربت الاحوال بالاندلس واندلعت فيها نيران الثورة ، وتكاثرت الفتن بين الاحزاب والقبائل (عرب - بربر - يَمَنية - قَيْسِية) . وكان هذا في الوقت الذي دخلت فيه الخلافة الاموية دور الهرم والاحتضار ؛ فقام ضدها العباسيون وقضوا عليها وطاردوا اتباعها ووَرثَةَ ملكها ، ونكلوا بهم تنكيلا فظيعا (سنة ١٣٢هـ) . واستمرت الاضطرابات في بلاد الاندلس الى سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م وقد تولاها يوسف ابن عبدالرحمان الفهري منذ سنة ١٢٩ . لكنه لم يكن ينتهي من إخماد ثورة حتى تقوم ثورة اخرى .

٢) الدولة الاموية بالاندلس

تجديد مجد بني أمية :

استطاع عبد الرحمان الداخل (١) ان يفلت من مطاردة العباسيين الى ان وصل الاندلس مختفيا سنة ١٣٨هـ بعد ان مهَّدَ له الامرَ مولاه بدر . واستجاب الى دعوته كثير من الناس ، خصوصا القبائل اليمنية وجنود الشام . وسرعان ما تغلب على يوسف الفهري فهزمه . وبويع له بالامارة ودخل قرطبة ظافرا في العاشر من ذي الحجة .

كان عبد الرحمان الداخل داهية حكيما (٢) فكان يدعو للمنصور العباسي . ثم قطع الخطبة عنه لما تم له ملك الاندلس ومهد امرها وخلد لبني امية السلطان بها وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها . ولما استوثق له الامر امر بلعن المسوّدة (٣) وقطع الدعاء لابي جعفر المنصور (٤) . وكان هذا الفتى

---

١) عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، أمه أم ولد اسمها (راح) ولد سنة ١١٣ هـ وقد استمر أميرا على الاندلس من ١٣٨ الى ١٧٢ هـ .

٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

٣) المسودة : العباسيون ، إذ كان السواد شعارهم .

٤) البيان المغرب للمراكشي ص ٢٠٧

الاموي جلدا صبورا حازما ، فانه رغم الثورات والانتقاضات التي وقعت طول مدته قد تغلب عليها ونجح في إخضاع الاندلس ، واسس دعائم دولة اموية جديدة لا في بلاد الشام وانما في الطرف الاقصى من المغرب الاسلامي . وجعل من مدينة قرطبة عاصمة لمملكته الجديدة . واخذت هذه العاصمة تعظم وتزدهر حتى غدت من اعظم الامصار حضارة وعمرانا وثقافة وازدهارا . وكانت تنافس بغداد في هذه الميادين وتبزها احيانا . وقد عاصر عبد الرحمان الداخل ابا جعفر المنصور الذي اعترف لهذا الفتى الاموي بالنبوغ ، واطلق عليه لقب « صقر قريش » كما عاصر اعظم ملك افرنجي « شارلمان » حفيد « شارل مارتيل » . وقد انتهز « شارلمان » فرصة دعوته من طرف الثوار على عبد الرحمان الداخل فعبر البرانس وزحف على شمال الاندلس ، لكنه رجع خائبا منهزما .

خلفاء عبد الرحمان الداخل :

امتد ملك بني امية في الاندلس الى سنة ٤٢٢هـ . وتتابع على عرش قرطبة ملوك كثيرون . ورغم ان الاندلس اصبحت قوية متحدة إلا ان هذا لم يمنع اعداءها من إفرنج واسبان ان يستغلوا اي اضطراب او شغب يقع في البلاد ؛ ففي عهد هشام الاول (١٧٢ - ١٨٠هـ) خرج عن سيادة الاسلام اهم الاراضي الواقعة وراء البرانس . وفي عهد الحكم الاول (١٨٠ - ٢٠٦هـ) سقطت مدينة برشلونة(١) امنع ثغر بشمال اسبانيا كان يعتمد عليه المسلمون سنة ١٧٥هـ - ٨٠١م ، وكانوا يطلقون عليها اسم « الثغر الاعلى » . وفي عهد عبد الله بن محمد الاول (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) تفاقم امر الثورة ودخل البلاد الاضطراب والانقسام واشرفت الدولة الاموية على الانقراض والزوال ، لو لم يتدارك امرها عبد الرحمان الناصر .

عبد الرحمان الناصر :

يعتبر عبد الرحمان الناصر اعظم ملوك بني امية في الاندلس وواسطة عقدهم . وقد بلغت البلاد في عهده (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ) غاية المجد والعظمة والازدهار .

---

١) كان ذلك بداية لامارة قطلونية النصرانية .

واشتهر عبد الرحمان الناصر بالحزم والصرامة والشجاعة ؛ فعندما تولى الامارة كانت الاندلس تكاد تفقد فيها سيادة بني امية لما نالها من الفوضى والتمزيق والتشتت وانحلال السلطة ؛ فاخذ الناصر يجمع الشمل ويقمع الثائرين الى ان خلصت له البلاد ، ودانت له بالطاعة . وطمع الفاطميون - بافريقية - في الاستيلاء على الاندلس لما رأوا ما اصبحت عليه من الفوضى ، إلا ان عبد الرحمان الناصر

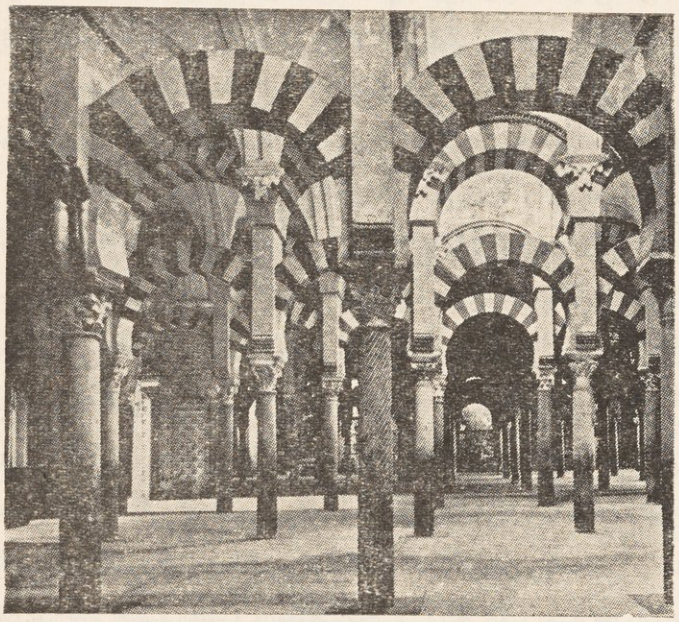

جامع قرطبة ، يمثل روعة الفن العربي بالاندلس

ردّ كيْدَهم ، ومنع تسرب دعوتهم الى بلاده وحارب ملوك النصارى بشمال اسبانيا وقهرهم . وكان له اسطول بحري بلغ عدده مائتي سفينة .

إعلان الخلافة بالاندلس :

لما استقل عبد الرحمان الداخل بالاندلس اكتفى بلقب « أمير » وسار على ذلك خلفاؤه . ولكن ضعف الخلفاء العباسيين بالمشرق ، واستبداد الاتراك باولائك الخلفاء ترتب عنه أن انشقت اقطار كثيرة عن سيادة بني العباس وانبعثت الخلافة الفاطمية في المغرب العربي . ولما رأى عبد الرحمان الناصر هذا الضعف

وعلم ان الخليفة العباسي « المقتدر » قتله مملوكه مؤنس المظفر سنة ٣١٧هـ اعلن عبد الرحمان الناصر الخلافة وتلقب بلقب « امير المؤمنين ». والتصق هذا اللقب بمن أتى بعده من ملوك بني امية.

التراجع الاموي ، حجابة بني عامر :

تولى بعد عبد الرحمان الناصر ابنه الحكم الثاني « المستنصر » فعاشت البلاد ١٦ سنة في هدوء واطمئنان. ولما توفي سنة ٣٦٦هـ ولي ابنه هشام الثاني « المؤيد » ، وكان ابن عشر سنين فتغلبت عليه امه « صبح » ثم حاجبه المنصور بن ابي عامر. وكان المنصور بن ابي عامر من ألمع الشخصيات التي لعبت دورا عظيما في تاريخ الاندلس ، فقد استبد بالامر ، واصبح الخليفة الاموي لا رأي له ولا نفوذ. وضُرِب اسم المنصور على السكة بعد اسم الخليفة ، ودعي له على المنابر. واشتهر المنصور الحاجب بغزواته الكثيرة وإثخانه في بلاد النصارى (الاسبان) فقد تغلب عليهم واستولى على الكثير من مدنهم ، وخضع له ملوكهم وأدّوا اليه الاتاوة ، وقدموا اليه مراسم الطاعة والولاء. ثم مات المنصور (سنة ٣٩٣هـ) شهيدا في احدى غزواته بشمال الاندلس. وتولى الحجابة بعده ابنه المظفر ، فسار على منهج ابيه في الاستبداد بالامر ، لكن لم تطل حياته. وبعد موت الحاجب المظفر اختل توازن الدولة وقامت الثورات والفتن وانقسم البيت المالك. واصبح الاندلسيون يستعينون بملوك النصارى ضد بعضهم بعضا. واستبد اصحاب الاطراف بما تحتهم. ودخلت الاندلس المسلمة في دور جديد بقتل المستعين واستيلاء بني حمود على قرطبة سنة ٤٠٠هـ. واستغل « الاذفونش الخامس » ملك قشتالة هذا الاضطراب فاسترد ما استولى عليه المنصور بن ابي عامر من مدن النصارى. واستمرت الاضطرابات الى سنة ٤٢٢هـ (١٠٣٠م) بخلع هشام «المعتمد بالله». ولم يعد لبني امية ذكر. وكان عصر ملوك الطوائف.

٣) ملوك الطوائف

عصر ملوك الطوائف بالاندلس من اخطر عصور هذه البلاد؛ فقد انقسمت الاندلس الى ممالك عديدة. وتربع على عروشها ملوك كانوا فريسةً للتحاسد والحقد

والخلاف والغرور . وقد كان عدوهم الاصلي (الاسبان) يذكي نيران الفتن : يعين الضعيف على القوي حتى يضعفوا جميعا ، فيسهل عليه بذلك افتراس هذا القطيع الذي تفرق شمله وضل رعاته . وهكذا (تغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسموا ألقاب الخلافة : فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون ، وأخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل ، الى غير ذلك من الالقاب الخلافية . وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهّدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقابُ مملكة في غير موضعها ... كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الاسد ١)

تكاثرت ممالك الطوائف حتى بلغت نحوا من عشرين مملكة . ومن اشهر هذه الممالك - ١) بنو حمود بقرطبة ثم مالقة والجزيرة الخضراء - ٢) بنو ذي النون بطليطلة ونواحيها - ٣) بنو عباد بإشبيلية - ٤) بنو الافطس ببطليوس - ٥) بنو هود بسرقسطة - ٦) بنو زيري بغرناطة - ٧) بنو جهور بقرطبة .

الضغط الاسباني على ملوك الطوائف :

عرفت - مما سبق - كيف تجاءت فلول القوط - أول الفتح الاسلامي - الى المناطق الجبلية بشمال الاندلس . واستمرت هذه الفلول تستغل اية فرصة لتوسيع نفوذها وتمتين قواها . ومدة عظمة الدولة الاموية بالاندلس اكتفت الممالك الاسبانية بما عندها . وكانت تقف غالب الاحيان موقف الدفاع عن حوزتها . وفي اوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر مسيحي) آل أمر الاندلس الى مهزلة ملوك الطوائف . وهنا تحلبت لها ملوك الاسبان ، وشمروا عن سوقهم للاجهاز على المسلمين . والى هذا الوقت كانت الاراضي التي بيد الاسبان تبلغ ثلث الجزيرة فقط .

---

١) عن المعجب ص ٧٠ . اما ابن رشيق قائل البيتين فهو الشاعر التونسي المشهور صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده . وله عدة تآليف اخرى . ولد في مسيلة ونشأ في القيروان أين علا نجمه زمن المعز بن باديس الصنهاجي . وبعد زحف بني هلال ارتحل عن القيروان واستقر بصقلية . وقد وافاه الاجل هنالك بمدينة مازرة .

ورغم ان الدويلات (١) النصرانية كانت متعددة إلا أنها كانت أقرب الى الوحدة . كما كانت توجد من ضمنها مملكة قوية تتزعم قيادتها وتوجيهها . وفي النصف الاول من هذا القرن استطاع سانشو الكبير « شانجة » أن يضم إليه جميع الممالك النصرانية ضما حقيقيا أو بالتبعية إليه . ولما توفي سانشو الكبير (٤٢٨ هـ ١٠٣٥ م) تقلد زعامة نصارى الاسبان ابنه « فرديناند الاول » الذي وجه همه الى محاربة ملوك الطوائف ، لاسيما بنو الافطس . ولم يمت فرديناند (٤٥٨ هـ ١٠٦٥ م) إلا بعد أن خضع له ملوك اشبيلية وطليطلة وبطليوس ، ودفعوا له الاتاوة . ورغم اقتسام المملكة بعد موته فان ابنه الآذفونش « الفونس السادس » استطاع بعد حروب طويلة ان يضم اليه مملكة أبيه (قشتالة - ليون - جليقية - البرتغال) وان يقتسم مع شانجة (ملك أرغونة) مملكة نفاره . فتقوت المملكتان وعظم شأنهما وتحالفتا على محاربة المسلمين والنيل منهم .

بداية التقهقر الاسلامي :

كان موقف ملوك الطوائف موقف العداء والحروب والدسائس ضد بعضهم بعضا ، على نقيض موقفهم مع ملوك النصارى ، خصوصا الاذفونش السادس (ملك ليون وقشتالة) ؛ فالمأمون بن ذي النون (صاحب طليطلة) كان يثق تمام الثقة بالاذفونش ، حتى أنه جعله من جملة الاوصياء على ولي عهده (يحي) لما احس بقرب أجله . واما المعتمد بن عباد (صاحب اشبيلية واعظم ملوك الطوائف اذ ذاك) فقد تحالف مع الاذفونش وعاهده على ألاّ يتعرض للاذفونش اذا ما غزا طليطلة في مقابل إعانته بالجيوش المرتزقة ضد اعدائه من ملوك الطوائف (٢) .

سقوط طليطلة (٤٧٨هـ ١٠٨٥م) :

وهكذا وجد الاذفونش الفرصة سانحة فاندفع صوب طليطلة للقضاء على بني ذي النون واحتلالها . ولم يجد صاحبها (يحي القادر) معينا يدفع به الخطر

---

١) ليون - قشتالة - أرغونة - نافارة - امارة قطلونية .

٢) اعترف ابن عباد بهذه الهفوة العظيمة في الرسالة التي أجاب بها تهديد (الاذفونش) له بعد ذلك . انظر رسالته فى الحلل الموشية لابن الخطيب ص ٢٥ طبع تونس سنة ١٣٢٩ هـ .

سوى بني الافطس ، اصحاب بطليوس . اما ابن عباد فقد كان يوسّع دائرة مملكته على حساب إخوانه المسلمين ! واخيرا وبعد نحو ست سنوات استطاع الاذفونش ان يتغلب على طليطلة ، فاستسلمت إليه ودخلها ظافرا منتصرا (المحرم - اكتوبر ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م) وبذلك استرجع النصارى عاصمة القوط الاولى بعد خضوعها للسيادة الاسلامية نحوا من اربعة قرون .

ولم يكتف الاذفونش بهذا بل اندفع متقدما صوب قرطبة وماردة وبطليوس ، مما جعل ابن عباد يندم على محالفة الاذفونش ، الذي اعلن عزمه على محاربة جميع المسلمين ، وضمنهم المعتمد بن عباد . واحس ملوك الطوائف بالخطر الداهم وسوء مغبة خلافهم . وكان هذا الضغط دافعا بهم الى التقارب وإزالة الخلاف - ولو ظاهريا - فعقدوا الاجتماعات وتداولوا الامر وأيقنوا انهم لا يستطيعون إيقاف هذا الخطر ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وهكذا لم ير الاندلسيون بدًّا من الاستنجاد بدولة المرابطين الناشئة في المغرب الاقصى .

مُلحقاتُ الفصلِ الحادي عشر

١) الخلاصة

في سنة ٩٢هـ ، عبر طارق بن زياد الى الاندلس وتغلب على «لذريق» ملك القوط ، ثم التحق به موسى بن نصير . وفي وقت قصير وقع القضاء على سيادة القوط ، وخلصت الاندلس للسيادة الاسلامية . ولم يبق نفوذ للاسبان إلا في المناطق الجبلية الواقعة بالشمال الغربي . حيث اعتصموا هناك بالجبال والصخور . وتعاقب على الاندلس ولاة كثيرون الى سنة ١٣٨هـ عندما استطاع عبد الرحمان الداخل اعادة الدولة الاموية في الاندلس ، بعد ان قضى عليها العباسيون في المشرق . وبلغت الدولة الاموية بالاندلس درجة عظيمة من الرقي والازدهار ، لا سيما مدة عبد الرحمان الناصر ، الذي خلع على نفسه لقب أمير المؤمنين لمّا ضعف الخلفاء العباسيون ببغداد . ولكن مجد بني امية اخذ في التراجع منذ هشام المؤيد ؛ فقد تغلب عليه حاجبه المنصور بن ابي عامر ، واصبح زمام الامر بيده . وبعد وفاة

الحاجب المنصور بقليل دخلت البلاد الاندلسية في الفوضى والاضطراب والانقسام، فانقرضت بسبب ذلك الدولة الاموية واصبحت الاندلس مقسمة الى عدة ممالك. وذاك ما يعبر عنه بعصر ملوك الطوائف. وانتهز الاسبان هذا الضعف وهذا الانقسام فاخذوا يهاجمون هؤلاء الملوك الضعاف. وكانت النتيجة لهذا ان احتل « الاذفونش السادس » طليطلة (٤٧٨هـ ١٠٨٥م) وتابع زحفه وتهديده لملوك الطوائف. وأيقن هؤلاء الملوك بعجزهم عن صده، فبعثوا الى دولة المرابطين بالمغرب الاقصى مستنجدين بها ضد الخطر المحدق بهم.

٢) أرقام تاريخية

٩٢هـ (٧١١م) واقعة شريش وانتصار طارق بن زياد على لذريق

١٣٨هـ (٧٥٥م) ابتداء الدولة الاموية بالاندلس

١٨٥هـ (٨٠١م) سقوط برشلونة

٤٢٢هـ (١٠٣٠م) عصر ملوك الطوائف

٤٧٨هـ (١٠٨٥م) سقوط طليطلة

٣) عصر ملوك الطوائف

عصر ملوك الطوائف بالاندلس، وان كان من الناحية السياسة يمثل عصر الفوضى والاضطرابات، إلا انه من الناحية الادبية والعلمية كان عصر الازدهار والنبوغ فالنهضة التي ابتدأت زمن عظمة الامويين لم تؤت ثمارها الناضجة إلا في عهد ملوك الطوائف وما بعده. وهذا العصر يشبه القرن الرابع الهجري بالنسبة الى بغداد؛ فقد كانت الحركة الانفصالية عن بغداد، ومزاحمة العواصم الجديدة لها من أعظم اسباب ازدهار الحركة العلمية والادبية في المشرق الاسلامي. وهكذا كان الامر لقرطبة عاصمة الامويين؛ فلم تبق في الاندلس مركزية سياسية واحدة، بل اصبحت إشبيلية وطليطلة وبلنسية وبطليوس وغيرها يتنافس ملوكها في تشجيع العلماء والادباء وتقريبهم منهم وتقليدهم المناصب العالية، فراجت سوق العلم والادب وكثر النبغاء والنابهون في سائر المعارف والفنون. وتستطيع ان تدرك مبلغ النشاط الادبي إذا رجعت - مثلا - الى كتاب الذخيرة لابن بسام او قلائد العقيان

للفتح بن خاقان او نفح الطيب للمقري . ومن أبرز شخصيات هذا العصر: ابن زيدون وابن خفاجة وعلي بن حزم ، الذي كان اول عالم عني بدرس الاديان والمقارنة بينها(١) . ومن رجال هذا العصر ابو بكر بن قزمان ، مخترع فن الموشح في الشعر ، وابو القاسم صاعد ، صاحب كتاب طبقات الامم ، وابو عبيد البكري، صاحب المسالك والممالك ومعجم ما استعجم . وكان هذا العصر خير ممهد لبلوغ الفلسفة الاسلامية اوج مجدها وعظمتها بنبوغ الفلاسفة الاعلام : ابن طفيل - ابن باجة - ابن رشد - ابن ميمون .

٤) طليطلة

لم تفقد مدينة طليطلة (عاصمة القوط) اهميتها بعد الفتح الاسلامي ؛ فقد بقيت من اعظم المراكز الاسلامية ومن اهم مدن الاندلس . وكانت زمن ملوك الطوائف من اهم العواصم وخير منافس لقرطبة (جوهرة الاندلس) . وكانت من الناحية الحربية يطلق عليها اسم « الثغر الادنى » . اما من ناحية الصناعة فكانت من اشهر المدن الصناعية .

وكان لبقائها زهاء الاربعة قرون تحت النفوذ الاسلامي اثر كبير على أهلها . ورغم ان الاسبان جعلوها عاصمة لهم عقب احتلالها ، ورغم المضايقة الشديدة على اللغة العربية ، فان اهالي طليطلة بقيت عندهم اللغة العربية خمسة قرون بعد احتلالها من طرف الاسبان (٢) . ومثلت مدينة طليطلة - بعد رجوعها للاسبان - دورا حضاريا عظيما ، إذ كانت انشط مركز واحسنه لتسرب الحضارة الاسلامية الى اروبا ؛ فقامت فيها مدارس منظمة لترجمة كنوز الثقافة الاسلامية الى اللغات الاروبية ، سيما اللاتينية . وكانت مقصدا للعلماء والطلاب المتعطشين الى المعرفة من مختلف الاقطار الاروبية . وفي طليطلة تأسست اول مدرسة للاستشراق (٣)

---

١) فليب حتي ص٦٦٢ - بروكلمان ٢ ج ١٧٧ - ٢) الحلل السندسية لشكيب ارسلان ج١ص ٣٦٥ - ٣) فليب حتي - مطول ص٦٩٨ . اما الاستشراق فيراد منه دراسة احوال الامم الشرقية من طرف علماء الغرب مهما كانت هذه النواحي « لغة - ديانة - اقتصاد - اجتماع » الخ . . وقلما كان الاستشراق يقصد منه خالص الثقافة . بل كان غالبا ما يتجه الى مقصد التبشير بالمسيحية او بقصد الاستعمار والاستيلاء .

(سنة ٦٤٨هـ ، ١٢٥٠م) . وعن طريق طليطلة ترجمت مختلف الكتب العربية في الطب والفلسفة والفلك والحساب والكيمياء . وقد بلغ ما ترجمه «جرارد القرمونى» وحده (٧١) كتابا (١) . وهكذا كانت طليطلة اعظم جسر عبرت عليه الثقافة الاسلامية الى اروبا الغربية وكان لذلك العبور اعظم الاثر في النهضة الاروبية الحديثة.

وعندما سقطت طليطلة بيد الاسبان ساد الفزعُ جميعَ المسلمين هنالك . وقدر العقلاء ما سيكون وراء هذه الهزيمة ، فقد كانت بداية تقلص ظل الاسلام عن الاندلس . بل كانت بداية النهاية . وقد عبر أحد الشعراء عن هذا المعنى احسن تعبير عند ما قال بعد سقوط طليطلة :

يا أهل اندلس شُدُوا رحالكم ... فما المُقام بها إلا من الغَلَطِ
السِلك يُنْثَر من أطرافه وأرَى ... سلك الجزيرة منثورا من الوَسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط (٢)

٥ ـ دولة المرابطين :

نشأت دولة المرابطين في جنوب المغرب الاقصى في قبيلة لمتونة من صنهاجة البربرية ، وذلك في النصف الاول من القرن الخامس الهجري . وابتدأ امر هذه الدولة على يد يحي بن ابراهيم القدالي والداعية عبد الله بن يس الجزولي . وسرعان ما علا شأن هذه الدولة وعظم خطرها . ولما آل أمرها الى السلطان يوسف بن تاشفين ازدادت عظمة واتساعا وهو الذي أسس مدينة مراكش (٤٥٤هـ ـ ١٠٦٢ م) واتخذها عاصمة له . ثم تقدم الى شمال المغرب فاستولى عليه كما استولى على المغرب الاوسط (الجزائر) . وأصبحت مملكته تمتد من المحيط الاطلسي الى الجزائر غربا وشرقا ، ومن البحر الابيض المتوسط الى الصحراء الكبرى شمالا وجنوبا .

---

١) فليب حتي ـ مطول ص ٦٩٩

٢) عن ازهار الرياض للمقري ج ١ ص ٤٦ . وقائل الابيات هو عبد الله اليحصبي المعروف بابن العسال .

وكان المرابطون يتقدون حمية وحماسا دينيا ؛ فقد قامت دعوتهم على محاربة الظلم والفساد والطغيان. وكانت الدعوة التي بثت فيهم ما تزال حارة ملتهبة . وإذ كانت حال المسلمين بالاندلس تدعو الى الاشفاق أمام الخطر الاسباني ، وجاء المسلمون مستنجدين بيوسف بن تاشفين (سلطان المرابطين) لم يتردد المرابطون طويلا في النجدة . فقي ربيع الاول (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) - عبر يوسف ابن تاشفين الى الاندلس لانقاذها من الخطر المحدق بها وإعادة مجد الاسلام وعظمته هنالك.

تمرينات

١) كيف كانت حالة اسبانيا قبل الفتح الاسلامي ؟
٢) ما هي العوامل التي ساعدت المسلمين على سرعة فتح الاندلس ؟
٣) كيف انبعثت مملكة بني أمية في المغرب ؟
٤) عبد الرحمان الناصر وعهده .
٥) ما الذي دعا الى ظهور ملوك الطوائف بالاندلس ؟
٦) بماذا تفسر الازدهار الادبي بجانب التفكك السياسي الذى وقع بالاندلس؟
٧) مدينة طليطلة ودورها الحضاري .
٨) لماذا كان سقوط طليطلة بداية نهاية الاسلام بالاندلس. ؟
٩) من هم المرابطون. ؟

الفصل الثاني عشر

من نجدة المرابطين الى ضعف الموحدين

١) نجدة المرابطين ٠

٢) ضعف المرابطين واشتداد الضغط الاسباني بالاندلس ٠

٣) نزول النرمان بالسواحل الافريقية ٠

٤) الموحدون يوحدون المغرب الاسلامي وينقذونه من الخطر ٠

١ ـ نجدة المرابطين ، معركة الزلّاقة

في الوقت الذي كان فيه ملوك الاسبان منهمكين في احتلال المدن والقرى الاسلامية ، واتحدوا على ذلك وتحالفوا : فكان « الاذفونش السادس » يضيق الخناق على سرقسطة ، وملك أرغونة يحاصر طرطوشة ؛ وامير برشلونة يتأهب لغزو بلنسية ، في ذلك الوقت العصيب عبر يوسف بن تاشفين الى الاندلس فاقتبله المعتمد بن عباد قرب الجزيرة الخضراء واحتفى به ٠ وتقاطرت الجموع الاسلامية وملوك الطوائف الى معسكر ابن تاشفين حتى اجتمع عنده جيش عظيم من الاندلسيين ، زيادة عن جيوشه التي اتى بها من المغرب ٠ وطار الخبر الى ملوك النصارى ، فأقلعوا عما كانوا بصدده ، والتفوا جميعا تحت راية « الاذفونش السادس » الذي سار الى الجنوب قاصدا ملاقاة المرابطين ٠

وعلى مقربة من بطليوس (في فحص الزلّاقة » التقى الفريقان (رجب ـ اكتوبر سنة ٤٧٩هـ ١٠٨٦م) ٠ وكان يوم اللقاء الحاسم يوم جمعة (١) فصدق المسلمون

---

١) كان الاذفونش قد استعمل حيلة لم تنطل على المسلمين ، فقد بعث الى ابن تاشفين يقترح عليه أن يكون اللقاء يوم الاثنين حتى لا يتعكر صفو المسلمين واليهود والنصارى في أيام : الجمعة ـ والسبت ـ والاحد ـ ولكن ابن عباد تنبه للخدعة فحذر المرابطين من ذلك وصدقت فراسة ابن عباد فقد قرر الاذفونش ان يكون الهجوم وقت صلاة الجمعة ٠ إلا ان المسلمين كانوا محتاطين لذلك تبعا لتحذير ابن عباد ٠

اللقاء واظهر ابن عباد شجاعة نادرة . فانهزم النصارى هزيمة لم يعرفوها منذ قرون ، وجندلت منهم عشرات الآلاف . ولم ينج « الاذفونش » إلا بأعجوبة في نفر قليل من أصحابه ، بعد ان جرح في المعركة بطعنة كادت تقضي عليه .

وسار خبر الانتصار الى المغرب وكافة المدن الاندلسية ، فانتعشت النفوس وعمّ الابتهاج . إلا ان ابن تاشفين لم يتابع مقاتلة الاسبان والقضاء عليهم بعد هذه الهزيمة الكبرى . ووافاه نعي ولده (نائبه) بمراكش فعجّل بالعودة الى المغرب وناب عنه بالاندلس قائده « سير بن ابي ابي بكر » .

إلحاق الاندلس بدولة المرابطين:

لم تكن وقعة الزلاقة قاضية على الاذفونش السادس؛ فقد كان جبارا صبورا . ولم تزده هزيمته يوم الزلاقة إلا تحفزا . فأخذ يجمع اشتاته ويُلمُّ شعثه . واشتعل الحماس الديني في صدور المسيحيين ، فتقاطر عليه سيل من الفرسان (فرنجة ونرمان) . وبعد عام واحد من الهزيمة أصبح الاذفونش قويا كما كان . واخذ يهاجم المدن الاسلامية ويعيد الخطر المسيحي من جديد (١) . وعاد ملوك الطوائف الى ما كانوا عليه من تشتت ومخاصمة فاضطر ابن تاشفين الى النزول بالاندلس مرة ثانية (٤٨١ هـ - ١٠٨٨ م) . ولم يتجه سلطان المرابطين - هذه المرة - الى محاربة الاسبان ، وإنما اتجه الى إلحاق الاندلس بسلطنته ، والقضاء على ملوك الطوائف ، الذين لم تزجرهم الوقائع والمواعظ عما تمَلَّكهم من تحاسد وتباغض؛ فاستولى على غرناطة ومالقة ، وعلى قرطبة وقرمونة ، وعلى إشبيلية سنة ٤٨٤ . ومن غرائب المعتمد بن عباد (٢) (صاحب اشبيلية) انه استنجد بالاذفونش ضد ابن تاشفين . ولكن لم ينفعه ذلك إذ تغلب عليه ابن تاشفين واسره وارسله مع عائلته منفيا الى اغمات بالمغرب الاقصى ، حيث مات هناك كمدا وحسرة . وتابع ابن تاشفين عمله فاستولى على المرية ونواحيها . كما ضم إليه بلنسية

---

١) اشباخ - ج ١ ص ٩٤ .

٢) نعم كان ذلك من الغرائب لان ابن عباد حذره ابنه لما اراد الاستنجاد بالمرابطين من انهم ربما يستولون على ملكه فقال ابن عباد كلمته المشهورة « رعي الجمال ولا رعي الخنازير » فما باله الآن يفضل رعي الخنازير على رعي الجمال !؟ .

وبطليوس والجزائر الشرقية . وهكذا قضى سلطان المرابطين على ملوك الطوائف وأصبحت الاندلس المسلمة ضمن سلطنته ، عدا بني هود بسرقسطة الواقعة مملكتهم بين مملكة ارغونة ومملكة قشتالة .

٢) ضعف المرابطين - اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق

لم يسجل المرابطون بعد إخضاع الاندلس إليهم شيئا ذا أهمية ، اللهم إلا معركة اقليش (٥٠١هـ ١١٠٨م) التي انتصر فيها المرابطون انتصارا عظيما على جيوش الاذفونش السادس ، لكن لم يصحب هذا الانتصار تقدم للمرابطين أو ضعف للاسبان (١) .

وفي الوقت الذي أخضع فيه المرابطون بلاد الاندلس إليهم اندلعت نيران الحروب الصليبية بالمشرق الاسلامي ؛ فكانت هذه الحروب خير مشجع ومساند للملوك الاسبان على محاربة المسلمين بالمغرب الاسلامي ، خصوصا بعد ان اصبح الاذفونش المحارب (ملك أرغونة) صاحب السيادة المطلقة على اسبانيا النصرانية، إذ دخلت في تصرفه مملكة (ليون - قشتالة) بتزوجه من « اوراكا » وارثة الاذفونش السادس على عرش (ليون - قشتالة) . واخذ ملك ارغونة يهاجم دولة بني هود بسرقسطة واحوازها ، فاستولى على تطيلة سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م)

ورغم الخلاف الذي دب بين الاذفونش المحارب وزوجته (أوراكا) فان المرابطين لم يستطيعوا استغلال هذا الخلاف . وفي سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) استولى الاذفونش المحارب على سرقسطة فانهار ثاني معقل إسلامي بعد طليطلة . وأخذ يهدد المرابطين بالاندلس وتعيث جنوده في البلاد . وحاصر مدينة غرناطة ووصل الى اقصى جنوب الاندلس (نواحي مالقة) بدون ان يستطيع المرابطون صده وإرجاعه ، بعدأن سرى فيهم الضعف واختل امرهم بالمغرب. وبدا الموحدون يناوؤونهم ويثيرون المعارك ضدهم .

---

١) كان سلطان المرابطين اذ ذاك هو علي بن يوسف فقد مات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ وتولى السلطنة بعده ابنه علي من سنة ٥٠٠ هـ .

٣) ثورة الاندلس على المرابطين واشتداد الضغط الاسباني

ما إن احس الاندلسيون بضعف المرابطين حتى شقوا عصا الطاعة في وجههم واندلعت نيران الثورة في كل مكان . وكان من متزعمي الثورة : احمدابن قسي - ابن الرميمى - ابن عياض - مروان بن عبد العزيز . وأغرى ملوك الاسبان هؤلاء الثوار ، خصوصا سيف الدولة بن هود الذي قام ضد المرابطين متحالفا مع مملكة قشتالة .

ولم يستطع ابن غانية (والي المرابطين بالاندلس) التغلب على الثوار لانقطاع المدد عنه من المغرب الاقصى نظرا لاشتغال المرابطين بثورة الموحدين . وحتى ابن غانية لما رأى خطر الموحدين وتفوقهم على المرابطين ، خشي على نفسه وتحالف مع قشتالة ضد الموحدين . وازداد خطر الاسبان ودخلت جيوش قشتالة إلى قرطبة واقيم في المسجد الجامع قداس ديني حضره اسقف طليطلة (١).

وخاف مسلمو الاندلس من سوء المصير ، فقد اصبحت حالتهم اشبه بآخر عهد ملوك الطوائف : تفرق وتدابر ، ضعف وتخاذل ، عدو متكالب على اخذ البلاد واذلال المسلمين . وهنا اتجهت انظارهم الى المغرب الاقصى حيث اشتد ساعد سلطان الموحدين (عبد المؤمن بن علي) وقضى على المرابطين . فوفد عليه أعيان الاندلس لتدارك الحالة والاخذ بيد الاسلام .

٣) نزول النرمان بالسواحل الافريقية

عرفت في الفصل الاول أن سنة ٤٨٤هـ كانت مسجلة لاستسلام صقلية نهائيا لسيادة النرمان(٢). وماكان سقوطها إلا نتيجة حتمية لما ساد اهلها من ضعف وافتراق كلمة ، ولما كانت عليه افريقية (تونس) زمن الدولة الصنهاجية من

---

١) اشباخ . ج ١ ص ١٢٠ .

٢) النرمان (Les Normands) من شبه جزيرة اسكندناوة زحف قسم منهم الى جنوب أوربا في القرن الحادي عشر المسيحي ، واستقروا بصقلية وجنوب ايطاليا وكونوا مملكة عرفت باسم (مملكة الصقليتين) .

اختلاف وانحلال، سيما بعد زحف الهلاليين وبعثهم الرعب والخراب في البلاد .

لم يكن النرمان بعداء عن الفكرة الصليبية ، فقد كانت لهم مشاركة عظيمة في الحرب الصليبية الاولى ، إذ كانت الحملة التي خرجت من جنوب ايطاليا بقيادة «بوهيموند ـ و ـ تنكريد» من هؤلاء النرمان ، الذين استولوا على صقلية، وكان انتصارهم على المسلمين فيها يغريهم بمتابعة الغزو والاستيلاء .

وقد حاول «روجار الثاني» تنظيم حملة صليبية لغزو إفريقية بالاتفاق مع امارة برشلونة لو لم تصده ظروف داخلية عن ذلك (١) .

وقد سادت العلاقات الطيبة مدة من الزمن بين « روجار الثاني » (ملك صقلية) والصنهاجيين بالمهدية. إلا انه في مدة علي بن يحي بن تميم (٥٠٩ـ٥١٥هـ) ساءت العلاقات بينهما ، وبعث « روجار الثاني » بتهديداته الى علي بن يحي . واستعد كل منهما لمجابهة الآخر .

ولما اعتلى الحسن بن علي الصنهاجي عرش المهدية كاتب علي بن يوسف ابن تاشفين في شأن تهديدات صاحب صقلية . وصادف ان هاجم اسطول المرابطين مملكة روجار بقيادة علي بن ميمون فجزم روجار الثاني ان ذلك كان نتيجة لتحريض الحسن الصنهاجي ، فعزم على مهاجمته واحتلال بلاده .

سقوط المهدية بيد النرمان :

لم تكن الدولة الصنهاجية لما هاجمها النرمان سوى بناء متداع للسقوط ؛ فقد استقلت اطراف البلاد ، وساد العرب في الداخل ، وتكاثرت الثورات والحروب الداخلية : ولم يكن تحت تصرف الملك الصنهاجي إلا المهدية واحوازها . اما بقية البلاد فنهب مقسم ، واشلاء مبعثرة . وهكذا كان الهجوم النرماني على افريقية في ظروف ملائمة لفوزه ونجاحه .

وزيادة على ذلك فان روجار الثاني انضم إليه (جرجير الانطاكي » (٢)

---

١) ص ١٠٧ من (Hist. A. du Nord - Ch. A. Julien)

٢) (George d'Antioche) اصله من انطاكية ببلاد الشام هاجر الى افريقية والتحق بتميم ابن المعز الصنهاجي وأصبح صاحب دخله وخرجه وصارت اموال المسلمين تحت يده ويد اقاربه . فلما مات تميم خشي جرجير من ابنه يحي فكاتب روجار الثاني على اللحاق به فجاءته سفينة الى المهدية على انها حاملة لرسالة . وبينما الناس في صلاة الجمعة خرج جرجير في زي البحارة والتحق بالسفينة هاربا الى صقلية ـ عن رحلة التجاني ـ مخطوط ورقة ـ ٩٨ ـ

وهو رجل عاش بالمهدية وخدم الصنهاجيين وتصرف في اموال دولتهم ، وعرف ما فيهم من ضعف، فوضع روجار الثاني قيادة حملاته على افريقية بيد جرجير الانطاكي ، في الوقت الذي اعترف به البابا ، ومنحه لقب ملك. ومنذ سنه ٥١٧ هـ ابتدأت حملات النرمان على السواحل الافريقية ، ففي نفس السنة جاء النرمان في اسطول كبير بقيادة جرجير الانطاكي ونزلوا برأس الديماس (امام قرية البقالطة قريبا من المهدية) إلا انه وقع التغلب عليهم والفتك بهم فرجعوا منهزمين . ثم تتابعت حملات النرمان فاستولوا على جزيرة جربة سنة ٥٢٩ هـ . وفي سنة ٥٣٧ هـ خضعت لهم قرقنة وطرابلس الغرب وجيجل بالجزائر . وفي سنة ٥٤١ هـ . دخلت قابس تحت طاعة النرمان، وكذلك القرى الساحلية الصغيرة الواقعة بين شرشال وتَنَس من القطر الجزائري. ثم جاء دور صفاقس وسوسة فاستسلمتا بدورهما .

وفي صفر سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ارسى الاسطول النرماني امام المهدية في ثلاثمائة سفينة. وكانت المهدية خالية من الجيش المدافع ، إذ كان مشغولا بحرب قرب تونس، فاضطر الحسن بن علي الى الانسحاب والخروج من المهدية. وبذلك تمت السيادة للنرمان على السواحل الافريقية ،وإن بقي آل خراسان في تونس، إلا انهم كانوا يظهرون الخضوع والطاعة للنرمان (١) .

ولم يجد الحسن الصنهاجي وسيلة ترجعه الى مملكته وعرشه سوى الالتجاء إلى سلطان الموحدين (عبد المؤمن بن علي) ، واستصراخه لانقاذ البلاد من الخطر النصراني .

وهكذا اصبح الموحدون محل الرجاء للمغرب الاسلامي، الذي اشتد عليه خطر النصارى في الاندلس والسواحل الافريقية .

٤) الموحدون يردون الخطر ويوحدون المغرب الاسلامي

الدولة الموحدية :

« اختل امر المرابطين بعد الخمسمائة اختلالا شديدا ، فظهرت المناكر

---

١) المعجب للمراكشي ص ٢٢٨

والاستبداد واستولى النساء على الاحوال واسندت إليهن الامور . وصارت كل امراة من اكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . وقنع سلطان المرابطين باسم «إمرة المسلمين» وبما يرفع إليه من الخراج ...» (٢)

وكانت هذه الحالة خير مساعد لانبعاث دعوة الموحدين ونجاحها ؛ ففي مستهل القرن الخامس الهجري خرج محمد بن تومرت من السوس بجنوب المغرب الاقصى ، قاصدا المشرق طلبا للعلم والثقافة ؛ فوصل الى بغداد والتقى بابي حامد الغزالي . ثم رجع فمر على الاسكندرية وتابع سيره الى المغرب واجتمع في مراكش بسلطان المرابطين . وكان ابن تومرت يقوم بالوعظ والارشاد اينما حل . وكثيرا ما اخرجه الحكام والولاة من مدنهم خوفا من تأثير دعوته . ثم القت به عصا التسيار في تينمل(٣) في جنوب المغرب، أين تقطن قبيلة المصامدة البربرية الشهيرة . واخذ ابن تومرت يدعو ويعظ حتى كثر اتباعه ومريدوه . ثم ادعى انه المهدي المنتظر لخلاص الامة مما هي فيه من فساد وانحلال اخلاقي . وسمّى اتباعه بالموحدين والمؤمنين . وكان من اعظم انصاره ومريديه عبد المؤمن بن علي الكومي . ولما اشتد ساعد الموحدين وتكاثرت جموعهم وانصارهم اعلن محمد بن تومرت «المهدي» الحرب على المرابطين بقيادة عبد المؤمن بن علي .

في سنة ٥٢٤هـ مات ابن تومرت فخلفه عبد المؤمن بن علي، الذي اظهر براعة عظيمة في الحرب والتنظيم والدعاية . وشيئا فشيئا اخذ ظل المرابطين يتقلص ، فاستولى عبد المؤمن بن علي على المغرب الاقصى بقضائه على المرابطين ، وعلى المغرب الاوسط بقضائه على بني حماد الصنهاجيين في بجاية . وعظم شأن عبد المؤمن فجاءته البيعة من جهات مختلفة بالاندلس . خصوصا إشبيلية .

طرد النرمان من السواحل الافريقية :

لما انسحب الحسن بن علي الصنهاجي من المهدية واستولى عليها النرمان ذهب

---

٢) المعجب للمراكشي ص١٧٧ .

١) بكسر التاء وفتح النون والميم وتشديد اللام . ضبط ابن خلكان .

مستنجدا بعبد المؤمن بن علي، فالتقى به في المغرب الاوسط .ومازال يغريه على إنقاذ إفريقية من النرمان حتى استجاب لذلك ؛ فتوجه آخر سنة ٥٥٣هـ إلى تونس في جيش عظيم حسن الترتيب قوي العدة . وفي سنة ٥٥٤هـ حاصر مدينة المهدية حصارا شديدا . ولم يستسلم من بها من النرمان الا بعد اكثر من ستة اشهر في عاشر المحرم ٥٥٥هـ (١١٦٠م) (١) وبذلك خلصت له افريقية من طرابلس الغرب الى المحيط الاطلسي .

عبور الموحدين الى الاندلس :

منذ سنة ٥٤٠هـ بعث عبد المؤمن بن علي بقائده أبي عمر ابن سعيد إلى بلاد الاندلس، بعد أن اعترف أحمد بن قسي بمباديء الموحدين ودعاهم الى الاندلس، فأخذ الموحدون يتقدمون في الجزيرة . واتحد الاسبان الشماليون بقيادة الاذفونش « قيصر » فاستولوا على المرية سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) بينما كان ملك البرتغال (٢) الاذفونش هنريكيز « ابن الريق » يحارب المسلمين بالجنوب والغرب ، فاستولى على مدينة اشبونة .

واستطاع الموحدون ان يتغلبوا على الاسبان بعد كفاح طويل ، وان يضموا إليهم جميع الاراضي التي استولى عليها النصارى إبان اضطراب الاندلس بعد ضعف المرابطين ، إلا مدينة اشبونة فقد استمرت عند البرتغاليين . وفي ٥٦٧هـ (١١٧٢م) استولى سلطان الموحدين (يوسف بن عبد المؤمن) على بلنسية عاصمة ابن مردنيش ، حليف النصارى . وأصبحت الاندلس الاسلامية كلها تحت سيادة الموحدين . ومات السلطان يوسف بن عبد المؤمن في معركة «شنترين» ٥٨٠هـ (١١٨٤م) متأثرا بجراحه (٣)

السلطان المنصور بفضل الله (٥٨٠ - ٥٩٥)

كان السلطان المنصور شديدا على الاسبان . وقد جرت بينه وبينهم معركة الارَك (Alarcos) (٥٩١هـ ١١٩٥م) التي انتصر فيها الموحدون انتصارا عظيما وخسر فيها الاسبان عشرات الالاف، بين قتيل وأسير . واستطاع المنصور ان يصل

---

١) انظر تاريخ الدولتين للزركشي كيف خضعت لعبد المؤمن أهم مدن افريقية.
٢) انظر عن البرتغال ملحقات هذا الفصل .
٣) مات عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٨هـ فاستولى بعده ابنه يوسف .

إلى طليطلة ويحاصرها . واضطر ملك قشتالة « الاذفونش النبيل » الى عقد هدنة وصلح مع الموحدين . وفي عهد السلطان المنصور بلغ الموحدون غاية مجدهم وعظمتهم في بلاد الاندلس .

بين صلاح الدين الايوبي والسلطان ابي يوسف المنصور !

عرفت سابقا عظمة صلاح الدين الايوبي وما فعله مع الصليبيين في المشرق الاسلامي. وقد رأى صلاح الدين ان يعزز جانبه بقوة الموحدين في المغرب الاسلامي . وبذلك تتظافر الجهود لرد الخطر الصليبي المشترك . وعلى هذا بعث صلاح الدين الى السلطان المنصور سنة ٥٨٠ هـ رسالة يستنجد به فيها على الافرنج الخارجين عليه بساحل البلاد الشامية . وكان حامل الرسالة شمس الدين بن منقذ ، فلم يجبه سلطان الموحدين لذلك : لا لشيء سوى انه لم يخاطبه بأمير المؤمنين . واكتفى بقوله (الى امير المسلمين) (١) فضاعت فرصة غالية لاتحاد المسلمين ضد الصليبيين بالمشرق والمغرب. وكان التشبث بالنعوت والالقاب الجوفاء سببا في ضياع الصالح العام. بل إن سلطان الموحدين (المنصور) كان يفكر في غزو مصر واحتلالها (٢) .

واقعة العقاب وتضعضع الموحدين :

لم يستفد الموحدون من معركة الارك كثيرا . فقد مات المنصور بعدها بقليل . واشتغل خلفه (ابو عبد الله محمد الناصر) باخماد الثورات التي اندلعت عقب توليته ؛ فلم يتغلب عليها إلا سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٨ م) .

اما الاذفونش فان هزيمته في الارك جعلته، يتحفز من جديد ، ويعقد المحالفات مع ملوك الاسبان ، فلما استتب له الامر وعظمت شوكته اندفع يغزو المناطق الاسلامية في الاندلس ،حتى اضطر محمد الناصر سنة (٦٠٧ هـ - ١٢١١ م) الى النزول بالاندلس قصد الحد من هجمات الاذفونش النبيل واحلافه . وارتاع الاذفونش لهذا النزول ، وخاف ان تتجدد الزلاقة او الارك فسعى بجهده ليضم كلمة ملوك الاسبان . وارسل الى البابا « انوسان الثالث » مستنجدا به . كما ذهب

---

١) نفح الطيب للمقري ج ١ ص ٤١٩ طبع مصر سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٩

٢) انظر المعجب للمراكشي ص ٢٨٤ .

مطران طليطلة الى فرنسا داعيا ومثيرا حماس المسيحيين . وماجت اروبا الغربية، فتدفقت سيول الصليبيين من كل ناحية (سيما فرنسا) .

وأعلن البابا في رومة الصوم ثلاثة ايام ، وصلى ودعا لانتصار الصليبيين في الاندلس (١) . وكانت دعوة صليبية عنيفة استجاب لها نصارى اروبا حتى غصت بهم مدينة طليطلة وضاقت نواحيها ؛ فقد كان عدد الوافدين من خارج اسبانيا فقط يقارب المائة الف . واستولى هذا الجيش العرمرم على قلعلة «رباح» التي سلمها اليهم المسلمون بعد إعطائهم الامان من الاذفونش. واغتاظ الصليبيون لما منعهم الاذفونش من قتل المسلمين الذين استسلموا في القلعة وقالوا له : « انما جئت بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين . ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه .. » (٢) ورجع الكثير من هؤلاء الصليبيين الى بلادهم .

وعمل محمد الناصر (سلطان الموحدين) على اجتناب لقاء الجيوش الصليبية ، فلما علم برجوع اغلبهم تصدى لملاقاة الاذفونش . وفي صفر ٦٠٩ هـ (جويلية ١٢١٢ م) التقى بالاذفونش في مكان يعرف بالعقاب (Las Navas di Toloza) قرب حصن سالم . ولم يكن جيش الموحدين موحد القلوب - هذه المرة - ولا متقد الحماس ، فلم تغنه كثرته . ولاول جولة في ميدان القتال انسحب الكثير من الجنود ، ودخل الفزع والاضطراب صفوف الموحدين ، واعمل فيهم الاسبان السيف فجندلوا منهم عشرات الالاف . اما محمد الناصر فقد فر منهزما ناجيا من الموت .

واهتزت اسبانيا لهذا النصر واعتبرته أخذا بثأر الزلاقة والارك . وأُرسلت الهدايا والتحف الى البابا . وجعل من يوم ١٦ جويلية عيد ظفر الصليب (٣) . واستقبل الموحدون - بعد العقاب - عهد الضعف والتراجع والانحلال ؛ فقد مات السلطان محمد الناصر عقب الهزيمة . (شعبان سنة ٦١٠هـ) وبموته بدأ ضعف سلاطين الموحدين ونَجَمت بينهم الفتن .

---

١) اشباخ ج ٢ ص ٩ ١ والمعجب ص ٣١٩ .
٢) المعجب ص ٣٢١ .
٣) اشباخ ج ٢ - ص ١٢٣ .

نعم ساد الاضطراب ايضا مملكة قشتالة بعد معركة العقاب ، إلا ان البابا تدخل في النزاع حتى تسود نصارى اسبانيا الوحدة، ويمكن القضاء على المسلمين. وماكانت سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) حتى تم التلاؤم والوفاق بين ممالك ارغونة والبرتغال وقشتالة ، للاجهاز على الاندلس المسلمة واقتسامها.

مُلحقاتُ الفصلِ الثاني عشر

١) الخلاصة

لما أشرفت دولة الاسلام بالاندلس على التدهور بسبب ظهور ملوك الطوائف وضعفهم وتكالب الاسبان على المسلمين ، عبر امير المرابطين يوسف بن تاشفين الى الاندلس. والتقى بالاذفونش السادس في سهل الزلاقة، فانتصر عليه انتصارا عظيما وأرجع للاسلام هناك قوته ووحدته. ثم ألحق المرابطون الى ملكم بلاد الاندلس، وقضوا على ملوك الطوائف . وسرعان ما نال الضعف دولة المرابطين وقامت ضدهم الثورات ، خصوصا ثورة الموحدين بالمغرب الاقصى ، الذين قضوا على المرابطين . وعادت الاندلس الى خطر جديد يكاد يقضي عليها .

وفي السواحل الافريقية استولى النرمان على مدنها الساحلية ، واحتلوا المهدية عاصمة الصنهاجيين . وبات المغرب الاسلامي (افريقية والاندلس) متطلعا الى من ينقذه من خطر الاسبان والنرمان، فكان الموحدون محل الرجاء من هؤلاء واولائك ، إذ سار عبد المؤمن بن علي الى تونس فاسترجع المهدية سنة ٥٥٥ هـ واخرج النرمان ، كما انجد الموحدون الاندلس. وفي زمن السلطان يعقوب المنصور انهزم الاسبان في معركة الارك وضمت الاندلس إلى ملك الموحدين، الذين شمل ملكهم جميع المغرب الاسلامي فوحدوه وقضوا على الخطر الصليبي . وبلغت دولة الموحدين في عهد المنصور قمة مجدها . وفي عهد خلفه (محمد الناصر) انهزم الموحدون في معركة العقاب . وكان انهزامهم هذا بداية لتضعضعهم واختلال سلطنتهم . وبضعف الموحدين جاءت صفحة جديدة من الصراع بين الاسلام والمسيحية في البلاد الاندلسية.

٢) أرقام تاريخية

٤٧٩هـ (١٠٨٦م) معركة الزلاقة وانتصار المرابطين على الاسبان
٥١٢هـ (١١١٨م) سقوط سرقسطة
٥٩٢هـ (١١٩٥م) معركة الارك وانتصار الموحدين على الاسبان
٦٠٩هـ (١٢١٢م) معركة العقاب وانهزام الموحدين امام الاسبان

٣) اختلاف الهمم

كان يوسف بن تاشفين مهتما بالاندلس قبل أن يدخل اليها . وكان يقول في كل مجلس « ... إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة ان نستنقذها من ايدي الروم لمّا رأينا استيلاءهم على اكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتخاذلهم وإيثارهم الراحة.

وانما همة احدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به ايامه . ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة الى المسلمين. ولا ملانها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش. وإنما هم احدهم فرس يروضه ويستفرهه ، او سلاح يستجيده ، او صريخ يلبي دعوته ... »

(المعجب للمراكشي ص ١٦٣)

٤) لمحة عن الحضارة الاندلسية

الزراعة :

« ... كانت اسبانيا الاسلامية في أوجها مشهدا يدعو الى الفخر ، فقد أغنى العرب الحياة في شبه الجزيرة في نواح كثيرة ؛ ففي الزراعة ادخلوا الري القائم على اسس علمية ، وعددا من النباتات والاشجار المثمرة الجديدة مثل الحمضيات والقطن وقصب السكر والارز . ويعود اكثر الفضل في ازدهار الزراعة في ظل الحكم العربي الى التغييرات التي احدثوها في نظام ملكية الارض .

الصناعة :

رتطورت على أيديهم صناعات كثيرة كصناعة النسيج والخزف والورق والحرير والفضة ، وغيرها من المعادن . وكان الصوف والحرير ينسجان في قرطبة ومالقة والمرية ، والخزف في مالقة وبلنسية ، والسلاح في قرطبة وطليطلة ، والجلد في قرطبة ، والطنافس في بسطة وفلسانة ، والورق - والعرب هم الذين جلبوه من الشرق الاقصى - في شاطبة وبلنسية. وكان النسيج - شأنه في اي مكان آخر من بلاد المسلمين - يؤلف الصناعة الرئيسية . ونقرأ عن وجود ثلاثة عشر الف حائك في قرطبة وحدها .

التجارة :

وانشأت اسبانية الاسلامية تجارة خارجية واسعة النطاق مع الشرق ، فكانت الاساطيل التجارية تخرج من قواعدها في الفرض الاندلسية حاملة حواصل الاندلس الى جميع بلدان البحر الابيض المتوسط . وكانت اسواقها الرئيسية هي بلدان شمال افريقية ، وفي مقدمتها مصر والقسطنطينية حيث كان التجار البيزنطيون يشترون الحواصل الاسبانية ويبيعونها في الهند وأواسط آسيا.

الآداب والثقافة :

وأسهمت الحضارة الاسبانية العربية بقسط عظيم لا سبيل الى انكاره في الآداب العربية جملة ، كما لها مآثر في كل نوع من فروع التقليد العربي الكلاسيكي الذي هي جزء منه . بل كان ما وصل من التراث اليوناني الى عرب اسبانيا ، وخاصة في زمن عبد الرحمان الثاني ، يفوق ما وصل اليهم من مصادر محلية . ووضح التأثير المحلي في ميدان الشعر الغنائي ، فأوجد فيه عرب اسبانيا اشكالا (١) جديدة لم تكن معروفة لدى المسلمين في الشرق ، وكان لها تأثير كبير في اشعار اسبانيا النصرانية الاولى ، وربما ايضا في آداب بلدان أوربا الغربية .

البناء :

ولعل ابرز ما ابتدعته اسبانيا الاسلامية هو في الفن وهندسة البناء اللذين

---

١) المراد بذلك الموشحات .

احتذيا في الاساس النماذج العربية والبيزنطية الشائعة في الشرق الادنى ، ثم تطورا تحت تأثير المؤثرات المحلية الى شي جديد ذاتي أصيل . ويعين لنا جامع قرطبة المشهور (١) ، الذي وضع أساسه عبد الرحمان الاول ، نقطة البداية في طراز اسباني عربي جديد قدر له فيما بعد ان ينتج روائع مثل برج «جيرالدا» والقصر في اشبيلية ، والحمراء في غرناطة ... » .

(- العرب في التاريخ - برنارد لويس ١٨٠-٨١-٨٢
تعريب : نبيه أمين فارس ، محمود يوسف زايد)

٥) مملكة البرتغال

يشمل شبه جزيرة ايبريا اليوم دولتين معروفتين هما اسبانيا والبرتغال . ولم تكن مملكة البرتغال قائمة الذات منذ قديم الزمان . وانما كانت تمثل إقليما خاصا من اقاليم شبه الجزيرة عرف في التاريخ القديم باسم لوزيتانيا (Lusitanie) . وزمن الحكم الاسلامي كان هذا الاقليم إحدى الولايات البارزة ، ومن اهم مراكزه مدينة ماردة . وقامت مملكة بني الافطس في نواحي هذا القسم من شبه الجزيرة . وعند التراجع الاسلامي أخذ الاسبان يستولون على هذا الاقليم فيما يستولون عليه من غرب شبه الجزيرة . واصبح احدى ولايات مملكة قشتالة . واول من جعل هذه النواحي ولاية مستقلة هو فرديناند الاول تحت اسم « البرتغال » اشتقاقا من مدينة ساحلية تسمى بورتو (Porto) .

وتعاقبت الظروف واختلف الولاة الاسبان على هذه الولاية . وكان اهلها ينزعون الى الاستقلال عن مملكة قشتالة الى النصف الاول من القرن الثاني عشر المسيحي ؛ ففي زمن الاذفونش السادس أُقطعت ولاية البرتغال الى «هنري الشاب» ولابنائه من بعده ، وكان صهرا لفرديناند المتزوج من أم هنري المذكور . وجعل عاصمته «قلمرية» فلما تولى ابنه الاذفونش الاول (ابن الريق في المصادر العربية) اعلن استقلاله سنة ١١٣٩م وأزال تبعيته لقشتالة . وأطلق عليه لقب ملك

---

١) انظر صفحة ١٥٣

واصبحت البرتغال منذ السنة المذكورة مملكة مستقلة الى ان استقرت حدودها على الصورة التي هي عليها الآن.

وقد لعبت مملكة البرتغال في فجر العصور الحديثة دورا رئيسيا في الاكتشافات البحرية والاستعمارية.

تمرينات

١) أثر معركة الزلاقة على الانتعاش الاسلامي بالاندلس.

٢) موقف ابن عباد بين المرابطين والاسبان

٣) ثورة الاندلسيين على المرابطين : دواعي الثورة ونتائجها.

٤) كيف تجعل صلة بيت نزول النرمان بالسواحل الافريقية والحروب الصليبية ؟

٥) لماذا تمكن النرمان من التغلب على الصنهاجيين ؟

٦) دور الموحدين في تاريخ المغرب الاسلامي.

٧) قارن بين معركة الارك ومعركة العقاب.

٨) ما الذي اضاع وحدة المسلمين بالمشرق والمغرب ضد النصارى ؟

٩) اهم الصناعات التي ازدهرت في الاندلس.

١٠) كيف نشأت مملكة البرتغال ؟

الفصل الثالث عشر

من ضعف الموحدين الى سقوط غرناطة

١) ضعف الموحدين وانقراض سلطنتهم

٢) تقهقر المسلمين بالاندلس وانحصارهم في مملكة غرناطة

٣) سقوط غرناطة ـ محنة التنصير والجلاء

١) ضعف الموحدين

تولى سلطنة الموحدين بعد محمد الناصر ابنه يوسف « المستنصر بالله » ، الذي كان ابن عشر سنوات . واستُغل صغر سنه من طرف رجال الدولة والقواد واصحاب المطامع ، فكثر الارتشاء والاستبداد ، واندلعت نيران الفتن في السلطنة الموحدية سيما في الاندلس . ومات(١) المستنصر في العشرين من عمره بدون عقب . وبموته انشق بيت عبد المؤمن بن علي وتفرق شمله ؛ فقد بايع المغاربة عبدالعزيز ابن يوسف ابي يعقوب الاول ، وثار ضده بالاندلس ابو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور وتسمى بالعادل ، فدخل بذلك بنو عبد المؤمن في حروب أهلية كانت القاضية عليهم .

اقتسام مملكة الموحدين :

أ) في تونس والجزائر

كانت افريقية (تونس) تابعة للموحدين تحت ولاية بني حفص ؛ فلما تولى ابو زكرياء الحفصي هذه الولاية سنة ٦٢٦هـ ، ورأى ما اصبح عليه الموحدون من ضعف وتقهقر ، اعلن استقلاله عن الموحدين وقطع عنهم الخطبة . وبذلك انفصلت تونس عن الموحدين ، وتأسست بها الدولة الحفصية .

---

١) مات سنة ٦٢٠هـ بطعنة من ثور كان يلاعبه ، وكان المستنصر لا شغل له الا اللهو واللعب .

وفي الجزائر (المغرب الاوسط) استطاع بنو عبد الوادي (بنو زيان) ان يكوّنوا امارة خاضعة للموحدين على يد زعيمهم جابر بن يوسف . وفي سنة ٦٣٣هـ تولى هذه الامارة «يغموراسن» بن زيان فأعلن هو ايضا استقلاله . وجعل عاصمته مدينة تلمسان .

ب) في المغرب الاقصى

كان بنو مرين من بداة البربر يقيمون في جهات بسكرة من البلاد الجزائرية . فلما هجم بنو هلال على إفريقية هاجر بنو مرين من هنالك، والقت بهم عصا التسيار بجنوب المغرب الاقصى . وكان دخولهم اليه (سنة ٦١٠هـ) بزعامة كبيرهم « عبد الحق بن محيو » في الوقت الذي كان بداية لضعف الموحدين وتقهقرهم . ومنذ سنة ٦١٣هـ شرع بنو مرين في مهاجمة الموحدين ، فلما كانت سنة ٦٤٢هـ تولى امر بني مرين « ابو يحي ابو بكر بن عبد الحق » فاستولى على مدينة فاس وبايع ابا زكرياء الحفصي صاحب تونس . وعظم شأن بني مرين لما تولى أمرهم يعقوب ابن عبد الحق ، فاستولى على مراكش سنة ٦٦٨هـ وتغلب على آخر سلطان للموحدين ، وقضي عليهم نهائيا .

ج) في الاندلس

كان من المتحتم ان تثور الاندلس ضد الموحدين لما انتابهم الضعف ونالهم الانقسام . وكانت الممالك النصرانية تترقب بفارغ صبر ظهور الاضطراب في الاندلس ، خصوصا قشتالة وارغونة ؛ فكانتا تحرضان على الثورة وتغريان على الانتقاض . ونجمت قرون الفتنة وعادت الاندلس من جديد الى الانقسام والتشتت . وكان من ابرز هؤلاء الثوار - ابو عبد الله محمد بن يوسف (من سلالة بني هود اصحاب سرقسطة) فاستولى على مرسية وجيان وقرطبة وماردة وبطليوس . وعظم شأن ابن هود حتى ان المأمون (١) سلطان الموحدين تحالف مع الاسبان ضده .

---

١) المأمون هو أخو العادل الذي قتل في ثورة مراكش سنة ٦٢٤هـ فأعلن المأمون الخلافة وهو باشبيلية، إلا ان المغاربة بايعوا المعتصم بن الناصر فعبر المامون الى مراكش وتغلب على المعتصم ومات المامون سنة ٦٢٩هـ

وثار بشرق الاندلس زيان بن ابي الحملات بن مردنيش . واتخذ مدينة بلنسية عاصمة له . ومن هؤلاء الثوار ايضا محمد (١) بن الاحمر الذي اصبح له فيما بعد شأن بتأسيسه مملكة غرناطة .

٢) التقهقر الاسلامي في الاندلس .

حركة الاسترجاع :

اصبحت كلمة الاسترجاع (Reconquista) ذات مدلول تاريخي خاص في تاريخ الاندلس الاسلامية ؛ فقد عمل الاسبان منذ الفتح الاسلامي على استرجاع الاراضي الاسبانية التي فتحها المسلمون . إلا ان هذه الحركة لم تأت بنتائجها الحاسمة إلا منذ عصر ملوك الطوائف . وازدادت هذه الحركة استفحالا بعد اضمحلال الموحدين ، وعدم وجود دولة قوية في المغرب الاسلامي تستطيع إنقاذ الاندلس من الخطر ، كما فعل المرابطون والموحدون من قبل .

سقوط بلنسية - قرطبة - إشبيلية :

في هذا الوقت العصيب على المسلمين بالاندلس اتحدت نوايا ممالك اسبانيا النصرانية على مهاجمة الامارات الاسلامية ؛ فقد جعل «جايم الاول» ملك ارغونة هدفه إمارة بلنسية ، فأخذ يكيل لها الضربات ويشن عليها الغارات حتى استسلمت مدينة بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨م) رغم محاولة انجادها من ابي زكرياء الحفصي (٢) . وتتابع سقوط مدن هذه الامارة الواحدة بعد الاخرى . وانتهى أمرها بطرد جميع المسلمين الموجودين هنالك. فالتجأوا الى غرناطة بجنوب الاندلس

اما « فرديناد الثالث » ملك قشتالة فكان هدفه الوسط والجنوب حيث يوجد محمد بن هود في غرناطة وقرطبة ، ومحمد بن الاحمر في جيان ووادي آش . اما إشبيلية فكانت تحت سيادة بعض امراء الموحدين . وابتدأ فرديناند بقرطبة . وبعد حصار طويل بدون مدد من الخارج استسلمت عاصمة بني امية الى ملك قشتالة سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) وخرج اهلها فارين الى الجنوب . ولما مات محمد ابن

---

١)هو محمد بن يوسف بن نصر ، يرجع نسبه الى قبيلة الخزرج التي كانت تساكن الاوس بالمدينة المنورة .

٢) ارجع الى ص ٩٩ - ١٠٦ .

الحروب الصليبية - خريطة عدد (٩)

هود ضمّ محمد بن الاحمر إليه مدينة غرناطة وما حولها في جنوب الجزيرة ، وعظم نفوذه في تلك النواحي ، واصبح ملجأ للمسلمين الفارين من مطاردة الاسبان . وخشي فرديناند من نفوذ ابن الاحمر وتجمّع الهاربين عنده ؛ فبادر بالتوجه إليه وتسديد ضرباته نحوه . وكان حرص ابن الاحمر على سلامته وتكوين مملكته دافعا به الى الاتفاق مع فرديناند ومصالحته . وتم ذلك سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٦م) على ان يسلّم الى فرديناند مدينة جيان، وان يعترف بسيادته العليا مقابل الابقاء على مملكته . بل الانكي من ذلك دخول ابن الاحمر مع فرديناند في حلف ضد بقية الامراء المسلمين بالاندلس .

وعلى اساس هذا التحالف المقيت اتجه فرديناند بهجماته الى اشبيلية وقد تمثلت في هجومه وحدة ملوك اسبانيا ضد المسلمين ، إذ كان في جيشه وليّا عهد البرتغال وارغونة . وحاصرت الجيوش الاسبانية مدينة إشبيلية . واستمر الحصار (١٨) شهرا أبدى فيها المسلمون ضروبا من الصبر والشجاعة دون مدد وارد ، ولا إعانة مساعد ، مما جعل صبرهم ينتهي بعد هذا الثبات الطويل ، فاستسلمت المدينة سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م) وخرج من فيها من المسلمين ملء العين دمعا والقلب حسرة . وتابع فرديناند زحفه حتى وصل الى قادس .

اما مملكة البرتغال فكان نصيبها الاراضي الاسلامية التي بقيت بغرب الاندلس . وبذلك ضاع غالب الاندلس من المسلمين . ولم تبق الا غرناطة وما حولها تحت سيادة محمد بن الاحمر .

مملكة غرناطة (١) :

لا تمثل مملكة غرناطة سوى رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة ايبيريا ، تمتد من ألبيرة شرقا الى رُندة غربا ، وهي محصورة بين الوادي الكبير والبحر الابيض المتوسط في مسافة يبلغ عرضها مرحلة واحدة . وتتمثل أهمية هذه المملكة الصغيرة في اعتبارها امتدادا لوجود الاسلام بالاندلس من ناحية، ولكونها اصبحت ملجأ للمسلمين الفارين من مختلف النواحي التي استولى عليها

---

١) انظر الخريطة عدد ٩

نصارى الاسبان . كما انها من ناحية اخرى تعتبر مظهرا ممتازا من مظاهر الحضارة الاسلامية في الاندلس، إذ التجأ اليها غالب مهرة المسلمين وحذاقهم في مختلف الفنون والصناعات .

علاقاتها الخارجية :

استمرت هذة المملكة قائمة الذات اكثر من قرنين ونصف ٦٣٥-٨٩٧ هـ واختلفت علاقاتها مع الممالك النصرانية . إلا انها كانت تدين - غالبا - بالطاعة لمملكة قشتالة . وكانت سياسة سلاطين هذه المملكة الاستنجاد بملوك المغرب، سيما سلطنة بني مرين بالمغرب الاقصى ، كلما داهمهم الخطر الاسباني ، رغم ان بني الاحمر كانوا شديدي الحذر والخوف من استيلاء بني مرين عليهم . وكان من اعظم سلاطين بني مرين اتصالا بالاندلس السلطان المنصور الذي عبر الى الاندلس اربع مرات ووصلت جيوشه الى مدينة طليطلة ، واجبر ملك قشتالة على الرضوخ الى الصلح ، والتعهد بعدم التعرض للمسلمين . وكان ذلك سنة ٦٨٤ هـ .

وفي عهد سلطان غرناطة « ابي الحجاج يوسف » اتحدت ممالك اسبانيا (١) الثلاثة على مهاجمة مملكة غرناطة . فاستنجد ابو الحجاج بسلطان بني مرين « ابي الحسن » فعبر هذا الاخير الى الاندلس بجيوش عظيمة ، ولكن انهزم المسلمون هزيمة كبيرة استولى فيها النصارى على حريم السلطان المريني الذي فر هاربا الى المغرب . واعتصم ابو الحجاج يوسف في حصونه . واستولى الاسبان على الجزيرة الخضراء وطريف . وكانت هذه المعركة من اشد ما نال المسلمين بعد وقعة العقاب . جرت هذه المعركة سنة ٧٧١هـ (١٣٤٠م) واشتهرت باسم معركة طريف .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري دخلت سلطنة بني مرين في الفوضى والاضطراب، فقل المدد الذي كانوا يرسلونه نجدة الى مسلمي الاندلس، وهو وان لم يكن مددا فعالا إلا انه على كل حال كان يحدد من خطر الاسبان نوعا ما . وبانقطاع ذلك المدد جابهت مملكة غرناطة الخطر الاسباني بمفردها ، واستمرت في كفاحها إلى ان تسرب اليها الضعف والاضطراب .

---

١) وقد بارك البابا برومة هذا الاتحاد ضد المسلمين .

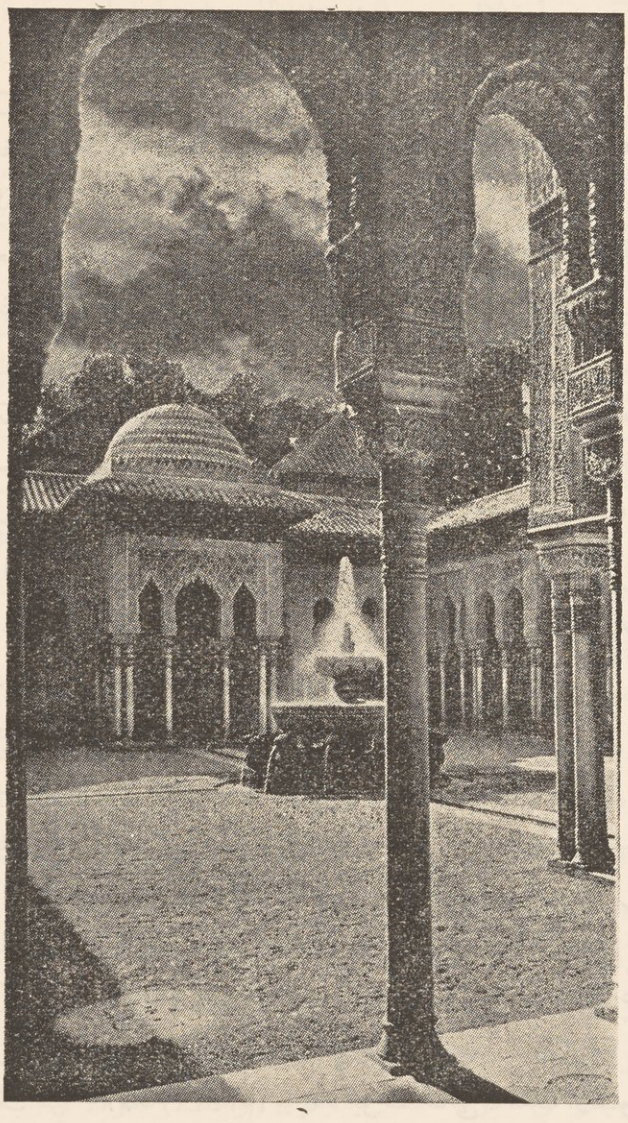

قصر « الحمراء » بغرناطة

يمثل قمة مجد الفن الاسلامي بالاندلس

٣) سقوط غرناطة، التنصير والجلاء

ضعف بني الاحمر :

بدأ ضعف سلطنة غرناطة بموت السلطان يوسف بن الاحمر ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) وكانت مملكة قشتالة تذكي نيران الفتن والدسائس والمنافسات بين بني الاحمر ؛ فكانوا يتبعون هواهم ، وينخدعون للباطل، ويدوسون المصلحة العامة سعيا وراء مطامعهم واغراضهم الزائلة . وازداد الضيق على مملكة غرناطة باستيلاء قشتالة على جبل طارق ٨٦٨هـ (١٤٦٢م) ، معبر النجدات الواردة من المغرب الاقصى .

وسنة ٨٧١هـ (١٤٦٦م) تولى سلطنة غرناطة على ابو الحسن « الغالب بالله » فثار ضده اخوه ابو عبد الله محمد « الزغل » ، حليف هنري الرابع ملك قشتالة . واستمرت الحروب والمنازعات بين الاخوين حتى استقر بهما الامر على اقتسام هذه المملكة الصغيرة: غرناطة ونواحيها للغالب بالله ، ومالقة ونواحيها لابي عبد الله الزغل . وهكذا تعاون الاخوان على زيادة الضعف والاختلال ؛ ولم يعلما بان ذلك كان تمهيدا للحدث الاعظم على الاسلام بالاندلس .

اتحاد قشتالة وارغونة :

كان لحالة الاسبان النصرانية اثر كبير على مجرى الحوادث في الاندلس المسلمة ؛ ففي زمن اضطراب هذه الممالك او ضعفها تقل هجمات الاسبان ويخف الضغط على المسلمين . اما اذا سادها الاتحاد فان ضغطها يشتد وخطرها يعظم .

ولما مات هنري الرابع ، ملك قشتالة ، ورثت اخته « ايزابيلا » عرش المملكة . وكانت قد تزوجت قبل ذلك بفرديناند (ابن عمها) ولي عهد مملكة ارغونة . واشترطت عليه في عقد هذا الزواج ان يتعهد بمحاربة المسلمين ؛ حتى اذا كانت سنة ٨٨٤هـ (١٤٧٩م) مات « يوحنا الثاني » ملك ارغونة فأصبح فرديناند ملكا على ارغونة وقشتالة معا. وكان هذا من اعظم الاحداث التي اصيب بها المسلمون في الاندلس ، إذ اصبحوا هدفا لمملكة قوية متحدة بنية اتحادها على محاربة المسلمين، وإخراجهم من الاندلس ، خصوصا بعد ان اصبحوا في شقاق واضطراب ، وانقطع المدد عنهم بزوال دولة بني مرين من

المغرب الاقصى واستيلاء بني وطاس (١) الذين لم يكونوا من القوة التي تمكنهم من ان ينجدوا المسلمين بالاندلس وينقذوهم من الخطر .

تخاذل بني الاحمر :

استهدفت غرناطة للخطر الماحق بعد اتحاد قشتالة وأرغونة . وقد اصبحت في أتون من الفوضى من جراء سلوك السلطان ابي الحسن « الغالب بالله » الذي حيكت في قصره الدسائس والمؤامرات ، خصوصا بين زوجتيه عائشة الحرة وثريا الاسبانية ؛ فقد كانت ولاية العهد لأبي عبد الله محمد (ابن عائشة) فعملت ثريا على إقصاء عائشة وولديها وزجت بهم في ظلمات السجن حتى تخلص ولاية العهد لابنها . واستطاعت عائشة الحرة ان تفلت من السجن مع ولديها ، وان يتزعم ولدها الاكبر (ابو عبد الله محمد) مقاومة والده المشغول بمحاربة قشتالة . وامكن لهذا الولد العاق ان يتغلب على ابيه ، ويستولي على غرناطة سنة ٨٨٧هـ . اما ابوه فقد التجأ الى مالقة عند اخيه ابي عبد الله الزغل .

ويجزم « فرديناند » ان اخطر اعدائه هو ابو عبد الله الزغل . ولهذا اتجه بقواته صوب مالقة . إلا ان الزغل استطاع ان يثبت امام هجمات فرديناند الخامس رغم الخسائر الفادحة . وحاول ابو عبد الله محمد محاربة القشتاليين إلا انهم اسروه سنة (٨٨٨هـ ١٤٨٣م) واحتفظ به فرديناند رغم الفداء الكبير الذى بذل له . وذلك ليضرب به الضربة القاضية ؛ فقد جهزه لمحاربة عمه الزغل بقوات عديدة واستطاع ان يستولى على غرناطة سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٧م) في السنة التي استولى فيها فرديناند على مالقة (٢) بعد ان ثبت اهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر . واخذت مدن الزغل تسقط الواحدة بعد الاخرى ، وابدى الزغل وصحبه تفانيا عجيبا في المقاومة والثبات ، وأوقعوا بالاسبان عديد الوقعات وابدوا في مقاومة الحصار ما يفوق الوصف خصوصا، في بسطة ومالقة .

---

١) بنو وطاس فرع من بني مرين ، لكنهم ليسوا من ابناء عبد الحق بن محيو . ابتدأت دولتهم سنة ٨٧٦ هـ على يد أبي عبد الله محمد الشيخ واستمرت الى سنة ٩٦١ هـ .

٢) لما بلغ الى علم فرديناند ان سلطان العثمانيين وسلطان المماليك بمصر عزما على نجدة الاندلس بادر فرديناند باحتلال الموانى الاندلسية ، واهمها مالقة ، للحيلولة دون اي امداد يرد الى الاندلس .

ولكن طول الامد وقلة المدد انهيا هذه المقاومة باستسلام الزغل(١) الى فرديناند سنة (٨٩٥هـ ١٤٩٠م) بينما كان ابو عبد الله محمد صاحب غرناطة في هدنة (فاجرة) مع ملك قشتالة !

سقوط غرناطة :

بقي أبو عبد الله محمد، صاحب غرناطة، الامير المسلم الوحيد بالاندلس . وقد سعى بتصرفاته الشاذة الى ان يكون بطل هذه المأساة المبكية (مأساة نهاية الاسلام بالاندلس) . ولم يكن فرديناند الخامس يهادنه او يساعده إلا ليستعين به على إخضاع عدوه الالد ابي عبد الله الزغل . ولهذا فما إن استراح ملك اسبانيا منه حتى طلب من ابي عبد الله تسليم مدينة غرناطة . وارتاع آخر بني نصر، وايقن بأنه سعى إلى حتفه بظلفه ؛ فصمم على الامتناع، ومن ورائه الغرناطيون فاستعدوا للدفاع . واقبل فرديناند بجيوشه قاصدا غرناطة ولكنه وجد مقاومة جبارة من هؤلاء الذين اصبحوا في دائرة ضيقة لا مخرج لهم منها إلا الى الفناء او المذلة الدائمة. واعاد الاسبان الكرة في جيش لجب واحكموا الحصار على الغرناطيين واشاعوا الخراب والعيث في جنانها الغناء فاصبحت خرابا . وصمد المسلمون (٢) وصبروا ولكن طول الحصار ، ونفاذ الذخيرة ، وتفشي الجوع والمرض ،اجبرهم كل ذلك على الاستسلام والخضوع لارادة الطاغية فرديناند الكاثوليكي . واتُّفق ان يكون تسليم غرناطة في ٢ ربيع الاول ٨٩٧هـ (٢ جانفي ١٤٩٢م) .

وجاء فرديناند وايزابيلا الكاثوليكيان الى غرناطة. ودخلتها الجيوش الاسبانية في مظهر صليبي رهيب . وغادر ابو عبد الله محمد عاصمته غرناطة الى الابد (٣).

---

١) كانت نهايته ان اقطعه فرديناند اراضي بجبال البشرات، الا انه بعد مدة استاذن في العبور الى المغرب فخرج في جمع كبير الى تلمسان حيث مات هنالك.

٢) كان من ابرز فرسان هذا العهد البطل المغوار موسى بن ابي الفسان ، فقد كان يمثل المقاومة في اورع مظاهرها . وابى الخضوع والاستسلام ، فمات شهيدا بعد ان صرع مئات من القشتاليين .

٣) سكن اولا في جبال البشرات ثم سمح له بالعبور الى المغرب الاقصى، فاستقر بمدينة فاس الى ان توفي سنة ٩٤٠هـ ويذكر المقري انه في سنة ١٠٣٧ كان اولاده ياخذون من اوقاف الفقراء ويعدون من جملة الشحاذين - نفح الطيب ج٦ - ص ٢٨١

وانقرض بذلك آخر مظهر للسيادة الاسلامية بالاندلس ، بعد ثمانية قرون منذ فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير .

كانت وثيقة تسليم غرناطة تشتمل على - ٦٧ - (١) شرطا تضمن احترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وحريتهم وأمنهم وسلامتهم ، والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج الى الديار الاسلامية . وكان من جملة شروط هذه الوثيقة ان يصادق البابا (برومة) على جميع هذه الشروط، ومن جملتها ان يترقب المسلمون سبعين يوما عسى ان تاتيهم نجدة اومدد من الخارج . ولكن - كما تقدم - لم تكن هنالك دولة إسلامية قوية او ذات غيرة وحمية تستطيع انقاذ الغرناطيين من سوء المصير . هذا زيادة عن إحكام الاسبان للحصار البحري حتى لا يتسرب اي مدد او اية معونة لمسلمي غرناطة .

التنصير : (٢)

لم يتظاهر الاسبان في اول الامر بالشدة بعد استسلام غرناطة . وكان لشرط اختيار الهجرة أن رحل الكثير من المسلمين الى الشواطيء الافريقية فرارا بدينهم وعزتهم . وكانت اسبانيا في اشد الحاجة الى بقاء المسلمين : ورثة الحضارة وعصارة الفنون المختلفة التي عاشتها الاندلس طوال القرون الاسلامية العديدة .

ولكن - تبعا للتعب الديني والحقد الجنسي ، واستجابة لتحريض الكنيسة ، خصوصا مساعي الكردينال (كيمناس (٣)) لدى الملكة ايزابيلا - نُقضت شروط الامان التي منحت للمسلمين مقابل تسليم غرناطة ، فبدأت الدعوة إلى تنصير المسلمين بطريق الوعظ والاختيار . ثم كانت الطامة الكبرى ٩٠٥هـ (١٤٩٩م) عندما صدر قانون بتنصير المسلمين جبرا وتحريم إقامة شعائرهم الدينية ، وإغلاق المساجد . وعمد الكردينال (كيمناس) الى الكتب الاسلامية الموجودة بغرناطة ، واحرق منها مئات الالاف، ولم يبق منها إلا ثلاثمائة كتاب في الطب .

---

١) انظر ملخص هذه الشروط في آخر بني سراج لشكيب ارسلان من ص ٣٣٣ ونفح الطيب للمقري - ج - ٦ - ص ٢٧٧

٢) انظر نهاية الاسلام في الاندلس لعبد الله عنان، وآخر بني سراج لشكيب ارسلان، وحاضر العالم الاسلامي ج ٢ - وفيه مصير الاندلسيين للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

٣) (Ximénès de Cinseros)

وفي ٩٠٧هـ (١٥٠١م) منع وجود الاسلام والمسلمين باسبانيا ، إذ اصبح وجودهم يعتبر خطرا على الدولة والديانة الكاثولكية ، ومنعوا من حمل السلاح بأي وجه كان . وكان نتيجة لهذا الضغط الجديد ان ثار المسلمون بجبال البشرات

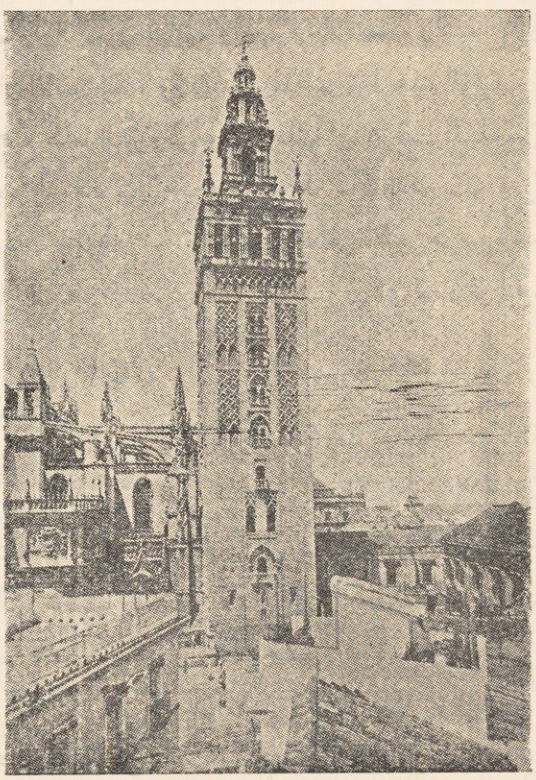

« لا جيرالدا » مسجد اشبيلية ، وقد حول الى كنيسة كسائر المساجد بالاندلس

فاستعمل الاسبان ضدهم كل وسيلة لقمع الثورة . واستغاث الثوار بالسلطان العثماني (١) « بايزيد الثاني » ولكنه كان مشغولا بالاستعداد لغزو سلطنة المماليك بمصر والشام !!

وفي عهد الامبرطور «شارلكان» (٢) صدر قانون باكراه «الموريسكو» (٣) على

---

١) انظر قصيدة الاستغاثة ومقدمتها بازهار الرياض للمقري ج ١ ص ١٠٨ - طبع مصر ١٩٣٩م

٢) مات فرديناند الخامس ١٥١٦م فخلفه شارلكان الى ١٥٥٥م ثم اعتزل الحياة في دير ، وتولى بعده فليب الثاني الى سنة ١٥٩٨م - ٣) يطلق لفظ الموريسكو على العرب المتنصرين وكذلك لفظ « المدجنون » على المسلمين الذين اكرهوا على التنصير وبقوا على عقيدتهم في خفاء . .

ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزي الاسباني ، ومُنِعوا من الاغتسال ودخول الحمامات، وحظر عليهم التكلم بالعربية ،كما اوجبوا عليهم تبديل اسمائهم العربية باسماء إسبانية، ثم حولت جميع المساجد الى كنائس مسيحية في عهد فليب الثاني ، وتنصير من بقي على دينه من المسلمين او ان يخرج من اسبانيا في مدة معينة ، وإلا كان مصيره العبودية طول الحياة .

وكان هذا الضغط الجديد موجبا لاندلاع ثورة اخرى في جبال البشرات من جانب الموريسكو ٩٧٦هـ (١٥٦٨م) بقيادة محمد بن امية « اسمه الاسباني هرناندودو فلور » وامكنه ان يضم اليه جهات البشرات . واستفحل امره وعظم خطره . ولكن أعان الاسبانُ على تدبير مؤامرة ضده فاغتيل من بعض اتباعه ؛ فتولى بعده « عبد الله بن ابوه » الا ان اتجاه اسبانيا الكلي الى هذه الثورات ، وعدم وصول اي مدد الى الموريسكو جعل الاسبان يتغلبون عليهم ، مستعملين معهم كل وسيلة للتعذيب والتنكيل والارهاق ؛ فقضوا على الثورة بعد طول كفاح . وكانت تلك آخر محاولات الموريسكو للتخلص من النير الاسباني . ولم يكن الموريسكو بجهات بلنسية اقل انتقاضا وثورة من إخوانهم في جبال البشرات .

النفي والجلاء :

لما اعتلى عرش اسبانيا « فليب الثالث » جرت في عهده المأساة الاخيرة لبقايا المسلمين (الموريسكو) في الاندلس ؛ فقد كانت الاضطهادات المتواصلة تجبر المنتصرين على الثورات وتتابعها . وكانت الكنيسة دائمة التحريض على الفتك بهم وعدم الاغترار بادعائهم النصرانية . وما زال اسقفا بلنسية وطليطلة يثيران غضب فليب الثالث ضدهم حتى استجاب لذلك . وعقد مجلس ديني كبير باشارة البابا. ثم تعددت المجالس حتى صدر امر النفي والجلاء في ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩ م (١٠١٧هـ) وحشدت لهم السفن من مختلف الجهات فذهب البعض الى فرنسا وايطاليا (شرط الاستمرار على الكاثوليكية) وذهب البعض الآخر الى مصر والآستانة . ولكن الاغلبية الساحقة منهم نقلوا الى المغرب العربي ، خصوصا (١) المملكة التونسية .

---

١) انظر ملحقات الفصل

وكان عددا عظيما جدا هؤلاء الذين اصابهم النفي والجلاء ، اوصله بعضهم الى عدة ملايين (١) هلك منهم اثناء عملية النفي ما يفوق المائة ألف بين اسير وقتيل . وعلى هذه الصورة المرعبة انتهى امر المسلمين بالاندلس . وما جنت اسبانيا - بعملها هذا - على الموريسكو فقط بل جنت على نفسها ايضا اعظم جناية . يقول غوستاف لبون « ... ومما يرثى له ان حرمت اسبانيا عمدا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية . ثم رات محاكم التفتيش ان تبيد كل نصراني ترى فيه شيئا من النباهة والفضل . وقد كان من نتائج تلك المظالم المزدوجة ان هبطت اسبانيا الى اسفل دركات الانحطاط ، بعد ان بلغت في ايام العرب قمة المجد، وان انهار كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب ... . »

(ص ٢٩٢ - حضارة العرب - غوستاف لبون)

مُلحقات الفصل الثالث عشر

١) الخلاصة :

بدأ ضعف الموحدين إثر هزيمتهم في معركة العقاب . وتمزقت سلطنتهم الممتدة الاطراف باستقلال الحفصيين في تونس ، وبني عبد الوادي في تلمسان . وفي المغرب الاقصى ثار ضدهم بنو مرين . وما كانت سنة ٦٦٨ هـ حتى قضي على آخر سلطان للموحدين ، وانتصب مكانهم بالمغرب الاقصى بنو مرين . وثارت الاندلس ضد الموحدين فعادت الى الفوضى والانقسام . وقد اغرى ملوك الاسبان هؤلاء الثوار على الانتقاض ، ثم كروا عليهم واندفعوا يستولون على المدن الاسلامية واحدة بعد اخرى ، فلم تبق إلا مملكة غرناطة تحت سيادة بني الاحمر . وهي مملكة صغيرة استقرت مدة قرنين ونصف قضت غالبها خاضعة لسيادة مملكة قشتالة او في حروب معها . ثم دخلها الضعف والاضطراب وانقطع عنها مدد بني مرين لما شملهم

---

١) يرجح عدد من المؤرخين ان عدد الذين وقع نفيهم يدور بين الخمسمائة والستمائة الف . اما مجموع الذين خرجوا منذ سقوط بلنسية وقرطبة فيبلغ عدده الثلاثة ملايين . وكان يهود الاندلس عرضة لهذا التنكيل والجلاء فهاجر كثير منهم الى اقطار الشمال الافريقي .

الضعف والانحلال . وعندما اتحدت مملكتا قشتالة وارغونة اشتد الضغط على مملكة غرناطة . واخذت المملكة المتحدة الاسبانية تهاجم غرناطة . وكان تخاذل ملوكها اكبر معين على الهزيمة ، واستيلاء فرديناند الخامس على غرناطة ، وإزالة آخر سيادة إسلامية في الاندلس . ورغم شروط الامان التي بذلت للغرناطيين فانه سرعان ما نقضت تلك الشروط ؛ فاضطهد المسلمون واجبروا على التنصير . وقامت ثورات عديدة كان يقمعها الاسبان بافظع الوسائل . واخيرا صدر قرار نفي جميع العرب المتنصرين وإجلائهم عن اسبانيا . ونزل غالب هؤلاء المنفيين في اقطار المغرب العربي ، خصوصا بالبلاد التونسية .

٢) أرقام تاريخية

٦٦٨هـ (١٢٦٩م) نهاية سلطنة الموحدين

٧٤١هـ (١٣٤٠م) معركة طريف وهزيمة المنصور المريني بالاندلس

٨٩٧هـ (١٤٩٢م) سقوط غرناطة

٩٠٥هـ (١٤٩٩م) امر التنصير الاجباري لمسلمي الاندلس

١٠١٧هـ (١٦٠٩م) صدور امر النفي والجلاء عن الاندلس

٣) مراثي الاندلس

اثارت النكبات المتتالية في الاندلس قرائح الكتاب والشعراء على مدى توالي هذه النكبات ؛ فكتبت الرسائل الطويلة والقصائد العديدة : استنهاضا لهمم القوم ، او استنجادا بالغير ، او بكاء على ما ضاع وافلت من أيدي المسلمين . ومن اروع واسير ما قيل في هذا الشان قصيدة ابي الطيب صالح بن شريف الرُندي ، قالها إثر النكبة التي لم تبق الا مملكة غرناطة الضيقة الحدود . والقصيدة في نيف واربعين بيتا ، استفتحها ابن الرندي بأبيات في الزهد والتأسي وتغلب الزمان على الدول والملوك والجبابرة . ثم تخلص الى الحديث عن الجزيرة وما دهاها ، وتعداد اهم مدنها . وينهي قصيدته بهذه الابيات المثيرة :

اعندكم نبأ من أهل اندلس ... فقدسرى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطعُ في الاسلام بينكم ... وأنتُم يا عباد الله (إخوان)
أَلاَ نفوس ابيات لها هِمَم؟ ... أَمَا على الخير انصار وأعوان؟
يامَنْ لذلة قوم بعد عزهم ... أَحال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في مناز لهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الامر واستهوتك أحزان
يا رب أمّ وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مارأتها الشمس اذبرزت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العِلجُ للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لِمثلِ هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

ولما قدم المقري هذه القصيدة في كتابه (ازهار الرياض) قال «لله در ابي الطيب ... الرندي اذ قال يندب بلاد الاندلس ويبعث العزائم ويحركها من اهل الاسلام لنصرة الدين وإنقاذ البلاد من يد الكافرين ولسان الحال ينشده (لقد اسمعت لو ناديت حيا)؛

(ازهار الرياض ج ١ ص ٤٧)

٤) الهجرة الاندلسية الى تونس (١)

تدفقت سيول مهاجري الاندلس الى المغرب العربي منذ اشتداد حركة

١) انظر عن هذه الهجرة - مصير الاندلسيين للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، والمجلد الاول من مجلة الثريا التونسية، والمؤنس لابن ابي دينار، وخلاصة تاريخ تونس للمؤرخ الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب.

الاسترجاع ، وبلغت أقصاها بعد قرار النفي والجلاء . وكان حظ البلاد التونسية من هؤلاء المهاجرين أوفر من بقية الاقطار . ونزول الاندلسيين بتونس بدأ منذ تأسيس الدولة الحفصية ، فقد استنجد أهالي بلنسية بأبي زكرياء الحفصي ، وجاءته البيعة من جهات مختلفة بالاندلس . ومن اشهر المهاجرين في ذلك العهد : ابن الابار القضاعي ، حازم القرطاجني ، ابن عصفور الاشبيلي ، وعائلة ابن خلدون وابن سعيد . وقد استفادت الدولة الحفصية من هؤلاء المهاجرين في الحركة العلمية والادبية ، التي ازدهرت زمن الحفصيين بعد كساد العلم والادب في البلاد نتيجةً للزحف الهلالي على افريقية .

اما في الجلاء الاخير فان الاستفادة كانت اعظم في النواحي الاقتصادية والصناعية ، فقد جلب هؤلاء المهاجرون مختلف الصناعات التي كانوا يتقنونها بالاندلس ، ومن اشهرها صناعة الشاشية ونقش الرخام والجبس ، والجليز ونسج الحرير وتجليد الكتب وزخرفتها والخزف المطلي وطرق الري والزراعة والفلاحة وهندسة البناء وتعبيد الطرقات .

وكانت بداية هجرة المنفيين زمن الوالي التركي « عثمان داي(١) » فأفسح لهم الطريق . واكرم الناس وفادتهم ؛ فاستوطنوا البلاد وعمروا كثيرا من مناطق البادية وأسسوا القرى وجددوا بعض المدن القديمة ، فقد سكنوا بتونس وبنزرت ونابل وأسسوا مدنا أخرى :

أ) قرب بنزرت : العالية - منزل جميل - منزل عبد الرحمان .

ب) بالوطن القبلي : سليمان - نيانو - منزل ابي زلفى - منزل تميم - قرنبالية - تركي - بلّي - دار شعبان - الفهري - زغوان .

ج) على ضفاف مجردة : تستور - مجاز الباب - السلوقية - قريش الواد - طبربة - الجديدة - قلعة الاندلس - غار الملح .

وما زالت الى اليوم كثير من العائلات تحتفظ بألقابها الاسبانية منذ ذلك العهد مثل : نيقرو - كريستو - الكوندي - مريشكو - باتيس - مركيكو - بتريكو الى غير ذلك .

---

١) استقل بمنصب «داي» على تونس من ١٠٠٧ الى ١٠١٩ هـ.

تمرينـات

١) ضعف الموحدين وانقسام سلطنتهم

٢) ماذا تعني كلمة « حركة الاسترجاع » في تاريخ الاندلس ؟

٣) على اي اساس نشأت مملكة غرناطة ؟

٤) الظروف الداخلية والخارجية التي ساعدت على سقوط غرناطة

٥) ما هو موقف « الموريكسو » من قرار التنصير ؟

٦) بماذا عاد قرار الجلاء على البلاد الاسبانية ؟

٧) هجرة الاندلسيين الى تونس ومدى فائدتها .

٨) أبلغ النواحي التي ارتكز عليها « الرندي » في مرثيته لاثـارة عواطـف المسلمين .

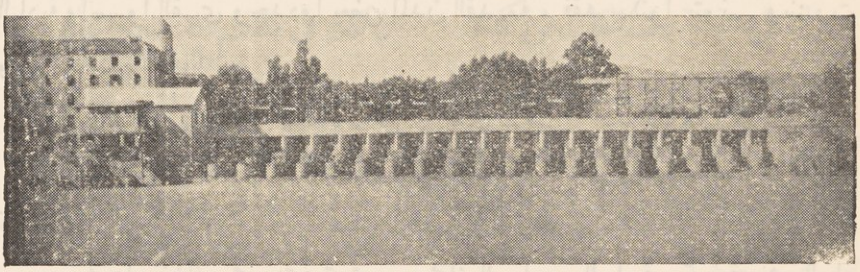

يسار ـ معمل « الباطان » (لتبطين) اي تلبيد الشاشية
التي جلبها الى تونس مهاجرو الاندلس
(القسم الاسلامي من إدارة الاثار بتونس)

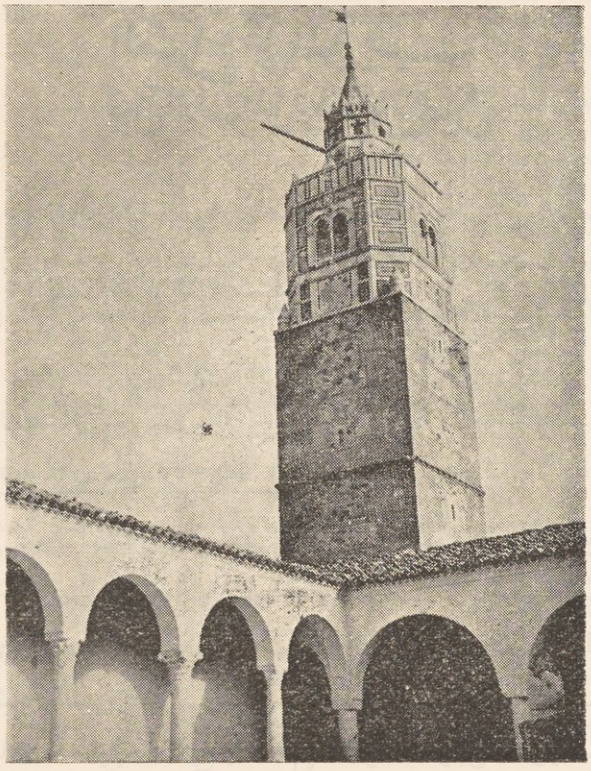

منارة ومسجد قرية « تستور » (١) التونسية ، من بناء مهاجري الاندلس الى تونس بعد محنة التنصير والجلاء .

(القسم الاسلامي من إدارة الاثار بتونس)

---

١) انظر عن تستور وجامعها الكبير دراسة الاستاذ جورج مارسي ؛ تعريب الاستاذ مصطفى زبيس بمجلة الثريا مجلد سنة ١٩٤٥

الفصل الرابع عشر

الصراع على المغرب بين الاسبان والعثمانيين

١) نزول البرتقيز والاسبان بسواحل المغرب العربي

٢) نجدة الاتراك العثمانيين والتغلب على الاسبان

١) نزول البرتقيز والاسبان بالسواحل المغربية

دواعي النزول بالمغرب :

لم يكن نزول الاسبان والبرتقيز (البرتغال) بالسواحل الافريقية إلا صفحة اخرى من الحروب الصليبية التي شنها العالم المسيحي على العالم الاسلامي . وقد سبقهم إلى النزول بهذه السواحل : الجنويز والبيزان والفرنسيون والنرمان: زمن الحروب الصليبية بالمشرق ، ولم يكن في مستطاع الاسبان والبرتقيز - إذ ذاك - ان يقوموا بالحملات الصليبية خارج بلادهم إذ كانوا مشغولين بحروبهم الصليبية في شبه الجزيرة .

وكان فشل الصليبيين في المشرق ، واحتلال الاتراك العثمانيين للقسطنطينية وتهديدهم لاروبا الغربية والوسطى بخطر الاستيلاء والاكتساح ، وظهور سيادة الاتراك البحرية في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط ؛ كان كل ذلك - مع النجاح الذي احرزته النصرانية على المسلمين بالاندلس - دافعا بالاسبان والبرتقيز على متابعة الغزو والاكتساح للاسلام والمسلمين في القارة الافريقية ، باذلين أقصى الجهد لارضاء البابوية وتحريضات رجال الكنيسة الكاثوليكية ، الذين لم ينوا عن تحريضهم وتأييدهم . وكان « هنري الملاح » (ملك البرتغال) قد اقتنع بوجوب

الاتصال بملك الحبشة المسيحي ، (١) الذي تكاثرت الاخبار عن تقواه وورعه ؛ فاذا ساير السواحل الافريقية واتصل بهذا الملك المسيحي ، فانه يسهل التعاقد والتحالف معه ضد المسلمين . وبذلك يمكن استرجاع بيت المقدس عن طريق الشرق والجنوب بعد أن فشلت المحاولات عن طريق الغرب والشمال ، وبعد أن فقد الصليبيون الآمال التي كانوا يعقدونها على المغول الوثنيين ، الذين هصرهم الاسلام في بوتقته واصبحوا مسلمين .

وسبب آخر دعا الى هذا النزول يتمثل في فكرة الانتقام من مراسي المغرب العربي ، التي كانت مراكز الغارات البحرية ضد السواحل والسفن الاسبانية ؛ فان الكثير من المهاجرين الاندلسيين كانوا ، عندما يستقر بهم الامر في المدن الافريقية، يعملون على الانتقام من الاسبان الذين أخرجوهم من ديارهم . وقد اكتسبت هذه الغارات صبغة الجهاد ، فكان يشاركهم في ذلك كثير من سكان السواحل الافريقية ، فيركبون السفن وينزلون بالسواحل الاسبانية(٢) لانقاذ إخوانهم « الموريسكو » من خطر الفناء والتنصير ، كما كانوا يغيرون على السفن النصرانية ويعودون بما فيها ومن فيها غنائم وأسرى . وتكونت بذلك قرصنة إسلامية ما كان يعرفها البحارة المسلمون في السابق . وانما دعت اليها فكرة الجهاد والانتقام من الاسبان ؛ سيما بعد ان ضعفت اساطيل دول المغرب العربي وتلاشت ؛ فقامت مقامها هذه الاساطيل الفردية .

واذا اضفت الى ذلك ما كان يحز في نفوس الاسبان والبرتغيز من تلك النجدات التي كانت ترسلها السواحل الافريقية الى مسلمي الاندلس منذ عهد المرابطين الى ضعف بني مرين ، وان سلامتهم وتفوقهم انما يتمثلان في ضعف

---

١) اسم القس يوحنا (Prêtre Jean) وبالانكليزية (Prester John) لعب دورا خرافيا كبيرا في العصور الوسطى والحروب الصليبية ، فاطلق اولا على رؤساء قبيلة القرايت (Kéraït) المسيحية بآسيا الوسطى ، الذين كانوا يتعاونون مع نصارى الغرب للقضاء على الاسلام . فلما ساد الاسلام في الاوساط المغولية اطلق المسيحيون هذا الاسم على بعض ملوك الحبشة - انظر معلمة لاروس والدعوة الى الاسلام ص ١٩٢

٢) يذكر مثلا صاحب غزوات عروج وخير الدين ان جملة من انقذهم خير الدين في سبع حملات فقط بلغ (٧٠) الفا ص ٨٢

هذه السواحل بَلْـه الاستيلاء عليها ، إذا اضفت هـذا الى مـا تقدم رأيت وفـرة الدواعي التي دفعـت البرتقيز والاسبان الى محاولـة الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها . وقد كان الاضطراب السياسي في هذه الاقطار يساعد كثيرا على غزوها واكـتساحها .

ضعف دول المغرب الاسلامي :

اطل القرن العاشر الهجري، والمغرب الاسلامي في ضعف وتدهور وانقسام، من طرابلس الغرب الى رباط الفتح ، فقد تـداعى الحفصيون بتونس والزيانيون بتلمسان الى التدهور والسقوط ، فاستبد الاعراب بالداخل واستقلت مدن السواحل. واصبح السلطان الحفصي - في بعض الحـالات - لا يشمل نفوذه إلا مدينة تـونس وضواحيها . ولم يكن حظ الملك الزياني في تلمسان بأحسن من حظ الملك الحفصي . اما المغرب الاقصى فقد كان في نزاع داخلي عنيف فيمـا بين بني وطـاس انفسهم او فيما بينهم وبين الاشراف السعديين .

البرتـقيز بسواحل المغـرب الاقصى :

بدأ نزول البرتقيـز بالسواحل المغربية منـذ أن تسرب الضعف الى دولة بني مرين ، واشتد نزاعهـا مع بني وطاس ففي سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) نزل البرتقيز في مدينة سبتة بقيادة «هنري الملاح» ووضعوا حمايتهم عليها . ولم يكن هذا النزول المبكر بعيدا عن المبدأ الصليبي وحركة الاسترجاع الاسبانية .

وازدادت حركة النزول البرتغالي عنفا بعد استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) ، فقد جهز ملك البرتغال « الاذفونش الخامس» اسطولا كبيرا ونزل بالقصر الصغير ، بين سبتة وطنجة ٨٦٢هـ (١٤٥٨م) . ولم يكن بنو وطاس بقادرين على دفع هؤلاء الغزاة ، مما جعل البرتقيز يستولون سنة ٨٦٩هـ على طنجة ، وبعد ذلـك على آصيلا وآنفي ٨٧٦هـ (١٤٧١م) .

وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر المسيحي) استـولى البرتقيز على الجديدة - والعرائش - واغـادير - ورباط آسفي - وآزمـور - والمعمورة (مهدية المغرب) . ولم تـأت سنة ٩٢٦هـ (١٥٢٠م) حتى كان الساحـل الغربي

للمغرب الاقصى خاضعا لحكم البرتقيز وتحت سيطرة حصونهم (١) .

الاشراف السعديون يطردون البرتقيز :

في الوقت الـذي كان البرتقيز يستغلون فيه ضعف بني وطـاس ليستقروا بالمغرب الاقصى ، انبعثت حركة إصلاحية جديدة ، اعانها على النجاح هذا الاحتلال النصراني للبلاد ، وضعف بني وطاس عن الدفاع ، وسوء سلوكهم مع الرعية .

ابتدأت هذه الحركة الجديدة منذ سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) بزعامة عبد الله القائم السعدي (٢) حين دعا الى الجهاد ضـد البرتقيز . ولم يبق هؤلاء البرتقيز متجهين تمام الاتجاه إلى المغرب ؛ فقد أصبحوا مشغـولين بحركة الاكتشافـات البحرية والجغرافية بالشرق الاقصى والدنيا الجديدة « أمريكا ». وهذا مـا اعان السعديين - إلى حدّ ما - على النجاح . ولما تولّى أبو العباس الاعرج (ابن القاسم) سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ازداد السعديون انتصارا على البرتقيز وعلى بني وطاس : إذ استولى ابو العباس على مراكش بعد سبع سنوات من ولايته . الا أن أخاه محمد الشيخ (المهدي) أمكنه أن يسجل انتصارات أكبر على البرتقيز ، فقد أسترجع منهم : فونتي - آسفي - آزمور - أصيـلا - فيمـا بين سنتي (٩٤٧ - ٩٤٨ هـ) وفي سنة ٩٥٦ هـ (١٥٤٩ م) استولى على مدينة فاس وقضى على الوطاسيين ؛ ولم يسلم منهم إلا أبو حسون ، الذي فر الى بلاد الجزائر والتجأ الى الاتراك . وبذلك خلص المغرب الاقصى للسعديين بعد أن قضوا على البرتقيز وبني وطاس معا .

جولـة البرتـقيز الاخيـرة في المغرب الاقصى :

في سنة ٩٨٣ هـ (١٥٧٥ م) آل أمر السعـديين الى المتـوكل على الله (ابن الغالب بالله) وكان المتـوكل يضمر الشر لعميه (عبد الملك ابي مروان - واحمـد المنصور) فخرجا من المغرب واتجها الى السلطان العثماني بالقسطنطينية ليستنجدا به ضد ابن اخيهما (المتوكل) وانتهـز السلطـان العثماني الفرصة فبعث بجيش

١) انظر اجمال هذا النزول بكتاب الاستقصاء لاحمـد الناصري - ج ٢ ص ١٥٦ وانظره مفصلا في مواضع مختلفة من الكتاب .

٢) السعديون : يتفق المؤرخون على ان السعديين من العرب ، ولكنهم يختلفون في صحة نسبهم الى آل ابي طالب . ومهما كان الامر فان لقبهم الذي سار في مجرى التاريخ انمـا هو الاشراف السعديون تمييزا لهم عن الاشراف العلويين الذين حلوا محلهم في المغرب الاقصى الى هذا الوقت .

(من الجزائر) مع عبد الملك ابي مروان، فانتصر على المتوكل سنة ٩٨٤هـ (١٥٧٦م) وانتصب ملكا على البلاد المغربية . ولم ير عبد الملك المهزوم بدّا من الالتجاء الى ملك البرتغال «سبستيان» (Don Sébastien) والاستنجاد به ضد عمه عبد الملك. وقد اشترط «سبستيان» المذكور ان يسلم اليه المتوكل جميع سواحل بلاد المغرب الاقصى ، ويكتفي هو بالداخل . وعلى هذا الشرط اقبل ملك البرتغال في جيش عدده مائة وخمسة وعشرون ألف مقاتل (١) مع (٣٠٠) من أتباع المتوكل . وفي ربيع الثاني ٩٨٦ هـ (أوت ١٥٧٨ م) خرجت جيوش البرتقيز من مدينة طنجة ، فالتقوا بعبد الملك بوادي المخازن قرب قصر كتامة . ورغم قلة الجيش المغربي (٤٠ الفا) فقد انجلت المعركة عن هزيمة كبرى للبرتقيز . وحملت المعركة في طياتها مصادفة عجيبة بموت الملوك الثلاث : عبد الملك ـ المتوكل ـ سبستيان . اما عبد الملك فقد وافاه الاجل في محفته منذ نشوب المعركة ، واما المتوكل وسبستيان فقد قتلا في ساحة المعركة . وبذلك خلا الجو لاحمد المنصور (الذهبي) فانتصب ملكا على المغرب الاقصى ، الذي أُنقِذ من غزوة برتغالية جامحة. ويعتبر احمد المنصور من اشهر الملوك السعديين ، امتدت سلطنته وفتوحاته الى بلاد السودان .

٢) صراع الاسبان والعثمانيين من أجل المغرب الاوسط والادني

تفاقم نزول الاسبان بالسواحل الافريقية منذ سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بقيادة «بيدرو نفارو» (Pédro Navarro) فقد احتلوا المرسى الكبير ، ثم وهران سنة ٩١٤ هـ (١٥٠٩ م) مرتكبين اشنع الجرائم ؛ فقد قتلوا اربعة الاف مسلم، وحولوا مسجدين فيها الى كنائس . ثم تابعوا سيرهم حتى خضعت لهم مدن : عنابة ـ تَنَس ـ شَرشال دلّس ـ مستغانم ـ الجزائر ـ طرابلس . كما ان صاحب تلمسان خضع لهم واصبح تحت حمايتهم . وكان الاسبان حريصين على إخضاع هذه السواحل إليهم لتتم لهم السيادة على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط . ولكي يقارعوا الاساطيل العثمانية، التي اصبحت لها السيادة في حوضه الشرقي .

---

١) ص ٧٣ نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي تاليف محمد الصغير الوفراني طبع باريس ١٨٨٧ م. وكان يضم الجيش زيادة عن البرتغاليين جنودا من الالمان والطليان ص ٢١٠ ج ٢ (Ch. A. Julien)

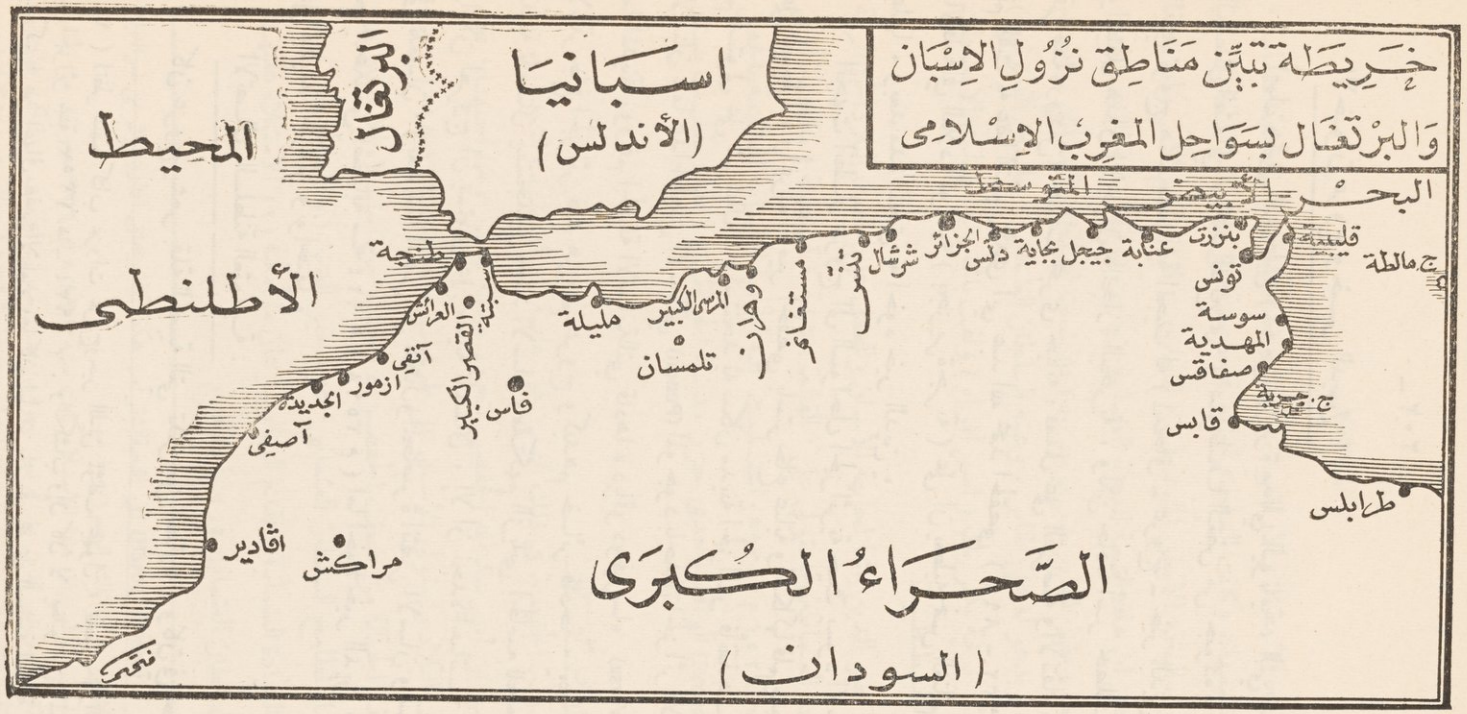

الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (١٠)

الاخـوان عروج وخيـر الديـن :

أصل هذين الرجلين (١) من جزيرة مدللي اليونانية ، التي استولى عليهـا السلطان العثماني « محمد الفاتح » ، واستوطنهـا البعض من جنوده ، منهم يعقـوب الذي تزوج هناك بنصرانية انجبت له (اسحاق ـ عروج ـ خير الدين ـ إلياس) ، واشتغل هذان الاخوان بالتجارة البحرية . ولكن حادثة أسْر حصلت لعـروج من قراصنة «رودس» حوَّلت مجرى حياته ؛ فعمل على القرصنة والانتقام من النصارى ، ثم القت به عصا التسيار لدي ابي عبد الله محمد الحفصي (٨٩٩ - ٩٣٢هـ) فسمح له بالاقامة في البلاد التونسية (بجزيرة جربة) على ان يعطيه خمس الغنائم التي يستحوذ عليها . وبعد مدة التحق به اخوه خير الدين .

اتجهت انظـار عروج الى السواحل الجزائرية حيث يسود الاسبان فاستولى على جيجل . وأغراه الامير الحفصي باسترجاع عنابة وافتكاكها فلم يسعفه الحـظ . ثم استولى على شرشال . واستنجد به سكان مدينة الجزائـر فأنقذهـا من خطـر الاسبان ، ما عدا الحصن الاسباني (Penon) الموجود باحدى الجزائر الاربعة الواقعة امام المدينة . ورغم الحملة الاسبانية التي قادها « دياقو دوفيرسا» (Diego de Versa) لاسترجاع الجزائر فقد هزمهم عروج وكبدهم خسائر فادحة ، مما جعل سـكان مدينة تلمسان يستنجدون به ضد الاسبان وملِكهم الزياني الخاضِع للحماية الاسبانية . وامكن لعروج ان يستولي على مدينة تلمسان . إلا ان نجدة اسبانيـة كبيرة قدمت الى تلمسان ، وبعد ستة اشهر من القتال والمحاصرة انتصر الاسبان واستشهد عروج مع جماعة من اصحابه سنة ٩٢٤ هـ (١٥١٨ م) اما اخوه خير الدين فبقي مستوليا على مدينة الجزائر ونواحيها .

الاتصـال بالسلطنة العثمانيـة :

كان عروج يشعر بقلة العصبية التي تكثر من انصاره . وكان في حاجة الى صبغة

---

١) انظر عنهما كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول . تحقيق نورالدين عبد القادر طبع الجزائر سنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م . والكتاب وإن كان لا يخلو من المبالغات إلا انه يفيد كثيرا عن اعمال هذين الاخوين وما كان لها من اثر في مجرى السياسة الدولية .

شرعية لامتلاكه الامصار والاراضي . ولهذا ربط حظوظه بالسلطنة العثمانية ، فأصبح يغزو باسمها . وكانت السلطنة العثمانية حريصة على مثل هذا . اما الاسبان وأحلافهم (دول البحر الابيض المتوسط من النصارى) فقد هالهم الامر واستعدوا لعمل اكبر . على ان هذه التبعية للدولة العثمانية ازدادت توثقا بعد وفاة عروج ؛ فقد اعترف اخوه خير الدين « بربروس » (١) بتبيعته للسلطان العثماني ، فاصبح يخطب باسمه ويدعو له على المنابر . وعينه السلطان العثماني (سليمان القانوني) واليا على الجزائر برتبة بكلر بك (امير امراء) ولقب باشا . وأخذت الامدادات ترد عليه من القسطنطينية .

وتصدى خير الدين باشا لمجابهة الاسبان والعمل على إخضاع البلاد الجزائرية وإلحاقها بالسيادة العثمانية، فاستولى على : القالة ، عنابة ، قسنطينة ، متيجة . وفي شهر ماي سنة ١٥٢٩ م (٩٣٥هـ) استسلمت إليه الحامية الاسبانية المعتصمة بالحصن الاسباني (Penon) الواقع باحدى جزر مدينة الجزائر ؛ فذاع بذلك صيته وعظم نفوذه .

النزاع على تونس :

كانت الدولة الحفصية في ذلك الزمن على غاية من الضعف والتدلي . ولا يكاد نفوذ الحسن بن ابي عبد الله الحفصي يتجاوز مدينة تونس وضواحيها ، فقد استقلت اطراف البلاد واستولى الاسبان على طرابلس منذ سنة ٩١٦ هـ .

وامام هذه الحالة من ضعف الحفصيين ، وخشيةً من استيلاء الاسبان على تونس ، وارضاء لمطامح السلطان العثماني، عزم خير الدين (والي الجزائر) على إلحاق تونس بالسيادة العثمانية ، فقدم اليها وسرعان ما أمكنه (٢) الاستيلاء عليها، وخطب باسم السلطان العثماني في مساجدها .

---

١) بربروس (Barbe Rouce) اي اللحية الشقراء . هكذا كان يطلق الاروبيون على خير الدين هذا اللقب الذي اشتهر به في تلك العصور وما بعدها .

٢) يرجح صاحب المؤنس ان هذا الاستيلاء كانت سنة ٩٣٥ هـ او ٩٣٦ هـ وتبعه من اتى بعده مما يجعل مدة سيادة خير الدين على تونس نحوا من خمس سنوات او ست . ولكن مؤرخي الافرنج لا يجعلون هذا الاستيلاء يمتد لاكثر من عام وشهر من اوت ١٥٣٤ م الى جويلية ١٥٣٥ م . قارن بين ماورد في الكتب العربية والافرنجية، وقابل ذلك بالتاريخين الهجري والمسيحي

ولم يسع الملك الحفصي (الحسن) إلا الفرار والهروب . وبعد ان فشل في إثارة العرب ضد خير الدين ذهب يستنجد بالامبراطور الاسباني « شارلكان » الذي كان يتابع سياسة أسلافه (ملوك الاسبان) في مطاردة المسلمين والنيل منهم . ولهذا انتهز شارلكان الفرصة وجاء بجيوش جرارة الى تونس ٩٤٢هـ (١٥٣٥م) فاستولى على حلق الوادي . ثم زحف الى تونس (العاصمة) وارجع الحسن الحفصي إلى عرشه بعد ان دخل تحت حمايته ، وامضى معه معاهدة توجب الترخيص للاسبان في سكنى جميع انحاء البلاد وإقامة شعائرهم الدينية ، والتنازل للاسبان عن حلق الوادي وبنزرت وعنابة ، ودفع أتاوة سنوية قدرها (١٢) الف دوكة . (عملة الاسبان في ذلك الوقت)

ورجع خير الدين باشا الى الجزائر لما رأى عدم القدرة على صد زحف الامبراطور شارلكان . ورغم ثورة التونسيين ضد الحسن الحفصي ، حليف الاسبان ، وتغلبهم بزعامة ابي العباس احمد الحفصي، فان الاسبان ازدادوا تمكنا من

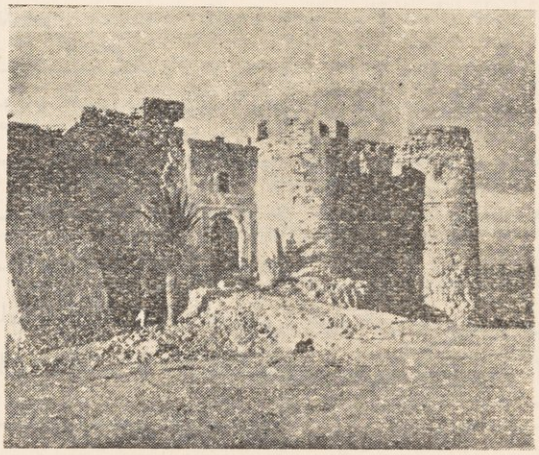

حصن الاسبان بجزيرة جربة

البلاد واحتلوا المهدية وجزيرة جربة . وازدادت الحماية الاسبانية تمكنا فيما بعد بولاية محمد بن الحسن الحفصي سنة ٩٨٠هـ (١٥٧٢م) الذي دخل تحت حماية الاسبان من جديد على شكل أشد من الحماية الاولى .

عودة الصراع بين الاسبان والعثمانيين :

كان النزاع بين الاسبان والعثمانيين لا يتمثل في السواحل الافريقية فقط ، بل كان يجري كذلك حول سيادة البحر الابيض المتوسط . وقداستطاع الاسطول العثماني ان يمتلك سيادة هذا البحر . مما جعل الاساطيل النصرانية تتجنب ملاقاته إلا متحدة متحالفة، سيما بعد ان أصبح خير الدين «بربروس» متولياقيادة الاسطول العامة «قبودان باشا».

ولما انتدب خير الدين لهذه القيادة خلفه على ولاية الجزائر حسن آغا . وفي عهد هذا الوالي : سنة ٩٤٨هـ (١٥٤١م) هاجم شارلكان مدينة الجزائر في اسطول كبير بلغت قطعه (٥١٦) سفينة .

ولكن أمام ثبات الاتراك في الدفاع ، وعواصف البحر الهائجة ، انهزم الاسبان انهزاما فظيعا وباءت حملتهم بالفشل ؛ مما جعل محمد الزياني (صاحب تلمسان) يخلع حمايته الاسبان وينضوي تحت سيادة الاتراك ، فسلم اليهم حصن المشور بتلمسان (١) . على ان عنصرا ثالثا دخل في النزاع على تلمسان ، هم السعديون بالمغرب الاقصى . إلا ان النهاية كانت لفائدة الاتراك، فخلصت لهم بذلك البلاد الجزائرية (٢) سنة ٩٥٧هـ (١٥٥٠م)

طرد النصارى من طرابلس الغرب والجنوب التونسي :

استولى الاسبان على طرابلس الغرب منذ ٩١٦هـ (١٥١٠م) وكان ما عليه البلاد من ضعف قد مكن الاسبان من الاستيلاء عليها بسهولة . واستبد فيها الاسبان وظلموا . ثم تنازل عنها شارلكان لفرسان القديس يوحنا (فرسان مالطة (٣)) الذين كانوا يعملون معه ضد بني عثمان . ونتيجة لاستبداد النصارى واستيلائهم على البلاد ذهب وفد من طرابلس مستنجدا بسليمان القانوني ضد النصارى ، فبعث معهم

---

١) المشور قصر بني سنة ٥٤٠هـ سكنه ولاة دولة الموحدين وبعدهم ملوك بني زيان ، سمي المشور لانهم كانوا ينصبون فيه ديوان وزرائهم، وموقعه في جنوب هذه المدينة - عن تعليقات نور الدين عبد القادر لكتاب غزوات عروج ص ١٥ .

٢) لم يبق للاسبان الا مدينة وهران ومنطقة ساحلية صغيرة بقوافيها اكثر من قرنين ونصف وكان خروجهم منها نهاية سنة ١٧٩٢م - دائرة معارف لاروس الفرنسية .

٣) انظر عن هؤلاء الفرسان ملحقات الفصل الخامس

« مراد آغا » وسماه واليا على طرابلس . وجاء هذا الوالي الى « غريان » وبايعه أهلها سنة ٩٥٢هـ. إلا انه لم يستطع التغلب على المحتلين وإخراجهم من البلاد . حتى إذا كانت سنة ٩٥٨هـ مر الاسطول العثماني أمام طرابلس بقيادة « طور غود باشا » فاستنجد به « مراد آغا » والطرابلسيون، فعرج باسطوله على طرابلس وأخرج النصارى منها . ولما علم السلطان العثماني بهذا النصر سماه واليا عليها . وبعث إليه بالولاء سكان قابس وجربة (١).

وفي سنة ٩٦٦هـ حاول الاسبان الهجوم على طرابلس فباءوا بالفشل ورجعوا خائبين. وفي هذه الاثناء سنة ٩٦٧هـ(١٥٦٠م)وقعت معركة جزيرة جربة المشهورة

برج الرؤوس

لما استولى الاتراك على جزيرة جربة وقتلوا حاميتها النصرانية جمعوا عظامها كومة وأطلقوا عليها « برج الرؤوس » . وقد استمر ذلك الى سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٦م) فقد عوض بمسلة صغيرة بعد تدخل سفراء الدول الغربية.

بين الاسطول العثماني وأساطيل الحلف الاروبي (اسبانيا - مالطة - جنوة - فلورانسة - صقلية) انتهت بفوز العثمانيين وانتصارهم .

---

١) عن التذكار لابن غلبون ص ٩٤

وكانت القيروان مستقلة عن السلطان الحفصي تحت سيادة الشابيين ، (١) الشيخ عرفه ثم ابن اخيه محمد ابن ابي الطيب . وكانت لهما حروب مع السلطان احمد الحفصي . واستنجد اهالي القيروان بوالي طرابلس «درغوث باشا» فجاء من طرابلس وضمّ القيروان الى سيادة العثمانيين ، وولى عليها « حيدر باشا » سنة ٩٦٥هـ (١٥٥٨م)

استيلاء بني عثمان نهائيا على تونس بطرد الاسبان والقضاء على سلطنة بني حفص :

قام « اولوغ علي باشا » والي الجزائر بمحاولة ثانية لاحتلال تونس بعد ان حرضه على ذلك احد وزراء ابى العباس احمد الحفصي ، فأقبل علي باشا سنة ٩٧٧هـ (١٥٦٩) واستولى على تونس . إلا ان احمد الحفصي أعاد الاستنجاد بالاسبان ، فاقبلوا بقيادة « دون جوان » (Don Juan d'Autruche) سنة ٩٨٠هـ (١٥٧٣م) وأرجعوه الى منصبه . ولم يقبل ابو العباس احمد الحفصي شروط الحماية الاسبانية فقبلها اخوه محمد بن الحسن . وتولى السلطنة الحفصية الاسمية تحت سيادة الاسبان وإدارتهم .

وكانت هذه الحماية الاسبانية الجديدة بتونس، مع ما سبقها من هزيمة الاسطول العثماني امام الدول المتحدة في معركة « لبانتو » (٢) سنة ٩٧٩ (١٥٧١م) دافعة العثمانيين الى الاهتمام بتونس والعمل على إخراج الاسبان منها؛ فاقبل حيدر باشا من القيروان ومصطفى باشا من طرابلس والتقيا بالمحمدية . ثم تقدمت الجيوش التركية الى تونس لمحاصرتها من ناحية البر ، بينما اقبل سنان باشا في اسطول كبير من ناحية البحر . وبعد مدة اقبل رمضان باشا في جيش من بلاد الجزائر . وهكذا اجتمع قواد الاتراك وتظافرت جهودهم . واشتدت الحرب واستعرت نارها . وبعد اربعين يوما استسلمت قلعة حلق الوادي المنيعة ، ثم تبعها حصن

---

١) المونس لابن ابي دينار ص ١٤٤ .

٢) (Lépante) وقعت هذه المعركة بسواحل اليونان وتتمثل الدول المتحدة في اساطيل (مملكة البابا - رهبنة مالطة - اسبانيا - صقلية - البندقية - فرنسا) انظر المعركة مفصلة في كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار ص٥٥٨ ج ١

«الباستيون» (Bastion) وقلعة جزيرة شكلي سنة ٩٨١هـ (١٥٧٤م) (١) وبذلك استقر العثمانيون بتونس، وقضوا على الاسبان والحفصيين معا، وأنقذ المغرب العربي من خطر إسباني، كثيرا ما كانت تغذيه الروح الصليبية وتحريضات البابوية واتحاد النصرانية.

وأصبحت تونس ولاية عثمانية، كما أصبحت من قبل بلاد الجزائر وطرابلس الغرب.

ملحقات الفصل الرابع عشر

١) الخلاصة

اجتمعت دواع عديدة لنزول الاسبان والبرتغال بالسواحل الافريقية. ولم يكن هذا النزول إلا امتدادا لحركة الاسترجاع الاسبانية، وصفحة اخرى من الحروب الصليبية. وكان فشل الحروب الصليبية بالمشرق ونجاحها بالاندلس خير مشجع للاسبان والبرتغاليين على مهاجمة المسلمين بالمغرب الاسلامي.

ومنذ عهد «هنري الملاح» شرع النصارى في النزول بسواحل المغرب. وكان الضعف السياسي السائد في اقطار المغرب الاسلامي خير مساعد على هذا التحدي، وهذا النزول؛ فاستولى البرتغاليون على الساحل الغربي من المغرب الاقصى ولم ينقذ البلاد من خطر استقرارهم إلا انبعاث دولة الاشراف السعديين، الذين قضوا على بني وطاس والبرتغاليين معا.

اما السواحل الشمالية والشرقية للمغرب الاسلامي؛ فكان نزول الاسبان فيها اولا بالسواحل الجزائرية وطرابلس الغرب. إلا ان ظهور الاخوين عروج وخير الدين خفف من خطر هذا الاستيلاء فصارعا الاسبان وأنقذا الجزائر. وبعد

---

١) انظر تفصيل هذه المعارك في المونس من ص١٦٧. اما الباستيون فيحدد مكانه الاستاذ ح. ح عبد الوهاب بأنه كان يوجد حيث السفارة الفرنسية الان - عن خلاصة تاريخ تونس ص ٤٩ طبع سنة ١٣٧٢

وفاة عروج عظم شأن أخيه خير الدين واعترف بالسيادة العثمانية ، فسمي واليا على الجزائر . ثم تحول الصراع برا وبحرا بين الاسبان والعثمانيين من أجل تونس وطرابلس الغرب . وكانت النتيجة - بعد الصراع الطويل - أن تغلب الاتراك على الاسبان وحلفائهم، وخضعت لهم طرابلس وتونس وأصبحت كل منهما ولاية عثمانية. وبذلك انتهى هذا الصراع العنيف المشوب بروح الجهاد والحرب الصليبية. وأُنقِذ المغرب الاسلامي من مصير مظلم قد يكون مآله فيه مآل الاندلس.

٢) أرقام تاريخية

٨١٨هـ (١٤١٥م) بدء نزول البرتقيز بسواحل المغرب

٩١٥هـ (١٥٠٩م) ظهور الاشراف السعديين

٩٤٢هـ (١٥٣٥م) استيلاء شارلكان على تونس ونصب الحماية الاسبانية عليها

٩٥٨هـ (١٥٥١م) استيلاء الاتراك العثمانيين على طرابلس

٩٦٧هـ (١٥٦٠م) معركة جزيرة جربة البحرية وتغلب الاتراك على الحلف الاوربي

٩٨١هـ (١٥٧٤م) استيلاء بني عثمان على تونس وانتهاء الدولة الحفصية

٩٨٦هـ (١٥٧٨م) معركة وادي المخازن بالمغرب الاقصى وهزيمة البرتقيز

٣) تونس مدة الحماية الاسبانية

قال صاحب المؤنس يصف تونس بعد الحماية الاسبانية الثانية. « فلما علمت أهل تونس بمجيء محمد بن الحسن بعمارة النصارى هربوا من البلد خيفة من هول الاربعاء (١) وهي الواقعة التي جرت عليهم ايام الحسن . وهرب اكثر اهل تونس الى ناحية جبل الرصاص واختفوا هناك في الدواميس . وهذه الواقعة

---

١) وقعت هذه الحادثة لما تغلب الاسبان على خير الدين . قيل إن أهالي تونس قتل منهم الثلث وأسر الثلث وهرب الثلث . وكان الثلث ستين الفا . المؤنس ص ١٤٦ .

يعبر عنها بخطرة الدواميس . وكان الخطب فيها جليلا . وكانت زمن الخريف وغالب أهل البلاد عرائس ؛ فانهتك حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه، وصنعوا نواويل في الغابات وسكنوا بها . وتسولوا بين خيام البادية ، ونالوا من الخوف والجوع ما لم ينله احد .

وبعث السلطان محمد بعد ذلك للناس وأمنهم وأمرهم بالرجوع الى البلد . ثم رجعوا ؛ فمن وجد داره أخذها ، ومن وجدها بيد النصارى وكل أمره الى الله . وقسمت المدينة قسمين : كفر وإيمان .

وفي تلك الايام أهين المسجد الاعظم (جامع الزيتونة) ، ونهبت خزائن الكتب التي به ، ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس . وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم ، وتبددت في الشوارع ، حتى قيل ان المار من شرقي الجامع حيث النواوريين(١) - الان - إنما يمر على الكتب المطروحة هناك . وضربت النواقيس في الحضرة .

وسمعت بعض أهل البلاد يقول : ان النصارى ربطوا خيولهم بالجامع الاعظم وفعلوا ما لا تفعله الاعداء بالاعداء . وساكنوا المسلمين وصارت الدار بالدار . وسكن القبطان (٢) مع السلطان محمد بالقصبة ، ويجلسان معا في سقيفتها للحكم . وفي تلك المدة عمر « البستيون » خارج باب البحر من تونس وفصلت اسواقه وحوانيته . وعمر بالكفرة ونال أهل تونس من أهل «البستيون» ما لم ينالوه من غيرهم ، حتى كانوا يفتنون الرجل عن دينه . وشاركت النصارى المسلمين في مساكنهم ومعاملتهم واقاموا معهم تحت القهر والاهانة ...»

(المؤنس لابن ابي دينار ص١٥٧)

٤) الحكم العثماني بالمغرب العربي

تم استقرار العثمانيين بالمغرب في الوقت الذي بلغت فيه الدولة العثمانية غاية

---

١) لم يبق هذا الاسم الان ، سوى ما يطلق على مقصورة النواورية بجامع الزيتونة المطلة على نهج جامع الزيتونة وسوق السرايرية .

٢) هو (Gabriel Serbelloni)

اتساعها وغاية مجدها الحربى والبحري ؛ فقد امتدت اطراف الدولة من حدود المغرب الاقصى (١) إلى بلاد العجم « ايران » .

وكان لهذا الامتداد أثره في نظام حكم الاقطار التابعة للدولة العثمانية . وتشابهت أقطار المغرب العربى في كيفية الحكم حسب النظام الذي سنه خير الدين «بر بروس» في الجزائر ، فسير على منواله بطرابلس الغرب وتونس . فقد كان على رأس كل ولاية من هذه الولايات الثلاث وال (باشا) يعين من قبل السلطان ، يكون مطلق التصرف ويكون له التفويض المطلق في عمل ما يراه صالحا ، لاتساع أطراف الدولة وصعوبة المواصلات ، برية كانت او بحرية (٢) . وتكون مدته ثلاث سنوات . كما تسانده قوة عسكرية في الحكم . على ان هذا النظام آل بالخيبة، فقد أخذ الجند يستبد على الوالي حتى اصبح لا يبرم امرا ولا ينقضه ، وانتهى الامر بانتصاب الدايات بتونس والجزائر والبايات بطرابلس . وتبع هذا النظام العسكري استبداد وظلم وإرهاق . وتقهقرت الثقافة في البلاد - كما عمت العالم العربي - ولم تظهر النهضة العلمية والادبية في تونس إلا بعد ان استقلت عن السلطنة وانتصبت فيها دولة قارة ، هي الدولة الحسينية الحالية ، وبدت تخطو الى النهوض والتقدم ومسايرة روح العصر . وكان لهذا نظير في البلاد المصرية بعد ان استقل بها محمدعلي الكبير . (على أن السلاطين العثمانيين الفاتحين قلدوا سائر عواهل الاعاجم في ناحية تحصيل العلوم والآداب وتقريب رجال الثقافة والعطف عليهم . بيد ان الدنيا لم تلبث ان صرفتهم عن الناحية الثقافية، وخاصة بعد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠هـ - ١٥٦٦م) وألهتهم بامورها الجسام . ولولا قيام الازهر في مصر والزيتونة في تونس والاموي في دمشق ومدارس النجف وغيرها من المعاهد العلمية والدينية، وخصوصا في دار السلطنة، لولا ذلك لانقرضت ايضا البقية الباقية من الثقافة العربية - وأعني بها العلوم اللسانية والدينية) ٣)

---

١) لم يستول العثمانيون على المغرب الاقصى رغم رغبة سليمان القانوني في ذلك، فقد صمد لهم الاشراف السعديون . على ان العلاقات بين الدولتين كانت طيبة في غالب الاحيان بلغت المساعدات الحربية والهدايا الثمينة .

٢) حقائق الاخبار عن دول البحار ص ٤٤٧ ج ١

٣) قوافل العروبة ومواكبها - تاليف جميل بيهم ج ١ - ص ١٧٣

تمرينات

١) ما الذي دفع بالبرتقيز والاسبان الى النزول بسواحل المغرب العربي ؟

٢) هل تتمثل في هذا النزول الروح الصليبية ؟

٣) كيف قضى الاشراق السعديون على البرتقيز، وأخرجوهم من سواحل المغرب الاقصى ؟

٤) معركة وادي المخازن .

٥) كيف التحقت بلاد الجزائر بالسلطنة العثمانية ؟

٦) دور خير الدين باشا في إنقاذ العرب المتنصرين .

٧) ما الذي أوجب الصراع بين الاسبان والعثمانيين على البلاد التونسية ؟

٨) كيف انتصبت الحماية الاسبانية على تونس ؟

٩) تونس مدة الاحتلال الاسباني

١٠) حملة الاتراك على تونس وإخراج الاسبان منها .

١١) نظام الحكم العثماني بالمغرب العربي .

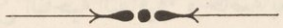

انتهى الكتاب بحمد الله في المحرم ١٣٧٣هـ بحاضرة تونس

محمد العروسي المطوي

أهم مصادر ومراجع الكتاب

اولا المراجع العربية العامة :

١) الكامل في التاريخ (محمد ابن الاثير - مطبعة الاستقامة مصر ١٩٣٨)

٢) وفيات الاعيان (احمد بن خلكان طبع مصر ١٩٤٨)

٣) كتاب العبر (عبد الرحمان بن خلدون طبع مصر)

٤) التعريف (عبد الرحمان بن خلدون، تحقيق محمد الطنجي مصر ١٩٥١)

٥) المختصر في اخبار البشر (ابو الفداء اسماعيل صاحب حماة، مصر ١٣٢٥هـ)

٦) تتمة المختصر في اخبار البشر (عمر بن مظفر ابن الوردي، مصر ١٢٨٥هـ)

٧) البداية والنهاية (ابو الفداء اسماعيل بن كثير - مصر - مطبعة السعادة)

٨) صبح الاعشى في صناعة الانشاء (احمد بن علي القلقشندي ج ٥، طبع مصر ١٩١٥)

٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (ابن تغري بردي - مصر)

١٠) معجم البلدان (ياقوت الحموى - مصر سنة ١٢٢٣هـ)

١١) منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان (امين الخانجي، مصر ١٣٢٣هـ)

١٢) تاريخ الخلفاء (جلال الدين السيوطي - مصر ١٩٥٢)

١٣) تاج العروس شرح القاموس (محمد مرتضى الزبيدي - مصر ١٣٠٦هـ)

١٤) حقائق الاخبار عن دول البحار (اسماعيل سرهنك - مصر ١٣١٢هـ)

١٥) معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية (امين واصف - مصر ١٩١٦)

١٦) الاعلام (خير الدين الزركلي - مصر ١٩٢٧)

١٧) النظم الاسلامية (حسن ابراهيم حسن - مصر ١٩٣٩)

١٨) تاريخ الاسلام السياسي (حسن ابراهيم حسن - مصر ٤٩ - ١٩٤٨)

١٩) ملحق الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون (شكيب ارسلان - مصر ١٩٣٦)

٢٠) تاريخ الدولة العثمانية (محمد فريد - مصر ١٨٩٣)

٢١) قوافل العروبة ومواكبها (محمد جميل بيهم - بيروت ١٩٤٨)

٢٢) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب (محمد جميل بيهم - مصر ١٩٥٠)

٢٣) الشرق الاسلامي في العصر الحديث (حسين مؤنس - مصر ١٩٣٨)
٢٤) معارك الاسلام الكبرى (الصاغ جمال الدين حماد - مصر ١٩٥٢)

ثانيا المراجع العربية الاخرى :

٢٥) النوادر السلطانية (بهاء الدين يوسف بن شداد - طبع مصر ١٣١٧هـ)
٢٦) الفتح القسي في الفتح القدسي (ابو عبد الله عماد الدين الكاتب الاصفهاني مصر ١٣٢١هـ)
٢٧) تذكرة بالاخبار، رحلة (محمد بن احمد بن جبير - طبع مصر ١٩٠٨)
٢٨) الاعتبار (اسامة بن منقذ - طبع ليدن ١٨٨٤)
٢٩) طبقات الامم (ابو القاسم صاعد بن صاعد - طبع بيروت ١٩١٢)
٣٠) نزهة الناظرين (مرعي بن يوسف الحنبلي - مخطوط بالمكتبة الصادقية عدد ٤٤٦ (جامع الزيتونة)
٣١) مفتاح التاريخ (محمد البشير صفر - طبع تونس ١٩٢٨)
٣٢) الدروس الجغرافية (محمد البشير صفر - الطبعة الثانية - تونس)
٣٣) خطط الشام (محمد كرد علي - طبع دمشق ١٩٢٦)
٣٤) الاسلام والحضارة العربية (محمد كرد علي - طبع مصر ١٩٥٠)
٣٥) صلاح الدين الايوبي (محمد فريد ابو حديد - طبع ١٩٢٧)
٣٦) حياة صلاح الدين الايوبي (دكتور احمد بيلى - مصر ١٣٤٥ - ١٩٢٦)
٣٧) الظاهر بيبرس حضارة مصر في عهده (محمد جمال الدين سرور - طبع مصر ١٩٣٨)
٣٨) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام (محمد عبد الله عنان - مصر ١٩٣٤)
٣٩) الاخبار السنية في الحروب الصليبية (سيد علي الحريري - مصر ١٣٢٩هـ)
٤٠) الحرب الصليبية الاولى (حسن حبشي - مصر)
٤١) نور الدين والصليبيون (حسن حبشي - مصر ١٩٤٨)
٤٢) الشرق العربي بين شقي الرحى (حسن حبشي - مصر ١٩٤٩)
٤٣) ادب الحروب الصليبية (عبد اللطيف حمزة - طبع مصر ١٩٤٩)
٤٤) الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي (محمد سيد كيلاني - مصر ١٩٤٩)

٤٥) تاريخ مصر الى الفتح العثماني (عمر الاسكندري - و - ج - سقدج - مصر ١٩٢٨)
٤٦) تاريخ مصر (اسكندر عمون - مصر ١٩١٣)
٤٧) الاسلام والنصرانية (محمد عبده - طبع مصر ١٣٥٧ هـ)
٤٨) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام (محمد الغزالي - طبع مصر)
٤٩) اثر العرب في الحضارة الاروبية (عباس محمود العقاد - طبع مصر ١٩٤٦)
٥٠) اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاروبية (عمر فروخ - طبع بيروت ١٩٥٢)
٥١) اروبا والاسلام ، كتيب (اغاخان - زكي علي - طبع بيروت ١٩٤٧)
٥٢) كشف الحجب عن مدينة العرب (محمد بن عمار الورتتاني - طبع تونس ١٣٥٢هـ)
٥٣) آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب (الدكتور احمد عيسى - مطبعة مصر)

ثالثا مراجع المغرب الاسلامي والاندلس :

٥٤) المعجب في تلخيص اخبار المغرب (عبد الواحد المراكشي - طبع مصر ١٩٤٩)
٥٥) البيان المغرب في اخبار المغرب (ابن عذاري المراكشي - طبع بيروت ١٩٥٠)
٥٦) رحلة التجاني (ابو الفضل محمد بن ابراهيم التجاني - مخطوط - المكتبة الاحمدية بالجامع الاعظم بحاضرة تونس تحت عدد ٥٠٥٨)
٥٧) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (ابو عبد الله محمد الزركشي - طبع تونس ١٢٨٩ هـ)
٥٨) المونس في اخبار افريقية وتونس (محمد بن ابي القاسم الرعيني - طبع تونس ١٣٥٠ هـ)
٥٩) الحلل الموشية في الاخبار المراكشية (محمد لسان الدين بن الخطيب - طبع تونس ١٣٢٩ هـ)
٦٠) الادلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية (احمد بن الشماع - طبع تونس ١٣٥٥ هـ)
٦١) غزوات عروج وخير الدين (مجهول - تحقيق نور الدين عبد القادر - طبع الجزائر ١٩٣٤)
٦٢) الخلاصة النقية في امراء افريقية (محمد الباجي المسعودي - طبع تونس ١٣٣٣هـ)

٦٣) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (محمد الصغير الوفراني - باريس ١٨٨٨-)

٦٤) نفح الطيب (شهاب الدين احمد بن محمد المقري - طبع مصر ١٩٤٩)

٦٥) ازهار الرياض (شهاب الدين احمد بن محمد المقـري - طبع مصر ١٩٤٢)

٦٦) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى (احمد بن خالد الناصري السـلاوي - مصر ١٣١٢هـ)

٦٧) التذكار ، تاريخ طرابلس الغـرب (محمد بن غلبون - طبع مصر ١٣٤٩هـ)

٦٨) المجمل في تاريخ لوبيا (مصطفى عبد الله بعيو - مصر ١٩٤٧)

٦٩) التاريخ العام للجزائر (عثمان الكعاك - تونس ١٣٤٤هـ)

٧٠) تاريخ الجزائر في القديم والحديث (مبارك بن محمد الميلي - قسنطينة ١٩٣٢)

٧١) الحلل السندسية في الاخبار والاثـار الاندلسية (شكيب ارسلان - طبع مصر ١٩٣٩)

٧٢) المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا (احمد توفيق المدني - طبع الجزائر ١٣٦٥ هـ)

٨٣) رحلة الاندلس (محمد لبيب البتنوني - مطبعة الكشكول ١٩٢٧)

٧٤) دولة الاسلام في الاندلس - العصر الاول - (محمد عبد الله عنان - مصر ١٩٤٢)

٧٥) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين (محمد عبد الله عنان - مصر ١٩٤٩)

٧٦) اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر (لمجهول - نشر - ش - ارسلان - مصر ١٩٢٥)

٧٧) خلاصة تاريخ الاندلس (شكيب ارسلان .. تذييل لروايـة آخر بني سراج - مصر ١٩٢٥)

٧٨) خلاصة تاريخ تونس (حسن حسني عبد الوهاب - تونس ١٣٧٢ هـ)

٧٩) مجلة الثريا التونسية المجلدان الاول والثاني (١٩٤٤ - ١٩٤٥)

رابعا الكتب المعربة :

٨٠) تاريخ الشعوب الاسلامية (بروكلمان - تعريب نبيه فـارس - منير البعلبكي - طبع بيروت ٤٨ - ١٩٥٠)

٨١) تاريخ العرب - موجز (فليب حتي)

٨٢) تاريخ العرب - مطول (فليب حتي - ادوار جرجي - جبرائيل جبور - طبع بيروت ٤٩ - ١٩٥١)

٨٣) الدعوة الى الاسلام (ت - و - ارنولد - تعريب - حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين مصر ١٩٤٧)

٨٤) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (يوسف اشباخ - تعريب عبد الله عنان مصر - ١٩٤٠ - ١٩٤١)

٨٥) تاريخ اروبا في العصور الوسطى (هـ - ا - ل - فشر - تعريب محمد مصطفى زيادة ، الباز العرني ، مصر سنة ١٩٥٠)

٨٦) تاريخ العرب (ل - ا - سيديو - تعريب عادل زعيتر - مصر ١٩٤٨)

٨٧) حضارة العرب (غوستاف لوبون - تعريب عادل زعيتر مصر - ١٩٤٥)

٨٨) مدنية العرب في الاندلس (جوزيف ماك كيب - تعريب تقي الدين الهلالي - مطبعة المعاني ١٩٥٠)

٨٩) سيرة القاهرة (ستانلي لينبول - تعريب ابراهيم حسن ، ادوار حليم مصر ١٩٤٦)

٩٠) اثر الشرق في الغرب (جورج يعقوب - تعريب فؤاد حسنين علي - مصر ١٩٤٦)

٩١) الشرق والغرب او الخيبة الادبية (احمد رضا بك تعريب محمد بورقيبة - محمد الصادق الزمرلي تونس - مطبعة النهضة)

٩٢) حاضر العالم الاسلامي (لوثروب ستودارد - عربه عجاج نويهض ، والمقصود منه حواشي وتعليقات شكيب ارسلان - مصر ١٣٥٢ هـ)

٩٣) العرب في التاريخ (، تاليف برنار لويس ، تعريب نبيه امين فارس ومحمد يوسف زائد - طبع بيروت ١٩٥٤)

٩٤) الفنون الاسلامية (تاليف - م - س - ديماند ، تعريب احمد محمد عيسى دار المعارف بمصر)

خامسا المراجع الاجنبية

GROUSSET RENE

٩٥) Histoire des Croisades - 3 Vol. - Paris - Plon

٩٦) L'Epopée des Croisades - 1 Vol. - Paris - Plon

٩٧) Les Croisades (Collection « Que Sais-Je N° 157) - Presses Universitaires

BRUNSCHVIG ROBERT

٩٨) La Berberie Orientale sous les Hafsides - Tome 1er - Paris 1940.

JULIEN CH. ANDRE

٩٩) Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquête Arabe à 1830 - Paris - Payot - 1952.

GARRIGOU GRAND-CHAMP

١٠٠) Documents divers relatifs à la Croisade de Saint Louis contre Tunis — Tunis - Rapide - 1912.

GASTO WIET

١٠١) Histoire de la Nation Egyptienne - Tome IV - Paris - Plon - 1937

A. PELLEGRIN

١٠٢) Histoire de la Tunisie - Tunis - Namura - 1948

DE MAS-LATRIE

١٠٣) Traités de Paix et de Commerce entre les Chrétiens et les Arabes — Paris, 1866

R. DOZY

١٠٤) Supplément des Dictionnaires arabes.

١٠٥) **LAROUSSE du 20° Siècle**

SYLVESTRE DE SACY

١٠٦) Journal Asiatique - Tome VII - 1825

F. SCHRADER et L. GALLOUEDEC

١٠٧) Atlas Classique - Hachette 1948.

HARRY W. HAZARD - H. L. COOKE and J. Mc A. SMILEY

١٠٨) Atlas of Islamic History - Princeton University Press - 1954.

فهرس الخرائط والصور

الصفحة		
٦	مناطق النفوذ المسيحي التي استولى عليها المسلمون قبل فتوحات الاتراك	
٢٢	البلاد الشامية أثناء الحروب الصليبية .	
٢٥	صلاح الدين الايوبي .	(صورة)
٣٤	مسير الحملة الصليبية الاولى .	
٣٦	كنيسة القيامة بالقدس .	(صورة)
٤٢	الامارات الصليبية .	
٥٩	بحيرة طبرية	(صورة)
٦١	سور مدينة عكا .	(صورة)
٦٨	المسجد الاقصى .	(صورة)
٧٢	الامارات الصليبية بعد الحرب الصليبية الثالثة .	
٧٥	نتيجة الحرب الصليبية الرابعة .	
٩٠	واجهة دار ابن لقمان بالمنصورة .	(صورة)
٩٥	الفرع الشرقي لنهر النيل .	
١٠٥	مسير لويز التاسع في الصليبيتين السابعة والثامنة .	
١١٢	صلاح الدين يشرف على خروج الصليبيين من القدس .	(صورة)
١١٦	آلات طبية وجراحية عربية .	(صورة)
١١٨	نسيج إسلامي مطرز .	(صورة)
١١٩	من زخرف البناء الاسلامي .	(صورة)
١٢٠	من فن التطعيم الاسلامي .	(صورة)

الصفحة		
١٢٢	حصن الاكراد بالشام	(صورة)
١٣٠	منبر المسجد الجامع بالقيروان ، قلعة صلاح الدين .	(صورة)
١٣٣	خير الدين باشا (بربروس) .	(صورة)
١٤٩	عبور أول جيش إسلامي الى الاندلس .	(صورة)
١٥٣	جامع قرطبة .	(صورة)
١٨٠	الاندلس في مختلف عصورها الاسلامية .	
١٨٣	قصر الحمراء بغرناطة .	(صورة)
١٨٨	« لاجيرالدا »	(صورة)
١٩٤	معمل الباطان .	(صورة)
١٩٥	الجامع الكبير بتستور .	(صورة)
٢٠١	مناطق نزول الاسبان والبرتقيز بسواحل المغرب العربي .	
٢٠٤	حصن الاسبان بجربة .	(صورة)
٢٠٦	برج الرؤوس .	(صورة)

فهرس المواد

الموضوع	الصفحة
تقديم	ج
مادعاني	هـ
الفصل الاول: حالة المجتمع الاسلامي قبيل الحروب الصليبية	
مصر الفاطمية	١
الشرق الاوسط والخلافة العباسية	٢
حالة البلاد الشامية في القرن الخامس الهجري	٣
الحالة بافريقية وصقلية والاندلس	٣
فرق الاسماعيلية	٧
الفصل الثاني : ماهية الحروب الصليبية	
الحروب الصليبية	١٠
اسباب الحرب	١٢
الغرض الديني من الحروب الصليبية	١٧
موقف الفاطميين من الحروب الصليبية	١٨
الفصل الثالث : الحرب الصليبية الاولى	
الاستعداد للحرب الصليبية	٢٧
مسير حملات الصليبية الاولى	٢٩
وصول الصليبيين الى القسطنطينية واحتلال انطاكية	٣١
احتلال بيت المقدس	٣٥
الامارات الصليبية	٣٧
من أسباب نجاح الصليبية الاولى	٤٠
الفصل الرابع : نهضة آل زنكي، الصليبية الثانية	
نهضة ال زنكي	٤٣
فتح الرها	٤٥

الحرب الصليبية الثانية ٤٦
النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين ٩٤
لله درك نور الدين من ملك ٥٤

الفصل الخامس: سلطنة صلاح الدين، الصليبية الثالثة

سلطنة صلاح الدين الايوبي ٥٦
استرجاع بيت المقدس ٥٨
حصار عكا والحرب الصليبية الثالثة ٦١
صلح الرملة ونهاية صلاح الدين ٦٤
بعد مائة عام ٦٧
الداوية والاسبتارية ٦٩

الفصل السادس : الصليبيتان الرابعة والخامسة

الحرب الصليبية الرابعة ٧٣
السلطنة اللاتينية بالقسطنطينية ٧٦
الحرب الصليبية الخامسة ٧٧
عيسى وموسى يخدمان محمدا ٨٠
هدم سور بيت المقدس ٨١

الفصل السابع : الصليبيتان السادسة والسابعة

الحرب الصليبية السادسة ٨٣
استيلاء فريدريك الثاني على القدس ٨٥
الحرب الصليبية السابعة ٨٧
المماليك ٩٢
دار ابن لقمان على حالها ٩٤

الفصل الثامن) نهاية الصليبيين بالمشرق ، الصليبية الثامنة

نهاية الصليبيين بالمشرق الاسلامي ٩٦
الحملة الصليبية الثامنة بتونس ٩٨

الحروب الصليبية أكثر من الحملات الثمانية ١٠٣
زالت دولة الصلب ١٠٤
أدرك أندلسا ١٠٦

الفصل التاسع : نتائج الحروب الصليبية

مسالك الحضارة الاسلامية الى أروبا ١٠٨
ما استفادته اروبا من الحروب الصليبية ١٠٩
اثر الحروب الصليبية على العالم الاسلامي ١٢١
المسلمون والصليبيون غير المتحاربين ١٢٦
مدينة دمشق ومستشفياتها ١٢٦
صور من طب الصليبيين ١٢٧
امرأة صليبية تستغيث بصلاح الدين ١٢٨

الفصل العاشر : صلة الصراع في المغرب بالحروب الصليبية العامة

الفتوحات الاسلامية باروبا الغربية ١٣٥
صلة الصراع في الاندلس بالحروب الصليبية ١٣٨
حول معركة بلاط الشهداء ١٤٣
أروبا الغربية في العصور الوسطى ١٤٥

الفصل الحادي عشر : أدوار السيادة الاسلامية بالاندلس

الفتح العربي للاندلس ١٤٧
ولاة الاندلس ١٥٠
الدولة الاموية بالاندلس ١٥١
ملوك الطوائف ١٥٤
عصر ملوك الطوائف ١٥٨
طليطلة ١٥٩
دولة المرابطين ١٦٠

الفصل الثاني عشر : من نجدة المرابطين الى ضعف الموحدين

نجدة المرابطين - معركة الزلاقة ١٦٢
ضعف المرابطين ١٦٤

ثورة الاندلس على المرابطين واشتداد الضغط الاسباني . ١٦٥
نزول النرمان بالسواحل الافريقية ١٦٥
سقوط المهدية بيد النرمان ١٦٦
الموحدون يوحدون المغرب الاسلامي ١٦٧
واقعة العقاب ١٧٠
اختلاف الهمم ١٧٣
لمحة عن الحضارة الاندلسية ١٧٣
مملكة البرتغال ١٧٥

الفصل الثالث عشر : من ضعف الموحدين الى سقوط غرناطة

ضعف الموحدين ١٧٧
التقهقر الاسلامي في الاندلس ١٧٩
سقوط غرناطة ، محنة التنصير والجلاء ١٨٤
مراثي الاندلس ١٩١
الهجرة الاندلسية الى تونس ١٩٢

الفصل الرابع عشر : الصراع على المغرب بين الاسبان والعثمانيين.

نزول البرتقيز والاسبان بالسواحل المغربية ١٩٦
جولة البرتقيز الاخيرة بالمغرب الاقصى ١٩٩
صراع الاسبان والعثمانيين من أجل المغرب الاوسط والادنى ٢٠٠
استيلاء بني عثمان على تونس ٢٠٧
تونس مدة الحماية الاسبانية ٢٠٩
الحكم العثماني بالمغرب العربي ٢١٠
ثبت مصادر ومراجع الكتاب ٢١٣
ثبت الخرائط والصور ٢١٩

الخطأ والصواب

الرجاء من القاريء ان يصلح هذه الاخطاء المطبعية قبل شروعه في قراءة الكتاب وهي اخطاء رأينا من الاحسن الاشارة إليها ، وان كانت هناك أخرى لاتفوت نباهة القاريء

ص	س	الخطأ	الصواب
١٠	١٩	١٥ هـ	١٣هـ
٢٠	٢	١٣ هـ معركة اجنادين	١٣هـ معركة اليرموك واجنادين
٢٠	٣	١٥هـ معركة اليرموك وصلح بيت المقدس	١٥هـ صلح بيت المقدس
٢٠	٦	١ ـ رأيان	٣ ـ رأيان
٢٠	١٤	لقوساطاف	لغوسطاف
٨٥	١٦	عمرو	عمر
٩٠	١	دار لقمان	دار ابن لقمان
٩٤	١٢،١	« « « «	« « « «
١٣٠	١	محراب	منبر
١٥٤	١٩	٤٥٠	٤٠٧
١٥٤	٢١	المعتمد بالله	المعتد بالله
١٦٣	٧	سير ابن ابي ابي بكر	سير ابن ابي بكر
٢١٢	٤	الاشراق	الاشراف

ثورة الاندلس على المرابطين واشتداد الضغط الاسباني. ١٦٥

#95 8350

ثبت مصادر ومراجع الكتاب ٢١٣
ثبت الخرائط والصور ٢١٩

DORST
RETURNED
JAN 4 1979
DEC 13 1978

Date Due

Demco 38-297

APR 69
N. MANCHESTER, INDIANA

NYU - BOBST
31142 00319 1502
D158 .M26
al-Hurub al-Salibiyah fi al-Ma